لاديسلاف مناتشكو

ما لذة السلطة ؟

رواية

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

ترجمة: غياث موصلي

دار الحوار

ما لذَّة السُّلطة

- ما لذة السُّلطة
- تأليف: لاديسلاف مناتشكو
- ترجمة: د. غياث الموصلي
- جميع الحقوق محفوظة للناشر©
- الطبعة الأولى: 5/ 2012
- الناشر: دار الحوار للنشر والتوزيع

www.daralhiwar.com

سورية - اللاذقية - ص. ب: 1018

هاتف وفاكس: 422339 41 963

البريد الإلكتروني: daralhiwar@gmail.com

info@daralhiwar.com

تم تنفيذ التنضيد والإخراج الضوئي في القسم الفني بدار الحوار

❁ ❁

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

❁ ❁

لاديسلاف مناتشكو

ما لذَّة السلطة

ترجمة: د. غياث الموصلي

دار الحوار

-1-

مددوا الفقيد في صالة الحزن الواسعة على طاولة غطيت بالحرير الأسود، وقدماه باتجاه البوابة البرونزية الكبيرة. كان جسمه الضخم يملأ التابوت المطلي في قسمه السفلي بالأسود الصيني، وقد غُطّي قسمه العلوي بعازل زجاجي ليتمكن المودّعون من إلقاء النظره الأخيرة على الفقيد.

بدا هذا التابوت مألوفاً لـ فرانك، وراوده شعور خفي بأنه ربما استعمل في مناسبات مماثلة! وإذا لم يكن تخمينُهُ في محله، فلابد أن يكون تابوتاً مشابهاً، بهذه الفكرة شبه المستحيلة، حدّث فرانك نفسه، ثم استرسل في تفكيره: من المؤكد أن، هذا التابوت قد صنع خصيصاً لهذه المناسبة، وعلى مقاس الفقيد كي يلائم مركزه، وأهميته. لقد صنعت التوابيت منذ الأزل لحماية الميت من العوامل الطبيعية، ومن ثقل التراب الذي سيغطيه، ولهذا عليها أن تكون قوية، ومنيعة، ومجهّزة حسب مواصفات الميت المادية، ومكانته الاجتماعية، إذ تستخدم في صناعتها مواد تقاوم التعفن، والتفسخ، والتحلل الكيميائي. لقد شاهد فرانك في حياته العملية توابيت صنعت من معادن ثمينة، مرمر، رخام، وبعضها كان مرصعاً بالحجارة الكريمة، وحُفِر في مقدمتها اسم المتوفى، وتاريخ وفاته، ومركزه الاجتماعي في الحياة الدنيا. نهاية الأمر، كل شيء على ما يرام: طمأن فرانك نفسه.

لقد صُنِعتْ التوابيت في الأصل لحماية بقايا الإنسان من الرطوبة، والعفن، والبرد، والحرارة، وهدفها تمكين الأجيال القادمة من معرفة

صاحب التابوت من بقايا عظامه التي تدل على حجمه، وعظمته، وهي تشير في ذات الوقت إلى البقاء الأزلي للقائد، والملك، والمبدع، والظالم، والمشهور، والغني، وأولئك الذين يريدون حتى بعد وفاتهم التأكيد على أنهم كانوا مميزين، ومن أصحاب النفوذ في حياتهم، ولكن في الأحوال كلها يبقى الهدف الأساسي من تحنيط هؤلاء الناس هو الرغبة في تخليدهم.

إن هذا التابوت بالذات، والمصنوع حسب القياس، وإن كان قد صنع لهذه المناسبة أو استخدم في مناسبات أخرى، أو سوف يستخدم لاحقاً، ما هو إلا عبارة عن شئ سخيف، لأنه لم يقم بالمهمة المطلوبة، ولن يقوم بها أبداً، فاليت سوف يحرق جثمانه بعد يومين. وما يبقى منه سيوضع في زجاجة أمام قبره.

لماذا أتعبوا أنفسهم في تصنيع هذا التابوت المكلف، واللامع لدرجة أنك إذا لمسته بيدك بقيت عليه بصمات أصابعك واضحة وقتاً طويلاً؟ مهما يكن، فلابد لهذا الميت أن يرقد في شئ ما: هوّنَ فرانك الأمر على نفسه.

ألبسوا الميت بزة سوداء فوق قميص ناصع البياض، وربطة عنق حمراء داكنة تتدلى من منتصف قبته، وحذاءً أسود لامعاً. لقد ولى ذلك الزمن، الذي كان فيه المرحوم يرتدي قميصه البسيط، ويهزأ من لباس فرانك، ومن ربطة عنقه الأنيقة، ويوبخه على لباسه البرجوازي، لأنه في الأصل لم يكن يعترف بربطة العنق وأهميتها، ويعتبرها لباساً غير مناسب، وتقليداً برجوازياً سخيفاً، حتى إنه في يوم زفافه، الذي حضره فرانك بوصفه شاهداً، جاء بالقميص، والبنطال فحسب. ولا يزال فرانك يتذكر تجهم وجه المسؤول عن عقد القران من هذا التصرف.

توقف فرانك عن استخدام ربطة العنق منذ زمن طويل، لأنها أصبحت تضايقهُ، وإذا كان مضطراً لذلك في بعض المناسبات فقد كان

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

ينتابه شعور بعدم الراحة، شعور الإنسان المخنوق، والمكبل. علماً بأن ربطة العنق ضرورية جداً لعمله، لكنه يشعر كلما وضعها حول عنقه بتدني أهميته. وأفضل شعور ينتابه حين يرتدي قميصاً ملوناً، ومعطفاً مصنوعاً من الجلد. لقد حصل هذا الميت على لقب المسؤول الأكبر أناقة في هذه البلاد. كان يقف طويلاً كل صباح أمام المرآة ليعقد ربطة عنقه معتقداً أنها سر نجاحه، وسبب شبابه المستمر، أما بالنسبة لفرانك الذي خَبره، وعَرفه جيداً، فقد كان هذا التصرف برهاناً وتأكيداً على تزايد تبذيره، وانتهاء تواضعه القديم. آه آه.... نعم الزمن يتغير.... تنهد فرانك، وفي الحال غاب عن ذهنه موضوع ربطة العنق الحمراء التي اختاروها للميت من مخزونه الهائل الذي لا ينضب من ربطات عنقه، وانتبه إلى الشعلة اليونانية التي وضعوها على طرفي التابوت. والتي لم تكن في الأصل شعلةً يونانية، بل كانت عبارة عن مصابيح قوية الضوء، ربما 200 أو 500 شمعة، مثبتة على أواني برونزية مقلوبة إلى السقف. إنها نوع معدل عن الشعلة اليونانية الحديثه، كما وضع أخصائيو الديكور خزانةً بلوريةً مليئةً بالأوسمة والنياشين عند قدمي الفقيد، إضافة إلى شهادات الدكتوراة الفخرية التي يستحيل إحصاء عددها، والتي كان المرحوم شديد الولع بها إلى حد الهوس، إذ إنه كان يفتعل اللقاءات والمناسبات كي يحصل عليها، ويبقى سؤال كبير معلقاً عمّا إن لم يكن مجمل نشاطه في الآونة الأخيرة مركزاً على كيفية الحصول على أكبر عددٍ من تلك الشهادات، وبخاصة تلك التي لم تكن موجودة في مجموعته. لقد كان يحرص في كل مناسبة على أن يضع منها على صدره من صفين إلى ثلاثة صفوف. كان فرانك مولعاً بالنظر إليها وإلى النجوم، والصلبان التي كانت في غالبيتها تقديراً من الدّولة، وبعضها كان من دول أجنبية. لقد حاول فرانك جاهداً البحث عن

إحدى الميداليات التي كانت تستهويه في وقت ما، حين كان يراها في الفيلا التي كان يسكنها الميت، ها، ها.. إنها هناك، ولكنها الآن لن تسترعي انتباه أحد، ولن يقف أمامها أحد، أو حتى يفكر بها أحد، إنها لن تفاجئ أحداً الآن كما فاجأت فرانك في ذلك الوقت. كانت تقديراً من دولة غربية، اضطر جميع من حصلوا عليها على إعادتها إلى مصدرها بشكل تظاهري، ونشرت الصحف في حينها أن الجميع أعادوها، ولكن.. وهنا ابتسم فرانك: الجميع لا. هذا الميت لم يعدها. لماذا تركها، ولم يعدها؟ ألم يفكر بحجم المخاطرة التي ارتكبها من جراء الاحتفاظ بها؟ كان كافياً أن يعلن أحد خصومهِ السياسيين عن تلك المخالفة لتكون سبباً في إنهاء مستقبله السياسي. ولكنه مع ذلك لم يكن بهذه السذاجة لكي لا يقدر حجم المخاطرة التي وضع نفسه فيها من جراء الاحتفاظ بها. لقد علقت هذه النجمة على صدره ضمن احتفال رسمي وعلني موثق بالصور، وبالمقالات الصحفية العديدة.

عندما وقعت عين فرانك عليها بدأت تساورهُ بعض الشكوك. وسأل نفسه:

ـ هل يُعقل أن يكون الميت مغرماً بها إلى الحد الذي جعله يخاطر بمستقبله من أجلها؟ لابد أن يكون هناك شيء أكبر من ذلك جعله يصر على الاحتفاظ بها. ربما كانت الصرخة الأخيرة التي أراد من خلالها التعبير عن مدى سخطه، وعدم رضاه عن الأوضاع، ومقاومته، وربما، وربما... والله أعلم، التعبير عن احتجاجه. لم يستطع فرانك أن يبعد نظره عن النجمة. كانت كبيرة الحجم، وتشع بالأحمر الداكن.

لم تكن ملائمة لهذا المكان ولا لهذا الميت، لأنه لم يكن جديراً بها أصلاً، وربما منذ اللحظة التي تقلدها، وعلى كل حال لم يحدث أي شئ لأنه لم يعدها، بالرغم من معرفة "جالوفيتش" بالأمر. ربما تركها

له كمصيدة؟ ربما يكون ذلك جواباً لهذا الإشكال، ومع ذلك يبدو الأمر غريباً لكونه لم يردها إلى مصدرها، وآثر الاحتفاظ بها. ربما وجدها تناسبه، وبغض النظر عن ردة فعل فرانك فإن الحقيقة تقول إن تلك النجمة قد أفرحته عندما لمحها بين مجموعة الميداليات، وكل ذلك من أجل المرحوم الذي ربما يكون قد أخطأ بحقه، وربما لم يكن بهذا السوء كما صوروه.

ـ لا تتحرك بين أقدامنا... "قاطع صوت خشن تفكير فرانك.

ابتعد فرانك مفسحاً الطريق.

اقترب رجلان من التابوت، ووضعا تحت أقدام الميت إكليلاً كبيراً من القرنفل الأحمر. لقد أحصى فيه فرانك ما يقارب الثلاثمائة قرنفلة.

من أين جمعوا هذا العدد الهائل من القرنفل الأحمر؟

لا شك أنهم أحضروا قسماً كبيراً منه بالطائرة، وعلى الأغلب في الليل.

وضع مهندسو الديكور إكليل الزهور بشكل مائل تحت الخزانة البلورية، وفرشوا الأرض أمام الإكليل بسجادتين، الأولى حمراء، ورسم على الثانية العلم الوطني. حين شارفت أعمال الديكور على نهايتها، قام العمال بتغطية الجدار الموجود في صدر القاعة بثوب من المخمل الأسود لستر المداخل المؤدية إلى القسم الخلفي من الصالة، كما ثبتوا على الجدار صورةً كبيرة للمرحوم علقت في أسفلها لائحة كتب عليها اسمه، وتاريخ ولادته، والمناصب التي شغلها، والمنجزات التي حققها، ووضع في زاوية الصّالة أيضاً حوض خشبي كبير معبأ بالنباتات الكثيفة الخضراء. إن الزوار في مثل هذه المناسبات، إضافة إلى طابور المودعين، لا يدركون أهمية تلك النباتات الكثيفة الخضراء ووظيفتها التي لا علاقة لها بالديكور على الإطلاق، لكن فرانك يعرف أنه في اليومين المخصصين

لوداع المرحوم يمكن أن تحدث أشياء غريبة، لأنهم سيحضرون إلى الصالة امرأة سوف تدعي الغيبوبة من شدة انفعالها وحزنها، وسوف يتابع المراقبون السريون ردود أفعال وتصرفات المودعين من خلال عيونهم، ووجوههم، وسيكونون على أهبة الاستعداد للتدخل في الوقت المناسب لمنع أي شئ يمكن أن يسيء إلى هذه المناسبة، كما سيقف خلف هذه النباتات بعض الرجال ليراقبوا ويسمعوا، ويسجلوا أيضاً. كان فرانك متأكداً من أن كل شئ قد دُرس وخطط له بشكل مسبق، كما دُرست جميع الاحتمالات لمنع حدوث مفاجآت، ولكي تسير الأمور بالشكل الصحيح كما خطط لها.

العمل في أوجه، أصوات المطارق، وحفيف الأوراق، وصوت وقع أقدام قويّة على الأرض. الناس يدخلون ويخرجون، ولا أحد منهم يدرك أو يتصور مقدار الجهد الذي بذل في الليل، والنهار لإخراج هذه المناسبة بالشكل اللائق. ولكن هذه الأصوات مهما كان مصدرها لن تؤثر بالميت. إن وجهه الهادئ يعطيك انطباعاً يدل على الوقار، والراحة، والسعادة، ولون بشرته يدل على الانتعاش، ويبدو وكأنه يسبح في نوم عميق، ويخيل إليك أحياناً أنه في اللحظات القادمة سوف يفتح عينيه، وربما سيرفع الغطاء الزجاجي مستغرباً ما يدور من حوله. إنه مجرد حلم فحسب. لم تكن تلك المرة الأولى التي يحضر فيها فرانك مثل هذه المناسبات. لقد شارك في العديد منها، ولكن ما يراه هنا اليوم يشير إلى أنّ نهاية المرحوم لم تكن بنفس الهدوء الذي يعبر عنه وجهه.. ربما لم يكن يريد الموت، وربما قاومه حتى اللحظات الأخيرة بيدهِ التي تستريح الآن بهدوء فوق حوضه، والتي ربما اضطروا لكسرها في المشرحة ليتمكنوا من وضعها في المكان المناسب. لعله أراد في اللحظة الأخيرة أن

يصرخ، ويبوح بشئ ما، ولكن تشنجات الموت منعته، وقلبت فكه الذي اضطر المشرحون لرده إلى مكانه الطبيعي، وربما اضطروا أيضاً لإجراء أشياء أخرى كي يبدو مظهره لائقاً لتلك المناسبة.

لكن بكل أسف ستذوب في الغد جميع المساحيق الملوّنة التي دهنوا بها وجهه من تأثير حرارة المصابيح التي ملأت الصّالة، ومن تنفس المودعين، ومن وهج كاميرات التصوير. سوف يصغر أنفهُ، ويبرز، وسوف تغرق عيناه في وجهه الذي سيصفر لونه، ولكن هذا لا يهم. المهم أنه سوف يبدو بصوره لائقة في اليوم الأول من الوداع الرسمي لأن حرس الشرف سيتشكل من كبار المسؤولين في الحزب والدولة، وبعد غد سوف يغطى التابوت، ولن يرى أحد وجهه بعد ذلك.

باشر الموسيقيون في الطابق العلوي بدوزنة آلاتهم وتحضيرها، وكان يسمع من حين لآخر صوت البوق، والطبل، والكمان والأورغ، ولكن شتان ما بين هذه الأصوات وبين تلك التي نسمعها في المسرح قبل بدء الحفلة الموسيقية. إنك حينما تسمع صوت دوزنة الآلات في المسرح تتنبأ بالسحر الذي ينتظرك.

لقد مضى زمن طويل على آخر مرة زرت فيها المسرح، وسمعت فيها الموسيقى: حدث فرانك نفسه، حتى أني نسيت سماع الاسطوانات في البيت أيضاً. إن فرانك يملك في بيته مكتبة موسيقية كبيرة غنية بالأعمال الموسيقية الرائعة. وَلِمَ الأسف؟ حدث فرانك نفسه، إنَّ أي موسيقى مسجلة على الأسطوانة لا تستطيع أن تلتقط اللحظة، ولا والجو الرائع الذي يشعر به الإنسان حين يسمع معزوفة تؤديها فرقة موسيقية في المسرح. دعهم يخترعوا الآلات الموسيقية، والستريو، والمسجلات أو أي شيء، كل هذا لا يمكنه التقاط اللحظات التي لا تتكرر من الانفعال والترقب التي يعيشها زوار المسرح.

لدوزنة الآلات الموسيقية في هذه الصّالة وقع مختلف تماماً. إنها تزعج الإنسان وتشعره بعدم الراحة. أحس فرانك أنهم يعزفون حقاً للميت، وربما يشتمونه، ويسخرون منه أيضاً، وفي اللحظة التي ستفتح فيها البوابة البرونزية سنسمع موسيقى مختلفة، ولكنها في النهاية ليست له، لأن الميت لن يسمعها. الميت هو الميت.

فرانك لم ير الموسيقيين، وهم أيضاً لا يرون أحداً، ولا يعرفون شيئاً عما يجري في الصالة، وسيبقون طوال حفلة الوداع مختبئين في أماكنهم. إنهم أدوات تعمل لذرف دموع المودعين بالموسيقى الحزينة. إنهم مجموعة من الموسيقيين المغمورين، وغير المؤذين. ومن أكون أنا؟ فكر فرانك بنفسه: ألست أيضاً مثلهم؟ ألست من العناصر التي تساعد على تهيئة هذا الحزن؟ ولكني على عكسهم لا أستطيع البقاء خارج الضوء، وسوف أضطر أحياناً لترك هذه الزاوية، والوقوف أمام جناحي هذا الباب البرونزي الكبير، ولكن من ناحية أخرى، حتى لو كنت أمام أعين الجميع، فلن أجد من يهتم بوجودي. إنني من ألوف تلك الأشياء الألوف المؤلفة الموجودة هنا، وإذا سأل أحد عن شكلي فلن يجد من يجيبه على سؤاله. إنني لست إنساناً بوجه حقيقي، ووجهي هو ذلك الشيء المعلق حول عنقي، ويرتاح على بطني. إنني مجرد.. عدسة لآله التصوير.

ضحك فرانك من تلك الفكرة، وضحك أيضاً من وجوده الخفي الذي يحيا به، ويعمل معه. إنه منذ زمن طويل لم يزعج نفسه بتلك الأفكار. وعرف من مناسبات عديدة أن ثروة الإنسان وحريته تكمنان في وجهه غير المعلن. لم يتملق فرانك أحداً في حياته، ولم يبحث عن الشُهرة أيضاً، وكان واضحاً جداً في هذا الموضوع. إنه عبارة عن مُصنع ماهر للوجوه العامة، وفنان في تصحيح أوصاف وجوه هؤلاء الأبطال الأسطوريين، المعروفين منهم، والاصطناعيين، ومهمته الأساسية تجميل

القبيح منهم ليظهر بأحسن شكل، ولهذا السبب سوف يتسمّر هنا في هذا المكان وقتاً طويلاً. إنّه من المصورين القدامى، ويعرف بالضبط كيف ستسير الأمور في الأيام الثلاثة القادمة، وماذا سيحدث في كل دقيقة. وكل ثانية أيضاً. لقد اطلع في مكتب الدفن على البرنامج الذي وجده في منتهى الدقة، ومن المستحيل مخالفته أو تعديله، ولئن حدث أي خلل في تطبيقه فإن ذلك سيؤدي إلى مصيبة كبيرة لا تُحمد عقباها. لم يسمع فرانك طيلة حياته العملية أنّ البرنامج المقرر قد تغير. الدفن الرسمي يجب أن يكون في غاية الدقة ولا يحتمل أي تعديل.

ـ إن مراسم الدفن الرسمي يجب أن تكون دقيقة: قال فرانك للمخبر السري الذي منعه من الدخول إلى البناء من الباب الخلفي، وبذل فرانك جهداً كبيراً ليقنعه بضرورة دخوله المبكر إلى القاعة ليقوم بدراسة المكان على الواقع، وأخرج كل أوراقه الثبوتية، وبطاقاته الرسمية، بما في ذلك إذن الدخول إلى كافة المناسبات، ولكن عبثاً. كان المخبر عنيداً جداً، وراح يحرّك رأسه ذات اليمين وذات الشمال لإفهامه استحالة دخوله إلى الصالة تنفيذاً للأوامر.

ـ قبل مراسم الوداع لا يوجد ما تراه: رد عليه المخبر، وأفهمه أن الباب الخلفي معد لدخول مالكي البطاقات الحمراء حصراً. ولكن فرانك نصحه بكل أدب قائلاً:

ـ يا رفيق، لا تيبس رأسك، يجب أن تبدو الأمور بأفضل شكل أثناء مراسم الدفن الرسمية. والمنع لا يشملني!

لقد أنقذته هذه العبارة، وسمح له المخبر أخيراً بالدخول.

سمع فرانك ضجيجاً وحركة سريعة لأقدام في المعبر المؤدي إلى القاعة المغطاة بالستائر السوداء، وعندما دخل القاعة التي شارف العمال فيها على إنهاء عملهم، شاهد مجموعة من الرجال باللباس الأسود الرسمي،

وعدداً من الضباط بزيهم العسكري، وقد تقدم هذه المجموعة سكرتير الرحوم الشخصي الذي خاطبهم بلهجة آمرة.

ـ خذوا أماكنكم على شكل دائرة أيها الرفاق.

ثم تابع:

ـ سوف نتدرب على دخول الصالة.... الرجاء من المجموعة الأولى التقدم.

كانت مجموعة الشرف السداسية الأولى تتألف من أقرب مساعدي المرحوم، وأعضاء مكتبه الخاص، ويقودهم سكرتيرهُ الخاص.

ـ لنبدأ من جديد أيها الرفاق من فضلكم... يجب أن تكون خطواتكم قوية وموحدة عند دخولكم إلى القاعة.

خرج الرجال الستة إلى خلف الستارة، وعادوا إلى القاعة بصفين متناسقين، وساروا باتجاه التابوت، وانقسموا هناك إلى صفين، ثلاثة إلى يمين التابوت وثلاثة إلى يساره. وبحماس كبير ركض السكرتير، وقفز أمامهم، وصرخ بهم، وعدل من وقفتهم، ونصحهم، وفي النهاية أطرى على جهودهم...

ـ يا رفاق كان الدخول رائعاً، هكذا عليه أن يكون، أرجو من الجميع أن يتذكروا أدوارهم.

وطلب من المجموعة السداسية الثانية أن تبدأ التّجربة، وتتبادل مع الأولى. ستّة من الحراس يقفون إلى جانبي التابوت حتى حضور حرس التبديل، وبعدها تتقدم المجموعة الأولى، وتقف أمام التابوت، وتحتل المجموعة الثانية مكانهم.

ـ الرجاء أيها الرفاق من البداية مرة أخرى..

أمر السكرتير.

كان مفعماً بالحيوية والنشاط.

- إن شعر أحد منكم بضرورة حك أنفه، أو جسمه أثناء الاحتفال فليصبرْ وليحاولْ كبت هذه الأحاسيس، أيها الرفاق إن مثل هذه الأمور لا تليق بحفل الوداع، كونوا مثل الأصنام.

أيها الرفاق... أرجو منكم قبل الاحتفال أن تراقبوا بعضكم البعض، وتنتبهوا إلى هندامكم، إنه حفل هام، يجب أن يظهر بشكل رائع ومهيب... كلكم خدم في الجيش، ولا أرى ضرورة لتنبيهكم، وتذكيركم اليمين من اليسار، أما لحظة الدخول، والتبديل فسوف تعرفونها من الضوء الأحمر الموجود في أعلى الباب، وعليكم الدخول حين يضيء للمرة الثالثة.

هيا أيها الرفاق لنجرب مرة أخرى من البداية.

لقد قام السكرتير بمجهود كبير. كان يقفز، ويتحرك مثل الشامبانزي. حتى إنه نسي الميت. فهذا اليوم يومه، يومه الكبير، ولأنه رئيس حرس الشرف فقد حصل على صلاحيات تفوق صلاحيات السياسيين، والجنرالات. كان يقودهم جميعاً، ويأمرهم، وكانوا يقفون أمامه كالأولاد، ويبلعون كل فصاحاته. إنه اليوم ولعدة دقائق آمرهم، وقائدهم، ويمكنه تأنيبهم، ونقدهم، ويمكنه أكثر من ذلك، يستطيع تحريكهم. وفي مثل هذه المناسبات تعطى أهمية كبرى للمكان الذي يضعهم فيه، في المقدمة، أو المؤخرة، وزمن الوقوف أمام التابوت. كل هذا مهم، وله دلالاته. إنه هو وحده من يقدر ويقرر كل هذه التفاصيل، ولا أحد غيره. وللحظة بدا لفرانك أن السكرتير هو الشخصية الرئيسية، وليس المتوفى علماً بأنها الخدمة الوحيدة، والأخيرة التي يمكن أن يؤديها لرئيسه.

لم يمض وقت طويل على تعيينه في هذا المنصب، لقد بدأ عمله قبل عدة أيام من مرض المرحوم، ولم يلمحه فرانك قبل ذلك التاريخ، ولا

يعلم من أين أتى، ولا يعرف إن كانت زوجته شقراء أو... سمراء، إنها الخدمة الوحيدة الأولى والأخيرة

إن رئيس القسم الجديد الذي سيحل مكان الميت سوف يحضر معه على الأرجح سكرتيراً جديداً، ومن يدري؟ ربما سيحظى هذا السكرتير على إعجابه، ومن ثم لن يبدله، ويتركه في منصبه، وكل هذا بالطبع مشروط بالحصول على رضاه، ولهذا كان يُظهر كل هذا النشاط، والحماس، والاندفاع في العمل. إنه مسؤول حرس الشرف، ولهذا أيضاً يجب أن تسير الأمور بدقة كبيرة.

ما هذه المهزلة المقرفة؟ قال فرانك لنفسه.

أصحاب الألقاب والنفوذ يجربون هنا دخولهم. لقد عرف فرانك أن مثل هذه المناسبات تحتاج إلى ترتيب، ولكن الذي يجري هنا تجاوز المعقول وأصبح مقرفاً.

تحت هذا الغطاء البلوري يرقد إنسان ميت! وهذا الإنسان أصبح ثانوياً، وكل ما يجري هنا لا علاقة له به، ولا أحد يفكر به، أو ينتبه لوجوده. إن المتوفى مسجى هنا للمودعين، وهؤلاء ليسوا منهم. إنهم عبارة عن ممثلين على خشبة هذا المسرح. إن الناس سوف ينتبهون لوجودهم، ويراقبونهم، ويتهامسون بأسمائهم، ولن يعيروا المتوفى أي اهتمام، هذا فلان، وذاك فلان. إنهم يجربون، ويتدربون لأنهم سوف يصبحون بعد قليل محط أنظار الناس، وكل منهم مغرم بهذا الدور الذي سيلعبه.

لقد تذكر فرانك مهزلة مشابهة لتلك جرت في قصر الحكومة أثناء الاحتفالات السنوية، إذ يتدرب على الدخول ما يقارب المئتي شخص سنة بعد سنة لعدة أيام قبل تقليدهم الأوسمة، والميداليات الحكومية، كما يتذكر أيضاً الانتخابات الغريبة لمندوبي مجلس المدينة، حين

اقترح انتخاب المرشح المقرر سلفاً إلى رئاسة المدينة ورفع الجميع أيديهم بالموافقة كالعميان، لقد جرت الانتخابات بعد ساعتين من هذه المسرحية الكوميدية. لم يعترض أحد، ولم يرفع أحد يده معارضاً، أو يخرج أحد من القاعة تعبيراً عن عدم الرضا. لقد اعتبر المشاركون بهذه المهزلة أن صمتهم يندرج في إطار النظام، والطاعة، والترتيب، والمسؤولية، والشرف أيضاً، هل فكر أحد من الحاضرين بعد ذلك أن هذه الانتخابات يمكن أن تجري بطريقة أخرى؟

لم يستطع فرانك تحمل هذا المشهد التجريبي، بدأ بالتصوير السريع لفيلم كامل. فالحفل يتألف من مجموعة من الناس الذين تعودوا على أضواء "الفلاش"، ولم يفكروا، أو يحسوا بأن أحداً يسخر منهم ويصورهم، لكن فرانك أحس بنظرات السكرتير التي توجهت إليه، ومع ذلك ابتسم له، ولمح حركات عينيه التي تدل على رغبته بحيازة هذه الصور التّذكارية، وقال له بعد ذلك:

ـ أريدها مُكبرة، ستكون تاريخية. إنني في المقدمة وستة جنرالات تحت إمرتي!

قديماً كان فرانك يصور مكرهاً مشاهد مماثلة، وغير لائقة في أماكن غير مستحبّة أيضاً، فماذا سيحدث إن شعر أحدهم أن هذا التصوير ليس في محله؟ اكتشف فرانك بعد ذلك أن مخاوفه ليست في محلها. لقد تعود على أنهم لا يشعرون بوجوده، ولا أحد يهتم به. إنه شيء ما مثل بقية الأشياء، إنه كبسة زر.. يليه ضوء ساطع، وهكذا دواليك. لكن فرانك يقوم في هذا اليوم بأعمال ممنوعة، ومثيرة للشبهة، وكل ذلك بمنتهى الوقاحة أيضاً، ولم يحس بوجوده سوى هذا السكرتير الجديد، وذلك فقط لكونه جديداً، ولم يعتد على وجوده.

- 2 -

في القسم الخلفي من البناء، وفي أحد تلك المكاتب العديدة، جلس لمدة ثلاثة أيام شخص مجهول لا يعلم بوجوده ملايين الناس، ولم يتمكن فرانك بالرغم من الجهد الذي بذله من تسمية هذا الإنسان الهام، أو حتى إعطائه لقباً ما: رئيس لجنة الدفن؟ أم مفوض الدّولة لشؤون تحضير المآتم؟ رئيس بروتوكول الدفن؟ رئيس التشريفات، رئيس حفاري القبور؟ لقد حاول فرانك جاهداً تسميته، ولكن دون جدوى. كان هذا الرجل المهم يقرر كل شيء دون أن يراجعه أحد، إذ تخضع لأوامره لجنة الدفن. لقد حدد تسلسل دخول حرس الشرف، وزمن دخول مندوبي اتحاد العمال، والفلاحين، موظفي الدوائر، والمؤسسات، وغيرهم من الوفود. وقد حدد بدقة المدة الزمنية التي يمكن لأرملة المرحوم أن تبقى فيها داخل صالة الوداع، وحدد كذلك بالترتيب إكليل الزهور الذي يوضع أولاً أمام التابوت، أو بجانبه، وذلك حسب أهمية صاحب الإكليل. كما حدد مدة خطاب كل مسؤول، وتسلسل المتحدثين، وأعطى الموافقة على اختيار المقطوعات الموسيقية الحزينة التي ستعزف، والديكور الداخلي للصالة، ودأب بشكل شخصي على تنفيذه.

لم يعرف فرانك اسمه، ولم يستطع تصور ماذا وأين وكيف يعمل في الظروف العادية، حين لا توجد مناسبة مماثلة، ولكن من غير المعقول أن يكون رجلاً رسمياً كهذا ولا يقوم بمهمات أخرى؟ إن فهم

تلك الأمور يبقى لغزاً بالنسبة للإنسان العادي، نظرا لضخامة المؤسسة التي تهتم، وتنظم أمور الدفن الحكومي.

كان على طابور المعزين أن يمر أمام النعش بسرعة، ودون عرقلة أو اختناقات، وقد حدد زمن وداع المرحوم بيومين فقط، ولهذا السبب ليس من المعقول أن يحضر الجميع دفعة واحدة، إن الرجل السري يملك خبرة كبيرة في تلك المسائل، وحسب تقديراته سيمر بجانب النعش مايقارب مائتي ألف مودع. يجب كذلك معرفة نوع الناس الذين سيمرون أمام النعش ومتى سيمرون، ومن منهم سيمر بحضور عائلة الفقيد، وأقربائه من مسقط رأسه. يجب إعطاء هذا الأمر الأهمية التي يستحقها. يجب تنظيم كل شيء مسبقاً، وتجهيزه، فمثلاً من غير المستحب أن يمر ممثلون عن الفنون الجميلة في اللحظة التي يكون فيها جالوفيتش بين أعضاء حرس الشرف. لأن جالوفيتش لا يطيق رؤية الفنانين عموماً، وسوف يشعر أن في هذا الترتيب نوعاً من التخريب والتحدي لشخصه. يجب أن تكون الأمور مرتبة بحيث تمر في حضور جالوفيتش وفود من أكبر المعامل في المدينة. على هذا الأساس يجب على ذلك الرجل السري ترتيب الأمور. عليه أن يفكر بكل كبيرة وصغيرة، ويعرف مسبقاً الاحتمالات والتوقعات كافةً.

لقد فكر حقيقة بكل شيء، لأن الخبرة الطّويلة التي اكتسبها من الجنازات الماضية علمته بأن وجود عدد كبير من المصورين يسيء إلى مناسبات الحزن، ويشوش وقارها. والمصورون عادة يشكلون في المناسبات مصدر إزعاج ومضايقة للمسؤولين، يتحركون بين أقدامهم، يشاغبون عند عزف النشيد، حيث الجميع في حاله استعداد، ينتقلون من مكان لآخر، ويحاولون الحصول على أفضل الأماكن، يستلقون على الأرض، ويتسلقون الأشجار، ويقفون على المنصّة مثل القرود، يبهرون

عيون المسؤولين بالضوء القوي من آلاتهم، يحشرون أنوفهم في الأماكن التي لا عمل لهم فيها.

لقد أعطى الرجل السري الأوامر:

آلة تصوير تلفزيوني واحدة، وآلة تصوير أفلام واحدة، ومصور وحيد من مكتب الصحافة لا غير، وهذا المصور الوحيد هو فرانك، ولذلك ليس من قبيل الصدفة أنهم يلقبونه بمصور المناسبات الخاصة.

سوف يقف هنا، ولمدة يومين كاملين بشكل لا يثير الانتباه، مختفياً خلف جناح الباب البرونزي، يخرج لبرهة ليلتقط بعض الصور، ويعود بسرعة إلى مكانه. لقد أصبح خبيراً في تلك الأمور، وهو يعرف من يصور، وبكل الأحوال عليه ألا ينسى تصوير جالوفيتش. جالوفيتش وهو يلقي خطبة الوداع، ويقدم تعازيه لأرملة الفقيد. يجب أن تظهر هذه الصور في الصحافة. لقد وصل فرانك إلى شبه قناعة بأن الاحتفالات، والمناسبات، والخطب العامة، تستخدم لإظهار جالوفيتش في الصحف. يجب على فرانك ألا ينسى تصوير الطلائع، أثناء وضعهم أكاليل الورود، والمودعين وهم يجففون دموعهم، والعجائز وهم يحملون بأيديهم المناديل البيضاء أمام النعش. إن فرانك يملك خبرة كبيرة، ويعرف مسبقاً الصور التي سوف تنشر في الصحافة، ومن سيكون فيها، ولكي يفي بالغرض المطلوب عليه أن يكبس زر آله التصوير ما لا يقل عن مائتي مرّة. وإلا فسوف يتهم في رئاسة التحرير بأنه أضاع وقته. مائتا نيجاتيف هو الشيء الطبيعي لجنازةٍ واحدةٍ، ولكنه مع ذلك سوف يتلهى عن العمل من حين لآخر، ماذا سيفعل هنا في يومين كاملين؟ إنه يعرف بالضبط متى عليه أن يكون متواجداً، ومتى يمكنه الهرب، إنه يعرف البرنامج، وقد اطلع عليه بشكل مفصل من لجنة الدفن. وهو منذ مدة طويلة لا يوهم نفسه، ويعرف مكانته بالرغم من أن الجميع يبتسمون له، ويربتون على كتفه مع علمه الأكيد بأنهم يعتبرونه

مزعجاً، وجلفاً، ولكنه مع ذلك يبقى ضرورياً لا يمكن الاستغناء عنه. إنهم بحاجة إليه، وهل يعقل أن يصلوا للشّهرة بدون مصور؟ وهل يمكن تصور أي صعود لمسؤول سياسي بدون مصور؟ لم يلتق فرانك خلال خبرته التصويرية الطويلة إنساناً واحداً لا يحب أن تُلتقط له الصور، ومنهم من ينبهه ليقوم بتصويره، ويلوح له رافعاً يده، وماطاً رقبته. الناس يتلهفون لظهور صورهم في الجرائد، فرانك يعيش هذا الموضوع يومياً، ويعرف أنه بمجرد رؤيتهم للعدسة يتدافعون ليقفوا أمامها. إن فرانك مصور المناسبات الرسمية، والمنصات، ومؤهل بشكل دقيق لتلك المهمات الخاصة، كونه يتحرك دائماً بين المسؤولين في المنصات، والقاعات، وفي لقاءات الرؤساء حيث لا يستطيع أي شخص عادي الدخول. فرانك ينتمي إلى تلك النخبة التي تُفتح لها الأبواب، إضافة إلى سمعته الجيدة. إنهم يعرفونه وقد تعودوا عليه، كما أنه يمر من الحواجز دون تفتيش، لأن بطاقة دخوله هي آله تصوير، ذلك الشيء السحري الذي تفتح له أبواب القصور، والأبواب المعزولة بالتنجيد السميك، وكذلك الأبواب العائلية الخاصة. اليوم اجتماع حكومي، وغداً حفلة كونسرت، وبعدها زيارة مسؤول إلى المصنع، أو الجمعية الزراعية. فرانك يضغط على زر آلته السّحرية ما يقارب العشرين عاماً. يصور الميكروفونات، ومنصات الخطابات. جميع المنصات متشابهة، والميكروفونات أيضاً لا تختلف عن بعضها، ويمكن تطويلها أو تقصيرها حسب طول أو قصر الخطيب، ولكن التبدل يكون عادة في الناس الذين يقفون خلفها. إن مسؤولاً بدون ميكروفون لا يكون مهماً، ومن اللّحظة التي يقف بها خلف الميكروفون يحصل على الأهمية اللازمة. الوجوه تتغير أيضاً خلف الميكروفون، ولكن ذلك ليس مهماً. إنه يشكل في الصحافة حلقة اتصال بين الخطيب، والناس، وإذا أراد الخطيب أن يكون مهماً فعليه أن يعمل ويجتهد لتظهر صوره في

الجرائد خلف الميكروفون، وهنا يقتنع الناس بأنه أصبح مهماً، ولديه ما يقوله لهم. إن فرانك يملك في أرشيفه صوراً لخمسة عشر احتفالاً بالأول أيار. خمس عشرة مجموعة من الصور الدقيقة لمناظر الوجوه المبتسمة الواقفة على المنصة. المنصات متشابهة، ولكن عندما قارن الصور القديمة مع الحديثه لم يجد وجهاً واحداً قد تكرر. أين أولئك القياديون الذين كانوا قبل خمسة عشر عاماً؟ أين ذاك القائد الذي كان يخطف الطفل بحنان من كتف أبيه، ويحمله إلى صدره في المنصة، وأين ذاك الذي كان يشغل نصف صفحة في الجريدة لتحية الشعب؟ من يتذكر اسمه الآن؟ إن صدور الصحف بدون صورة يعتبر في تلك الأوقات أمراً مستحيلاً تصوره....

لا، حقاً إن فرانك لا يوهم نفسه. إنه يعرف عمله، ويعرف أيضاً رأي الناس به، وبخاصة أولئك الذين يبتسمون له، ويتدافعون أمام عدسته. إن عمله صعب، ومزعج، ولكنه شر لابد منه. إنّه يعرف جيداً أنهم في غيابه يتحدثون عنه بالسوء، ويحتقرونه، ويهزؤون منه، ويصنعون منه مادة للتفكه، لكنهم مع ذلك بحاجة إليه، ويتبدلون حين يصبح أمامهم، ويسمعونه الكلام الجميل، ويشيرون إليه، ويجاملونه بوصفهم أصدقاء يرغبون في كسب وده، ولكن حدث لـ فرانك عدة مرات أنهم لم يتعرفوا إليه حين كان مدنياً بدون آلة تصوير. إنهم لا يتجاهلونه عن قصد، لأنه حقاً غير معروف بدون كاميرا، وعندما تكون معه تكون له أهميته. حين يلقون عليه التحية فإنهم في واقع الأمر يحيون عدسته، وكل ابتساماتهم، وكلمات التقدير هي لعدسته، وليست له، وهم على استعداد لفعل أي شيء أمام آلة تصويره، من حركات مضحكة إلى حركات ملأى بالجدية. إنهم يبتسمون حين يكون الموقف يدعو إلى البكاء، ويتصنعون الجدية في الوقت الذي يوجد فيه ما يجبرهم على الضحك. يبدون إعجابهم بأشياء قد تكون مملة، يريدون

أن يكونوا أبديين، ينشدون الخلود عن طريق الصحف، لأن من لم تكن صوره في الصحف لايمكنه أن يصبح خالداً، ولكن كل هذا يبقى من المستحيلات إذا لم تكن عدسة التصوير موجودة، وما معنى ذلك؟ إنهم يريدون أن تظهر صورهم كبيرة أمام الجماهير، ويريدون أن تكون صورهم كل يوم على صدر صفحات الجرائد. وعادةً من لا تكون صورته منشورة بحجم كبير في صفحات الجرائد كل يوم، لا يحق له أن يكون أبدياً في نظر الجماهير. الجرائد توضع في الأرشيف، وتوزن، وتسطر سنة بعد سنةٍ، وهي تقدس حياة الإنسان، وتؤرخ حياة الرجال المهمين. منذ زمن كان يُكتب الكثير عن فرق العمل، والإنتاج، واليوم يُكتب عن نهود النساء، وعن المناسبات الاجتماعية. إن الجرائد ميزان، ومؤشر واقعي عن أهمية الإنسان الاجتماعية. من بين ألوف العاملين في العالم تتحدث الجرائد عن عدد قليل منهم، ومن ألوف السياسيين تكتب أيضاً عن المهمين، والمسيطرين على الحياة السياسية، وهنا أيضاً توجد فروقات عديدة. هنالك فرق بين من تراهم في صورة جماعية في الجرائد، وبين من تراهم في صورة لشخصهم على الصفحة الأولى، وعلى المنصة، وأمام الميكروفون أيضاً، ومن لم تُظهر الجرائد صوره يبقى مجهولاً، ويدعى المواطن العادي. رجل الشارع، الرجل الطيب. الكادح، والمواطنون الشرفاء. حشود المواطنون. العمال، رجال الفكر، والثقافة الخ. هذه الكلمات تسمعها من أفواه المسؤولين، والسياسيين، ورجال السلطة، هذه الكلمات أوصلت فرانك إلى أعلى درجات الغضب.

من أنت؟ من أعطاك الحق في أن تصنع الحواجز بينك وبين الناس؟ وكيف أصبحت إنساناً غير عادي؟ ألأنك حاربت؟

فرانك يعرف مئات المحاربين الأشداء، وعندما انتهت الحرب حملوا عدتهم، وأكلهم المتواضع، وقهوتهم المرّة، وذهبوا ليعملوا في المناجم. بعضهم كان يعرفك أنت بالذات أيها الراقد هنا في هذا

التابوت، ويعرف من تكون، ماذا تراهم يظنّون بك الآن عندما تتحدث عنهم، وتصفهم بالناس العاديين؟ هل هذه تعابير خطابية فقط؟ أم هي عبارة عن مرض نفسي متأصل فيك، وفي شعورك بأنك إنسان أكبر، ومتميز، ومعصوم؟ لقد عرف فرانك في حياته الكثير من هذه النماذج، إنه يعرف منبتهم ومن يكونون. يعرفهم كما يعرف حذاءه. يعرف من أين أتوا، ويعرف أيضاً نهايتهم. يعرف أكثر من جميع الناس زيف، ومعنى كلمة البقاء الأبدي، ولديه في الأرشيف ألوف الصور لمن كان منهم يعتقد أنه أبدي. إنه يعرف أسماءهم. لقد انتهوا الآن، ولا أحد يذكرهم، أو يعرف أسماءهم، ويلتقي أحياناً بعضهم في الشارع، إنهم الآن من يقال عنهم الناس العاديين، والبسطاء. إلخ. من الألفاظ التي طالما استعملوها هم بالذات حين كانوا في السلطة.

إن التّجربة علمت فرانك أن ينظر إلى كل شيء بعدم الثّقة، والشك، وعندما يسمع أحدهم يتبجح بألفاظ تدل على التواضع مثل: إننا أناس عاديون، وبسطاء يقول في قرارة نفسه آهه.. آهه، هذا وجه جديد بدأ في الصعود، أليس كذلك؟

أعرف الكثيرين ممن تحدثوا مثلك في الماضي، وبعد أن وصلوا إلى المراكز الرفيعة تغيرت ألفاظهم، وأضافوا لعباراتهم القديمة بعض الأحرف... إنهم أناس بسطاء وعاديون، وهذا الراقد هنا كان يقف على المنصات، وبصوت مدو كان يقول: نحن الفقراء، والبسطاء، والعاديين والكادحين، ولكن، وبعد زمن قليل، تغيرت مفرداته، وأصبحت: فقراءنا، وعمالنا، وكادحينا.

ألعاب لفظية؟ لا، إن هذا ولا شك أكبر من اللعب بالألفاظ، وهو برهان على تعدي الألعاب اللفظية. لقد كان فرانك في الماضي مولعاً بشكل كبير بالتصوير، كان يعشق تصوير الجبال، والأنهار، وبزوغ الشمس. كان التصوير في تلك الأوقات نوعاً من الرفاهية. لقد كان أيضاً

عضواً في الكثير من المجموعات الشبابية، لكنه كان الوحيد الذي يملك آلة تصوير، ولهذا كان مطلوباً، وكان يسمع دائماً عبارات: صورنا يا فرانك، كبر لنا الصّورة يا فرانك، وكان فرانك يصور، ويصور، يصور المجموعات، والأفراد، والرحلات، والمباريات الرياضية، والمسيرات. كان يصور الجميع، ولكنه قليلاً ما ظهر في تلك الصور، إلا حين يناديه أحدهم: تعال وتصور معنا، وغيرك سوف يكبس الزر. إن فرانك لم يكن من النوع الذي يهوى تصوير نفسه، بل كان يفضل تصوير غزال أو أرنب بري على أن يصور أي شيء آخر.

تأمل فرانك بعناية الصّورة الكبيرة للميت المعلّقة على المخمل الأسود، ولكنها للحقيقة لم تلتقط أو تُبرز وجهه الحقيقي، كان أكبر منها بعشر سنوات على الأقل، ولم تظهر تجاعيد وجهه، ومع ذلك أحبها المرحوم، ولم يكن يريد غيرها.

لم يكن تصوير الوجه من اختصاص فرانك، لكن المرحوم أصر عليه أن يصوره، وربما كان سبب هذه الرغبة يأتي من اعتبارات قديمة، ولأن المتوفى أراد رأب الصدع وسوء التفاهم الذي حصل بينه، وبين فرانك. لقد استخدم فرانك لتحضير هذه الصورة عشرات الأفلام، ولكن غالبيتها لم يكن يحظى برضى المرحوم الكامل.

ـ هذه تدل على الرخاوة، وتلك أبدو فيها جدياً،

وقد علق على إحدى الصور:

ـ أظهر فيها رقيقاً، وحساساً.

لقد تسلى فرانك كثيراً، وكان يصور ويصور بدون تعب. لقد حصل منذ مدة طويلة على ما يريد، وعرف أيضاً ما يستهوي الآخرين. لقد أوقف المسؤولين في أوضاع غير طبيعية، وأجبرهم أيضاً على تحريك وجوههم، وتصنع الضحك، والحزن. كان يعطيهم النصائح على شكل أوامر:

ـ امسح جبينك، لقد بدأت تظهر عليه التجاعيد. انظر إلى بعيد. إن ذلك يزيد الوقار... الخ

فرانك يعرف جيداً ما يمكن أن يفعله البشر من أجل الصورة الشخصية، ومرة أقنع ممثلة صاعدة، بأن أفضل تعبير عن حقيقة الوجه يحصل عليه المصور في التواليت. وعندما انتهى فرانك من تحميض صورتها اقتنع بأن في ذلك شيئاً من الحقيقة.

قضى فرانك شهرين، وهو يزور هذا المسؤول في مكتبه يومياً، ويقوم بتصويره، وتحميض الصور، وكان دائماً يجد فيها عيباً جديداً، ووصل معه فرانك إلى مرحلة اليأس، وفي النهاية اقتنع بواحدة، ونظر إليه، وعيناه تطفحان بالسعادة، والفرح، وصرخ قائلاً لفرانك:

ـ هل رأيت؟ إنها الصورة التي أريدها، وهي بحق تستحق كل هذا التعب.... أليس كذلك؟

كانت الصورة في الحقيقة جيدة، وأوفت بالغرض المطلوب، وأعطت المسؤول كل ما يريده منها لأنها أبرزت جديته، وتسامحه، وشبابه، وقسوته، على كل الأحوال أظهرته كما يريد أن يراه الناس.

المبلغ السخي الذي كوفيء به فرانك أعاده بالبريد إلى مصدره، وهذا الأمر أثار سخط زوجته. من أين لهذه المسكينة أن تفهم سر تصرفه؟ هذه المكافأة!

مضى وقت طويل على تلك الأيام التي كان فرانك يعشق فيها مهنته، كان يحلم بأن يكون المسجل الهام للثّورة، ولانتصاراتها. لقد التقط صوراً لوجهها الشاب، ولنبضها القوي. أراد أن يكون حاضراً أثناء الأحداث، وكان له ما أراد. كان هناك عندما ثار الشعب، وصوره تعتبر من المستندات والوثائق الهامة والنادرة التي تؤرخ للحظات الانتفاضة بحلوها ومرها. كان حاضراً عندما طُردت القوى السياسية المعارضة من مقاعدها، ونشروا في ذلك الوقت في الصحافة مسلسلة

"انظروا كيف يسير مترجلاً في شوارع المدينة". كان متأكداً في ذلك الوقت بأن أمثالهم. لن يجلسوا في أماكنهم، انتهينا إلى الأبد من أمثالهم كان يتمتع بفانتازيا كبيرة، وكانت صوره تقطر ابتكاراً وظرافة. كان موجوداً في كل مكان تجري فيه الأحداث. أحب الحياة المليئة بالمفاجآت، والدراما، والتغيير، وكان يريد تصويرها، والتقاط تلك اللحظات التي لا تتكرر. فجأة تغيرت الأمور. لا يمكن تصوير كل شيء، ولا يسمح بنشر كل ما تريد. كل شئ يجب أن يخضع للجنة الرقابة، والشيء الإنساني من عمل المؤرخين يجب رميه بعيداً. أين يمكن للمسؤول أن يضحك إذا كانت أسنانه منخورة؟ بحثوا عما إذا كان هذا أو ذاك من المسؤولين يحاول الوقوف في المقدمة كي يظهر بمظهر الرجل الهام. لقد كان فرانك في كل مكان. كان موجوداً عندما أغلقوا الأديرة، وجمع من هذه المناسبات الكثير من الصور الوثائقية التي لا يمكن لأحد تصويرها إلا إذا كان من الموثوقين. لقد حظي المسلسل على إعجاب المسؤولين ورضاهم الكامل، ومع ذلك فإنه لم ير النور، ومنع من النشر، ولم يفهم فرانك السبب.

لقد عرف الناس بأن الكنائس احتلت من قبل ميليشيات العمال، لماذا لم يعلنوا عن ذلك، ولم يسمحوا بنشر الصور؟ لقد أخبروه بأن تلك الصور يمكن أن تستغلها المعارضة الموجودة في الخارج. وسأل فرانك نفسه: كيف؟ وهل قمنا بعمل نخجل منه؟. أن تكون مسجلاً للأحداث فإن لوجودك معنى آخر، كونك تعرفت عن قرب بنخبة مختارة. تعرفت على حاملي الأوسمة المهووسين وعلى الممثلات الهستيريات، والسياسيين المتفسخين، وعلى حثالة مندوبي المناطق، والقرى، وتملقهم الفاضح للمسؤولين. لا يعتقد فرانك بأنه سيجد في

الدنيا وظيفة مثل وظيفته تمكنه من الغوص عميقاً في الوجه الآخر، وغير الرسمي لهذا النظام.

فرانك حادثة واحدة لم يحاول فيها الإنسان الواقف أمام العدسة أن يظهر بشكل مخالف لطبيعته، أطول إن كان قصيراً، وأجمل إن كان قبيحاً، وأصبى إن كان قد تقدم بالعمر. لقد تشكل في استوديو التحميض فريق خاص بالرتوش. تجاعيد؟ احذفها! يتهامسون عن فلان بأنه مشبوه في أمره:

ـ احذفه من الصورة.

لقد تمكن عمال الرتوش من تحويل أقبح التكشيرات، وتبديلها إلى ابتسامات جميلة.

كان فرانك محظوظاً كونه تمكن من رؤية الجانب الآخر للحياة بوصفه مصوراً وثائقياً، شيئاً، عدسة كبيرة؛ حين كان بدون عدسة لم يضطر أحدهم للتزلف له، أمر غريب، كيف يصبح الناس حذرين من كل كلمة؟ ولكنهم مع ذلك لا يتورعون عن الحديث أمام السائقين والمصورين دون حواجز أو ضوابط. كان فرانك شاهداً على خلافاتهم الغبيّة، ونقاشاتهم العقيمة، وصراعاتهم المضحكة الخفية على المراكز في العديد من المناسبات، وانفجارات غضبهم، وعُقدهم، وبخلهم، وقسوتهم، وواجباتهم الخفية، كذلك وجههم الآخر. وعرف صورتهم الثانية الخفية على الناس، إذ كانوا يتكلمون أمامه بدون أي حواجز أو حرج. سافر معهم مئات الكيلوميترات، لا بل ألوفها في أفخم السيارات المريحة، وسمع من الأحاديث، والأسرار الخطرة ما لا يمكن قوله، ومع ذلك لم يكن هذا أو ذاك يثير اهتمامهم، ولكن يا ويله إن لم تظهر صورة المسؤول حتى في أبسط احتفال على الصفحة الأولى.

لم يتمكن فرانك من رفع عينيه عن صورة المتوفى. كم مرة في حياته صوّره؟ ألف مرّة، ألفين.... عشرة آلاف، لا يعرف بالضبط، من

النيجاتيف الذي يحتفظ به في خزانته يمكنه أن يؤلف مسلسلاً مشوقاً عن حياة هذا الإنسان الكبير، والصغير في ذات الوقت. كان شاباً شجاعاً في السادسة عشرة من عمره، يركض خلف الأبقار، وفي السابعة عشرة أصبح شاباً ثورياً يقفز ليضرب الضابط ويخلصه بندقيته. سحبوه إلى السجن مكبلاً بالحديد. كان يلقي الخطب أمام الجموع الغاضبة، يصيح بأعلى صوته: الخبز، والعمل! يتعانق مع "مارجيتكا" فوق المرج بجانب النهر. يحتسي قدح البوروفيتشكا دفعةً واحدةً. يقفز من أعلى الجسر إلى النهر، يتسلق الجبل حتى يصل إلى أعلى صخرة، ويهجم بشجاعة على النار المشتعلة في المخيمات، مزنراً بالقنابل اليدوية، ويدفع برفاقه إلى الهجوم مسلحاً برشاشين، مرهقاً، وعلى آخر نفس يجر نفسه على الثلج، ويدعو رفاقه للانسحاب. يهجم باتجاه فوهة المدفع وهو يزعق: أيها الألماني الخنزير! لقد التقط له فرانك صوراً عديدة في لحظات شروده، صوره كما كان حين لم يكن لديه ما يخفيه.

لكن فرانك يملك في أرشيفه المحروس بعناية عن عيون العالم بأكمله صوراً أخرى للحظات مختلفة لهذا الرجل الأسطوري التاريخي. إحداها حين صفعته إحدى الطلائعيات، لأنه ضايقها، وأخرى وهو يتغوط في الغابة، وعلى يمينه ويساره حرسه الخاص. كما صوّره وهو يجلس وحيداً في استراحة المسرح، يغط في نوم عميق، وحيداً مثل وَتد بين نباتات السور، وسط مقاعد فارغة، متروكة وهو يشخر ورأسه متهدل إلى صدره. لقد التقط له فرانك العديد من الصور، وآخرها ما يراه الآن، لكن المشاهد القديمة التي لم يصورها لم تتبخر من ذاكرته. لقد فكر فرانك منذ مدة طويلة في ترك هذه المهنة التي لا يحترمها أصلاً ولكنه مع ذلك

ظل يضغط على الزر، ويصور، ويصور الميكروفونات واحداً تلو الآخر، وكل ذلك بسبب هوايته الشّاذّة التي أوصلته في بعض الأحيان إلى الجنون. كان يرغب في تصوير الوجه الآخر للعالم الذي يتحرك فيه. إنها هواية مكلفة، وقليل من يعرف ذلك، حتى زوجته لا تعرف، وربما كانت تعرف الكثير، لكنها لم تسأله عن سبب مكوثهِ الطويل في الغرفة المظلمة التي تبقى مكاناً مقدساً بالنسبة إليه. كان يتظاهر دوماً بتحميضه للصور، أو تكبيرها، وهو يقوم بهذه الأعمال في بعض الأحيان. لكن الحقيقة أنه كان غالباً ما يجلس هناك ليتمعن في مجموعته الغنيّة من الصور النّادرة التي احتفظ بها في مكان سري، رغم معرفته بالخطورة المترتبة عن هذه الهواية. عرف أنه يلعب بالنار، وماذا سيحصل لو أنهم اكتشفوا تلك الصور؟ حتماً ستكون نهايته! إنه يملك مئات بل آلاف الصور التي صنعها خلال عمله الطويل، وبوّبها في مجموعات، وأعطاها أسماء فاضحة، مثل معجم الرذائل أو سوق المساطيل... أو مضاجعة زوجة المسؤول لسائق سيارتها على سلم البيت الريفي. الغرام السياسي، أو الوزير يضحك ملء قلبه من حديث زميله الوزير وفي مناسبة أخرى يغير وصفه لذلك الزميل وينعته بالخنزير اللعين، وأسوأ من المرحاض هو الفنان الشهير يسبح في نافورة الماء مع إحدى حاملات وسام الشرف على جسدها العاري. وليمة لحوم، شرهون في عربة طعام القطار الخاص الذي يسافر فيه النواب ليقنعوا المسؤولين بحجم الصعوبات التي تعاني منها المنطقة التي تعرضت إلى الدمار أثناء الحرب. أطفال نصف عراة يقفون على رصيف المحطة وهم يراقبون. صورة مجامعة سيدات مرموقات مع السائق على سلالم الفيلا

الصيفية. نعم هكذا كانوا يضحكون من بعضهم، وجالوفيتش كان يتحدث عن الميت بهذه الصفات. في أحد الأيام تعانقوا، وتصافحوا كأفضل أصدقاء، وفي اليوم الذي يليه هاجم أحدهم الآخر، واتُّهمه بالخيانة، والسقوط.

لقد كانت زوجته تسأله بإلحاح:

ـ لِمَ لا تصور القلاع، والقصور، والفلكلور، وجبال التاترا؟ وتؤلف كتاباً عن الحيوانات، أو الفراشات أوالورود؟ أو صوراً فنية لنساء عاريات؟ هذه أشياء مطلوبة في الوقت الحاضر. فيرنا يعيش، ونحن.... على رائحة الكورون.

فرانك يعرف، ويعرف جيداً أنه لم يكن يملك المال الوفير، وقد كان أحياناً يجيبها عندما يكون بمزاج جيد، وهو يبتسم:

ـ سننتظر الوقت مثلما تنتظر الأوزة السنابل، سأشتري لك قارباً نسافر به حول العالم.

إنه يدرك أن مجموعته لا نظير لها في العالم، ويدرك أيضاً أن أحداً لن يراه حياً هنا في هذه الغرفة المظلمة إن اكتشف أمره. ثم إنه لا يعرف شيئاً عن أسعار القوارب، ويكفيه الحلم باقتناء أحدها في يوم من الأيام. يكفيه الحلم ولكنه لن يحصل عليه أبداً، كما إنه لا يفكر بهذا البذخ على الاطلاق، وبالرّغم من كونه قد صور الكثير من المشهورين والمهمين، إلا أنه لم يكن يوماً يرغب أن يكون أحدهم.

ـ 3 ـ

أخذ أعضاء المجموعة الأولى من حرس الشرف المكوّنة من موظفي إدارة المرحوم أماكنهم بجانب التابوت، فبعد لحظات سوف تفتح

الأبواب البرونزيّة لتستقبل حشود المودعين المنتظرين في طابور لا ينتهي، والذي سوف يستغرق يومين. لقد أظهر أعضاء إدارة المرحوم جدية احتفاليةً فائقة، ومع تسارع الأحداث التي ميزت ذلك اليوم لم يستطيعوا تذكر المرحوم، ولديهم الآن عشر دقائق للوقوف باستعداد إلى جانب التابوت.... عشر دقائق تبدو طويلةً في مثل هذه المناسبات.. طويلةً جداً. فرانك يعرف أعضاء الحرس جيداً، يعرفهم، ويعرف عنهم ربما أكثر من معرفة أحدهم الآخر، ولا يعرف فيهم واحداً أحب المرحوم بصدق، علما بأنهم اختيروا من مجموعة كبيرة من الموظفين في الإدارة. وَلِمَ عليهم أن يحبوه؟ ألم يكن المرحوم هو بذاته قد صرح في مناسبات عديدة: لا توجد في السياسة صداقات وعواطف! والصداقات لعبة خطرة بالنسبة للسياسي! أمامهم عشر دقائق ليفكروا بالمرحوم، ويتأسفوا عليه، ويغضبوا منه ويعاتبوه لموته!

إنها حالة معقدة. ومهما كان المرحوم قاسياً عليهم إلا أنه كان يعني لهم الاستقرار النسبي، نعم الاستقرار النسبي خير من لا شيء. لقد تعودوا عليه، وعرفوا نقاط ضعفه، وتعلموا إرضاءه وتهدئته، وعرفوا برنامجه اليومي، وتصرفوا حسب ذلك. كل شيء كان مرتباً، ويسير حسب العادة، والآن سوف تتغير الأمور. سوف يجلس في مكتبه شخص آخر. من سيكون يا ترى؟ هذا الذي يقف أمامي؟ أم الذي يقف خلفي؟ يمكن أن تكون جميعاً، بل كل واحد منا. هذا الواقف أمامي لا يحبني. حتماً سأطير عند استلامه، وهذا الواقف خلفي لا أحبه، وهو يعرف ذلك، إنّه معتوهٌ، ولا أتصور نفسي أعمل تحت إمرته.، ولكن ماذا سيحصل حين يستلم أحد مكانه من خارج الدائرة المعروفة؟ رجلٌ قويٌ؟ هل سيفوت جالوفيتش هذه الفرصة على نفسه؟ لقد كان هذا المنصب من الأعشاش التي حلم بها، والفرصة مواتية الآن. جالوفيتش. آه، إنها النّهاية، واتفق الجميع على هذا الرأي، ولكن ليس من

الضروري أن يكون جالوفيتش، بل يمكن أن يكون أحداً غيره، لا يستطيع أحد التأكيد أوالنفي. لن تكون النهاية!

ستكون، حتماً ستكون. سوف يطردهم واحداً تلو الآخر، ويبدلهم بعناصره المخلصين الذين سيحضرهم معه، إنهم يتذكرون جيداً مافعل المرحوم عندما استلم هذا المنصب، وكيف أحضرهم معه من الريف.

فرانك يعرفهم، ويقرأ أفكارهم من عيونهم، إنه مثلهم غير متفائل عند تفكيره بالمستقبل. النهاية؟ شيء من ذلك، ولكن ليست النهاية.. النهائية... سوف يركبون سيارات ولكن أصغر من الحالية، وسوف ينقلون إلى إدارات هامة، ربما أقل أهمية من إدارتهم الحالية، وسوف يخيرونهم في أي مكتب يريدون أو يحبون العمل!

سوف ينتقلون إلى فيلات أصغر، ولكنها تبقى فيلات على كل حال، ولكن ربما سيدفعون أجور البيت، والتدفئة، ولن يكون تحت إمرتهم بواب خاص بعد الآن. ماذا سيفعلون في المركز الجديد؟

سيجردون من مناصبهم، ومكاسبهم، وسيحل في مكانهم رجالٌ يثقون بهم، ولكنهم سيظهرون في الصحف وإن كان بشكل أقل، وربما على الصفحة الثانية. وعلى كل حال سيبقون في ذاكرة الشعب. آه... لو وقفت الآن بينهم. فكر فرانك. لابد أنني سأبدو على شاكلتهم خائفاً على مستقبلي؟ كان بإمكانه أن يقف بينهم لو أنه أراد، ولكنه لا يقف. وحمد ربه، وهو سعيد لكونه لا يقف بينهم.

أن أكون بينهم؟ بهذا اللون الوظيفي القبيح، والبطن المترهل الذي يوحي بالغباء، وقلة الحركة! بالسيارة إلى الوظيفة، بالسيارة إلى الاجتماع، وإلى الحفلات، والاحتفالات، وطيلة اليوم في العمل على الكرسي المريح. في المنزل بدون حركة. الذهاب لمدة شهر في السنة إلى الشاطىء المغلق، وستّ عشرة ساعة عمل في اليوم، وربما أكثر. وعلي أن أجلس في الإجتماعات العقيمة التي يقرّون فيها بأنهم لم ينفذوا الخطة

السابقة مائة بالمائة، ويقترحون خططاً قادمة لن يحققوها أيضاً. مشغولون دائماً، ولا وقت لديهم لأي شيء، مثقلون بالمهمات الكثيرة، يرمونها على غيرهم، وهذه المهمات المتعددة، والسخيفة على الأغلب تعيق عملهم الذي يجب أن ينصرف إلى الأشياء الهامة والنافعة. هذه هي حياتهم. بدينون، وكل واحد منهم يشبه الآخر في شكله. فرانك يعرفهم جميعاً، ويتذكرهم كثوريين صلبين، هذه حقيقة، عندما كانت هناك ثورة صلبة، ومنذ ذلك الوقت الذي أصبحت فيه الثورة بالوناً، أصبح مظهرهم كالبالون، وهذا الميت أحدهم، ومثلهم.

هذا الفقيد كان رجلاً حاداً، وصلباً، وقوي العزيمة. في الصّورة الأخيرة التي صنعها له فرانك اختلفت تعابير وجهه، وجحظت عيناه. فرانك يعرف أن هذه الأمور غير عادية، حيث أن الرجال في مثل سنه تثبت تعابير وجوههم، وتحافظ على قوتها. إن صور الشباب تظهر الطراوة، والرقة، وتتضح صورة وجوههم الحقيقية عندما تثبت شخصيتهم. هذا الميت كان يظهر في صور شبابه كشخصية قوية، ومعتدة المواهب، أكثر من صوره الأخيرة، وتعابير وجهه الحادة في الصور الجانبية ذابت في بدانته المرضية، ولم يعد من الممكن نشر صوره بدون رتوش، وإلا فإنها سوف تبدو كدائرة غير متجانسة، وسوف يصرخ، ويزبد ثانية.....

لقد صادق فرانك هذا المتوفي منذ المرحلة الابتدائية، ومنذ ذلك الوقت ولمدّة غير بعيدة كانا معاً في السراء والضراء، واستطاعا تخطي أخطر الامتحانات التي يمكن أن تحدث في حياة رجلين عشقا امرأة واحدة، وكان فرانك دائم الشعور بحاجته لمصادقة ذلك الإنسان، وأنه من المستحيل عليه أن يتخلى عن صداقته، كان يشعر أنه يبقى ناقصاً بدونه.

وماذا يكون هذا المتوفى بالنسبة له الآن؟

لا شيء... دراسة تصويرية. لقد كان معلقاً بذيله، لقد أراده... أراده بكامله. في وقت ما حاول فرانك التهرب منه، لكنه بدأ يتتبعه بشكل مدروس، لقد عرف فرانك كل شيء عنه، عن خطواته، ورغباته، ومغامراته. واهتم فرانك بشخصيته، وتطورها. لم يفترقا بشكل مفاجيء أو درامي، بل تباعدا بدون ضجّة، وبدون إثارة انتباه، ولو كان أحدٌ قد سأل فرانك عن سبب الجفوة. والفراق الذي حدث بينهما، لكان ذلك مفاجأة بالنسبة له. بشكل مبسط وباختصار: أحبا بعضهما، وقد توقف هذا الحب. كانا متفاهمين، وأصبحا لا يفهم أحدهما الآخر. إن فرانك لا يعرف السبب الحقيقي لهذا الجفاء.

في الأيام الأخيرة شعر فرانك بأن المتوفى أصبح يخافه، وسبب ذلك أن فرانك يعرف عنه الشيء الكثير، ويعرف المتوفي كيف انتهى أولئك الذين عرف عنهم هو بالذات الشيء الكثير. إنّه في الحقيقة أصبح خائفاً من كل شيء، حتى من الخيال، والخيالات كانت كثيرة، ومتزايدة.

اقترب فرانك من النعش، ونظر في وجه المتوفى، وكانت مفاجأته كبيرة، إذ لم يشعر بأي شيء نحوه.

لا حزن، ولا فرح. لقد غاب، ومات رجل مثل باقي الناس. إنسان لا يعني لفرانك شيئاً، ولا يعني شيئاً لأحد.، والمضحك في الأمر أنه طالما سيبقى هنا مستلقياً، فإن الجميع سوف يمثلون الحزن، وهذا لن يغير شيئاً، وسيمر حول النعش الألوف، فهو وداع منظم، وحزن منظم.

بدأت الفرقة الموسيقية بعزف الألحان الحزينة، بينما وقفت مجموعة من ستة رجال يمثلون حرس الشرف إلى جانبي النعش، صدورهم منتفخة وتعابير صارمة، جدية ارتسمت على وجوههم، وقفوا كالأصنام، وقام رجلان بفتح البوابة البرونزية.

دقت ساعة البرج القريب تمام الثامنة. التقط فرانك عدة صور لدخول المودعين، ثم خرج لبرهة، ووقف أمام البناء ليرى الجموع الغفيرة من

المودعين الذين يستعدون لدخول القاعة، وكانت وجوههم وحركاتهم تعبر عن معاناتهم من الانتظار الطويل في الجو البارد، بدأ طابور المودعين الذين ارتدوا ثياب الحداد السوداء بالتحرك، وكان في مقدمته مندوبو المعامل، والجمعيات، والمنظمات الشعبية والسياسية الذين وضعوا بجانب النعش أكاليل الورود، بالكاد تستطيع هذه الحشود الداخلة ملاحظة مجموعة الرجال التي لاتغادر القاعة، والتي أنيط بها مراقبتهم وتتبع كل حركة يقومون بها.

هل يوجد أمام القاعة حشد كبير؟ المخزون البشري يكفي لمدة ساعة، والرجل المسؤول عن هذه المهمة يراقب بشكل دقيق العدد الموجود أمام باب الدخول، وبمجرد شعوره بأن العدد بدأ بالتناقص يهرع بسرعة إلى لجنة الدفن التي تجري الاتصالات اللازمة لإرسال عمال جدد أو طلاب مدرسة. الطابور يجب أن يبقى مليئاً، ومن غير اللائق أن تظهر فيه فراغات كبيرة. كل شيء منظم، وتلك المظاهر لا تمت أصلاً لعفوية الوداع الحقيقية لدى الناس، ولا تعبر عن حزن حقيقي عفوي، من يريد ذلك؟

المهم هو العدد الكبير. خلال يومين قام بتوديع المسؤول مئتا ألف مواطن، علماً بأن كل من مر بجانب التابوت يعلم علم اليقين بأنه لم يفقد شيئاً. ولايشعر بالخسارة. إن المتوفى قد مات منذ مدة طويلة، ونسيَهُ الناس أيضاً، ففي الشهور الأخيرة لم يعد موجوداً، والمرض السريع أنقذه من السقوط العلني، والخلع عن الكرسي الهام الذي شغله. إن المرض الذي تفشى بجسمه منذ مدة طويله قد أنقذه، وأنقذ الكثيرين معه، وكان معروفاً للجميع بأنه لن يشفى منه، وليس من الضروري فتح ملفاته والتحقيق بها قبل وفاته.

لسنوات عديدة خلت لم يعد أحد يبحث هذا الموضوع، ويوليه أية أهمية، موته الطبيعي في الوقت الحاضر مخرجاً مناسباً، وأفضل من

الطرد السياسي الذي يفضح الكثير، وينشر الغسيل الوسخ، ويتطلب الكثير من الشروحات، والتفاصيل.

هذه النهاية أفضل، وأهدأ. المتوفى لم يعد يعيق أحداً، أو يزعج أحداً.

إن عملية وضع الأكاليل تعني إلى حد ما إنعاش وتحريك رتابة الوداع. سيكون هناك الكثير من أكاليل الورود، وفرانك يستطيع تخمين عددها، وكلها متشابهة ما عدا الإكليلين اللذين كانا موجودين قبل فتح القاعة. معظم الأكاليل من الورود الصناعية، ففي هذا الوقت من السنة لا يوجد أزهار طبيعية كافية، وإن وجدت فهي غالية الثمن.

لقد فوجيء فرانك عندما شاهد بين المودعين بعض من يحملون القرنفل الطبيعي، وكانت دهشته أكبر عندما شاهد شابة في حدود الثماني عشرة ربيعاً تضع على التابوت ثلاثة أغصان من ورد أحمر نادر ذي رائحة فواحة... من تكون؟ من الأقرباء؟ غير معقول. وأن تحضر وحدها فهذا عجيب! إن هذه الورود تساوي مائة كورون، وهو مبلغ كبير على فتاة في الثامنة عشرة، وتعادل شراء ثلاث إلى أربع أزواج من الجرابات. لا يمكن أن يكون لها علاقة بالمتوفى، وليست من جيله، يمكن أن تعرف ـ وعلى الأكثر ـ اسمه، ووظيفته، وأنه يخطب في المناسبات المملة. من المحتمل أيضاً أن يكون قد ساعدها في تخطي وضع صعب، أو ساعدها بدخول الجامعة؟ أو أنها استعطفته ليطلق سراح والدها من السجن؟ إنها تبدو جميلة مثل الوردة المتفتحة، وللجميلات عادة مكانة خاصة لدى المتوفى، وهنّ يحصلن منه على أكثر مما يطلبن. هل يمكن أن تكون فتاة عادية ساذجة تتأثر بالجنازات؟

الموت جدي بكل أشكاله، والناس جديون في مواجهة الموت، وفرانك يعرف أيضاً ردود فعل الناس حين يواجهون بالمصادفة جنازة

إنسان مجهول، وكيف تتشكل غشاوة سوداء أمام عيونهم، ويفكرون بسخافة الحياة، ولكن لبرهة قصيرة فقط.

كان الناس يدخلون القاعة على رؤوس أصابعهم، وإن كانت السجادة الحمراء تمتص ضجيج وقع أقدامهم. والآن تقترب من النعش مجموعة من الأطفال، ربما من الصف الأول الابتدائي، ومظهر وجوههم يدل على أنهم قد شبعوا برداً في الخارج، ينظرون يميناً وشمالاً متعجبين مما يدور حولهم، ولا يفهمون معنى وجودهم هنا باستثناء بعضهم، ممن توفي له قريب. لا يفهمون شيئاً عن الموت. نظر فرانك بغضب شديد في وجوه أساتذتهم الذين جروهم إلى هذا المكان. لماذا؟ لابد وأن هؤلاء الأطفال وقفوا ينتظرون في الخارج، وبهذا الجو البارد. أطفال في السادسة من عمرهم.. لماذا؟

سوف يفهم بعض الأطفال أن الذي يرقد هنا في التابوت هو أحد الرجال الصالحين.

من يعرفه؟ من يستطيع تذكره؟ من يشعر بأن فقدانه لا يعوض؟

فرانك يراقب ما يدور حوله عن كثب، ويحاول معرفة من يشعر بالحزن من المودعين، أو إن كان بين الحاضرين أشخاصٌ لم يكن المتوفى يحب سماع أسمائهم، من أولئك الذين اتّهموه بأعمال لم يقترفها!

لقد حضر فرانك الكثير من تلك المناسبات الرسمية، والتي ذُرِفَ فيها دمع كثير. لكن العيون تبدو هنا جافة. هذا المتوفى حسب ادعاء الصحافة إنسان كبير، ولا يمكن تعويضه. إنه الآن وحيد، ولا أحد إلى جانبه. الناس منذ القدم، ولسبب مجهول، يحبون الجنازات، وبخاصة إذا كانت من هذا النوع! الإخراج هنا رائع، موسيقى حزينة تتناغم مع الألوان التي تشع من الثريا الكريستالية الرائعة المعلقة في سقف القاعة، والتي تعكس بلوراتها الكريستالية ألوان الشعلة اليونانية التي تضيء

مقدمة النعش. لقد بدأ تبديل حرس الشرف، وهنا الكثير من الأسود، والأحمر، والأخضر. التلفزيون ينقل مباشرة هذا الاحتفال، ويصور كل حركة من حركات المودعين، ثمة محاولة جدية لإعطاء هذا الحفل صورة الحزن الحقيقي، وذلك باستعمال كافة التأثيرات النفسية، ضوئية، سمعية وحركية.، لكن كل هذا لن يفيد الميت، وعلى الرغم من كل الوسائل التي استخدمت لإظهاره، وإظهار الحفاوة الشعبية، والحزن الجماهيري. إن جميع الأعلام السوداء المعلقة، وتصوير التلفزيون المباشر، والموسيقى الحزينة لم يسعده في شيء. إنه في هذه الساعة ميت ووحيد. وجميع من منحوه الطاعة في حياته، والذين عادوه أيضاً، وتحدثوا عنه أشياء مختلقة، لا يهمهم من أمره شيء بعد الآن. لقد رحل، وهو لا يستحق البكاء، أو حتى تمثيل الحزن، أوحتى حضور المأتم، وهل كان حقيقة رجلاً مهماً؟

ألم يؤثر غيابه في أحد؟ حتى أولئك الذين ضايقهم؟ لقد حطم كثيرين، وأسقط الكثيرين. الموت فقط موجود هنا، ولا شيء غير الموت.

قام فرانك بتصوير الفرقة السداسية من الطلائع خلال تبديل الحرس المؤلف من الجنرالات، وفجأة حدث شيء ما. وتعلقت عيون الناس على مدخل القاعة، وسمع فرانك بعض الآهات المحبوسة من الأفواه، ولم يكن بحاجة للبحث عن المصدر، وعرف بسرعة ما يحدث في مدخل القاعة وذلك من قراءة وجوه الحاضرين. إنها هي... لقد سمع عنها الكثير من الأخبار السيئة! إذاً هكذا تبدو الآن؟ لقد غطت وجهها بوشاح أسود رقيق، ومع ذلك يمكن رؤيتها ورؤية وجهها الجميل. لقد كانت قطعة جميلة، ويقال إنهما لم يعيشا متفاهمين. لقد كانت تغيظه، ويقال إنه كان يضربها أحياناً.

من البرج القريب دقت الساعة تمام الحادية عشرة. لقد وصلت الأرملة، وأفسح لها الناس طريقاً لتدخل منه إلى القاعة. حضرت مع

أبيها ومع أخت المتوفى. تمسكت بذراع أخيها الذي يعمل سفيراً في دولة أجنبية، ولقد أثر هذا الدخول على الموسيقيين الذين مدوا رؤوسهم ليشاهدوا ما حدث في الأسفل، مما أثر في تناغم الموسيقى الحزينة ورتابتها.

إنها ما تزال محافظة على جمالها، تأكد فرانك من ذلك بنفسه، ولم يكن وحيداً في هذا الرأي. لقد شاركه فيه الكثيرون، وبخاصة النساء الحاضرات اللواتي نظرن إليها بفضول كبير... ساقان؟ آه.. فرو.. برزيان؟ آه.. الطاقية.. يا رب!

فرانك أيضاً تمعن في قوامها.. ساقان؟ طويلتان ومنحوتتان بعناية.. الفرو؟ من موسكو؟ من فيينا؟ الحقيبة والقفازات؟ من فيينا. لقد أخبروها على الأغلب مبكرين أن حالته ميئوس منها. لقد استطاع فرانك تصور تقاطيع جسمها تحت الفرو، وإن حضرت ملفوفة بكيس يمكنك ملاحظة تقاطيع جسمها الرائع. إن اللباس الأسود الذي ترتديه يبرز جمال جسمها ويزيد من سحرها، ومن تحت منديلها الأسود تظهر بعض خصلات شعرها الذهبي. حوّل فرانك نظره عنها.

قاد الدبلوماسي أخته الأرملة ببطء باتجاه التابوت، كان كل شيء هادئاً، وشعر فرانك ببرودة شديدة تعبر جسده. ماذا ستفعل؟ وكيف ستتصرف في هذه اللحظة؟

وقفت للحظة، ونظرت في وجه الميت. كان لون وجهها وتعابيره تدل على أنها لم تنم هذه الليلة، لم تسقط من عيونها دمعة واحدة. بدت باردة التعابير. سُمع بكاء متقطع من أخت الفقيد التي وقفت خلفها فاقتربت منها، وأخذتها من يدها إلى الجانب الآخر من التابوت حيث وضع المستخدمون ثلاثة مقاعد، جلست الأرملة في الوسط، وجلس والدها إلى يمينها، وإلى يسارها جلست أخت الميت، ووقف الدبلوماسي خلف الأرملة. وزاد إعجاب فرانك بالرجل السري الذي قام

بإخراج هذا العمل من خلف الكواليس. إخراج رائع، لقد فكر بكل شيء، حتى هذه المقاعد الثلاثة لم تغب عن باله. الكراسي في مثل تلك المناسبات تكون عادة للأرملة. لقد جلست، وأعجب فرانك بها، نعم أعجبته لكونها لم تمثل أي كوميديا، ولم تظهر عواطف هي بالأصل لم تكن موجودة، وبدت طبيعية جداً. إنها زوجة مسؤول، وهذا بحد ذاته مسؤولية، إلى هذا الحد فقط يمكنها أن تتعاون مع المنظمين، ولا أكثر من ذلك. بدون حركات هيستيرية، والمطلوب منها أن تبقى ربع ساعة فقط في هذه القاعة، وسوف يخيب أمل أولئك المودعين الذين ينتظرون منها أن تغيب عن وعيها وتقع على الأرض من شدة الحزن، وربما انتظروا منها بكاءً هستيرياً. لقد كسبت تقدير فرانك من تصرفها الطبيعي.

من المؤكد أن حياتها المقبلة سوف تكون صعبة، سوف يلاحقونها ويتابعون تحركاتها، وبعد فترة وجيزة سوف يجبرونها على ترك الفيلا التي تطل على المدينة، وسوف تتعقد أمورها، وتضطر للتقشف قليلاً في بعض الأشياء، وراتبها التقاعدي مهما كان مرتفعاً لن يؤمن لها الحياة التي كانت تعيشها، ولكن هل هذا يشكل مأساةً؟

ستبقى امرأة جميلة، امرأة فقط، وسوف تبقى محتفظة بسيارتها الأجنبية لأنها ملكها الخاص، وعندما تهدأ موجة الاهتمام بها سوف تتفرغ لنفسها، وتعيش حياتها الخاصة كما كانت تتمنى دائماً، بدون مراقبة أو تقييد، ولن تكون مضطرة للتقيد بعادات مملة كانت تمليها عليها مكانتها الاجتماعية الرسمية، إنها تعتبر هذا اليوم هو يوم استقلالها وبداية حريتها. لقد دارت حولها أقاويل عديدة، قيل إنها عشيقة ممثل معروف، وإنه يدخل إلى فيلتها من الباب الخلفي، وفرانك يعرف جيداً أن هذه الأقاويل محض افتراء. إن الفيلا مراقبة ليل نهار من الشرطة السرية، وليست بهذا الغباء لتقوم بمثل هذه

المغامرات. ومع ذلك فقد لمح فرانك عدة مرات سيارتها متوقفة في أحد الشوارع الجانبية، والممثل الذي تحدثوا عنه لم يكن يسكن في هذه المنطقة، لكن فرانك يعرف من كان يسكن هناك، لكون أحد اختصاصاته معرفة الأماكن التي يسكن فيها المتنفذون. وشعر فرانك أنه ينظر إليها بشكل فاضح، وعرف ذلك عندما تلاقت لبرهة نظراتهما، ولم يبعد فرانك نظره عنها، وهي كذلك لم تفعل، وحنى رأسه معبراً عن تحيته لها، وعن وجوده، ولم يكن ينتظر منها رد التحية، إنها لم تكن تستسيغه، ولكن، ولدهشته ردت عليه التحية بإغماض جفنيها بشكل لايثير انتباه أحد غيره، وجه فرانك عدسته إليها، وكبس الزر، وشعر بأنها ارتجفت حانقة من تصرفه، وكأنها تقول له: لا تفعل ذلك، ورد عليها برفع كتفيه دالاً على أنه يقوم بواجبه، وهي كذلك تقوم بمهمة رسمية، أليس كذلك؟. إنني أعرف شعورك، ولكن كيف ستبدو الأمور إذا لم تكن صورتك موجودة في حفل كهذا.

ساعة البرج أعلنت تمام الحادية عشرة والربع. وقفت الأرملة، ووقف معها صحبها، قادها الدبلوماسي إلى الباب الرئيسي، حيث قام اثنان من الحجاب بتنظيم خروجها. عندما تتبع فرانك خروجها من القاعة تذكر.. يا إلهي! أين مارتين، ولماذا لم يحضر؟ إنه ولده الوحيد ولا مبرر لغيابه ولرد فعله هذا على تصرف أبيه معه، حين أعاده من دراسته في موسكو لارتكابه بعض التجاوزات. لقد كان مارتين ولده الوحيد، ويعرف فرانك جيداً مقدار حب المتوفى له، وتخليه عنه لزوجته كان خارجاً عن إرادته، لقد قاسى المرحوم كثيراً من هذا التصرف.

لماذا لم يحضر؟ وهل كان هذا برغبته، أم بطلب من الأرملة؟

كان مارتين يكره الأرملة، ولم يكن يتصورها، وكانت تبادله الشعور ذاته، ومن اللحظات الأولى. إنه كرهٌ من النوع الذي لا يمكن إيقافه.

عبرت الذكريات القديمة أمام فرانك بسرعة كشريط سينمائي، وتذكر كيف كان مارتين يجلس على ركبته هو، ويداعبه، ويراهنه على أكل السبانخ، في تلك الأيام عاش المرحوم مع زوجته الأولى ماركيتا، وكان فرانك يشعر براحة كبيرة لصداقته مع هذه العائلة، في تلك الأيام لم يكن المرحوم قد اكتشف مواهبه، وإمكانياته القيادية، وكان يفكر بالآخرين أكثر من التفكير بنفسه، ولاحقاً عندما تقدم بالمناصب لم تعد ماركيتا تكفيه وترضي غروره، وتؤدي الدور المطلوب منها كزوجة مسؤول، لقد تخلفت ولم تعد تليق بمركزه، وترهلت، وأصبحت بدينة. ولحسن حظه لم يؤثر الطلاق على مركزه وعلى صعوده، وماذا أفاده، ذلك الصعود؟ لو أنه لم يركض وراء الشهرة والصعود، لربما كان موجوداً حياً بيننا الآن.

كانت ماركيتا ذات طبع هادىء، وتناسبه، لكنه كان دائم الهوس بالنساء، وهذا شيء تعرفه ماركيتا جيداً، ومن الصعب تقييده، ذلك ما أسرت به ماركيتا لفرانك في أحد الأيام، والزلزال الذي حدث في تلك العائلة لم يكن مفاجأة لفرانك، لقد أحس بأن شيئاً سيحدث، وأحس به قبل المرحوم. وعندما حدث الطلاق لم يكن فرانك موجوداً في المحافظة، بل سمع بحدوثه في العاصمة.

إنها كانت السبب، تلك الشقراء التي خرجت من القاعة، لقد كانت تعرف ما تريد، وأوقعته بشباكها. اندهش فرانك من شجاعة المرحوم وإقدامه على مثل تلك الخطوة الجريئة، ومعروف أن مثل هذه التصرفات بين المسؤولين تقيم بشكل سيئ، وجالوفيتش لا يتهاون ويسجل كل تصرف يصدر منه.

كان فرانك في تلك الأوقات لا يشعر بأي قرب أو صداقة مع المتوفى، كان قد أخرجه من حياته منذ عدة شهور، لكنه كان حزيناً

على مصير ماركيتا، ويفكر بها، وبالمأساة التي وضعها فيها ذلك الميت، وكان يفكر بزيارتها دائماً.

ماركيتا امرأة ذكية، وهذا الميت لا يعرف حجم الخسارة التي أصابته من جراء تركها، لقد استطاعت أن تؤمن له جواً منزلياً رائعاً مليئاً بالهدوء والراحة النفسية، في الوقت الذي كانت حياته فيه مليئة بالصعوبات، وهذا الهدوء لم يكن باستطاعة امرأة أخرى في الدنيا أن تؤمنه له، وبالذات هذه الشقراء لا يمكنها ذلك، لقد ظن فرانك بأن الطلاق والزواج الجديد سوف يسيئان إلى مركزه، ولدهشته كانت النتيجة معاكسة.

بدأ المرحوم يترقى سلّم المناصب، ويصعد، ليصل إلى مركز الرجل الأول في البلاد. وكان فرانك في كل لقاء يجمعهما معاً يتأكد بأن سقوطه وتفسخه كان نتيجة لتلك الخطوة التي أقدم عليها في حياته. لقد فشل ولم يعد يمكنه أن يحمل حملين ثقيلين، عشق الشقراء ومتابعة حياته المهنية المعقدة، وكان متأكداً أن هذه الشقراء سببت سقوطه.

من أين أتت؟ وكيف وصلت إلى مكتبه؟

لقد أحس فرانك منذ اللحظة الأولى أنها قد أُرسلت إليه من قبل جالوفيتش، وكان المتوفى يضحك من هذه الفكرة، لكن شيئاً من هذا القبيل ربما قد حصل، فمن جالوفيتش يمكن توقع كل شيء. ومنها؟ هذا موضوع لم يستطع فرانك الخوض فيه. لكنها مع ذلك لم تسقط من السماء، وفي يوم من الأيام كانت هناك، ويتذكر فرانك ذلك اليوم جيداً.

أنت الرجل الأول في المنطقة، رجل القرار، واليد الطولى للحكومة الثورية، بهذا الكلام خاطبوه عندما قرروا إرساله إلى المنصب الجديد، وأضافوا: إننا نثق بك، ولقد اخترناك لهذا المنصب لإيماننا بإمكانياتك. إنها منطقة سيئة، ومليئة بالقذارة، كل شيء هناك يتعثر. الإنتاج، والإرساليات، والشراء، والنقل. الكاثوليك يرفعون رؤوسهم ويثورون،

والفلاحون يمتنعون عن الانضمام إلى التعاونيات الفلاحية. اذهب، وأصلح الأوضاع. كن حذراً، وقاسياً، وإن لزم الأمر ولا ترحم أحداً. نحن معك، سنساعدك ونحن بانتظار النتائج.

نفذ الأوامر، وذهب، وكان صلباً، ومثابراً، وغير متسامح في المواقف التي تتطلب منه ذلك، لا يعرف التعب، ولا يمكن التحايل عليه ورشوته، عمل ليلاً ونهاراً، وسافر في كافة أنحاء المنطقة، وتابع العمل مباشرة في مراكز الإنتاج، وقام بجولات مفاجئة للأماكن التي كان عليه تنظيفها من المخربين. نشر الدعايات وأقنع الكثيرين، وهدد، وترجى، صرخ، واعتقل ولم يعر أهمية، إن كان بحق أو بغير حق. لقد ملك السلطة المطلقة، وكان يتمتع إلى جانب ذلك بالشجاعة في اتخاذ القرارات، وكثير من الطاقة للتنفيذ، ولذلك سجن، ونظف، مع علمه بالمخاطرة التي يضع نفسه بها. في أحد الأيام أيقظ فرانك في منتصف الليل من نومه: هيا معي، علي أن أكون صباحاً في المناطق الحدودية، ولا أريد السفر وحدي في الليل. قام بمفاجأة العمال في الوردية الليلية. جلس معهم واطلعَ على مشاكلهم، وأوجاعهم، ولم يتأخر عن القيام بواجباته، لكن إمكانياته لم تكن كافيةً في ذلك الوقت العصيب من حياة الثورة، من الواجب القول إنه، وبالرغم من أخطائه، كان الرجل المناسب في المكان المناسب، مليئاً بالنشاط، وبالطاقة التي لا تنضب، وفي وقت لاحق عندما حصل على إمكانيات كبيرة، وأصبح تحت تصرفه الكثير، مع الأسف، لم يكن ذلك الرجل الشجاع الذي كان عليه في ذلك الوقت العصيب.

كان وفرانك ولعدة سنوات صديقين حميمين، يتمتعان بلقاء أحدهما الآخر، وإن لم يكن كل شيء بينهما مثالياً، لقد أسر لفرانك بكل ما يؤلمه، وتحاور معه واستمع لنصائحه في عدد من الأمور التي كان يحضر لها، وأصبح فرانك أمين أسراره، ومساعده غير المعلن، وقام فرانك عدة

مرات بتحذيره من الوقوع في فخ العظمة، والسلطة، وكان يبتسم من هذا الكلام. لم يبق لديه الوقت للعظمة، وسوف تحترق أوراقُهُ قبل حصوله على التقدير، ولكنه مع ذلك وصل إلى التقدير وجاءته السلطة، ولم يحترق، إلا أن سلطته بدأت تنوس ببطء، وتضعف. كانا سعيدين معا في جولاتهما الليلية الطويلة، واستطاع فرانك في هذه الجولات الحصول على مواد هامة. كانت المنطقة تتحرك بكاملها، وكان يتحرك معها، وكل ما حصل عليه فرانك كان بفضل سلطة صديقه، فقد وصل إلى أماكن محرمة على الكثيرين، لقد وثق به، وآمن بصداقته، وكان في بعض الأحيان يشكو له ندرة الناس الذين يستطيع الاعتماد عليهم. الكل يركض وراء مصلحته الخاصة، وجميعهم يملؤون أفواههم بالعبارات الثورية ويملؤون بطونهم أيضاً، لكن أدمغتهم وقلوبهم فارغة من الثورة.

ـ إن لاحظت يا فرانك بالمصادفة، أنني سوف أقوم بعمل غير شريف أو عمل ضار، اضربني بقوة على أضلاعي.

ولقد ضربه فرانك فعلاً في طريق عودتهما من جنازة أحد الأصدقاء المحاربين القدامى الذي انتحر خوفاً من فضيحة الرشوة، لكن الرجل انزعج، وامتعض، وكانت هذه الواقعة بداية الفراق بينهما.

في مكتبه الذي كان يزوره فيه فرانك يومياً، والذي كانت تديرهُ سكرتيرته الخاصة التي كانت أصيلة ورائعة، وبالرغم من ضرورة استعمال كلمة رفيق في كل مكان رسمي، فلا أحد يدري سوى الله لماذا كانت هذه السكرتيرة بالذات تخاطب بالسّيّدة هوروناكوفا.

كانت ترحب دائماً بفرانك مبتسمة، وتحضر له القهوة، وكان فرانك بالمقابل يحترمها، ويقدرها، وكان سعيداً لكون صديقه حافظ عليها، ولم يتأثر بالتقاليد الرائجة بين المسؤولين، والتي كانت متمثلة بضرورة وجود سكرتيرة جميلة تقوم بالمهمات المطلوبة منها. كانت السيدة

هورناكوفا تقارب الخمسين من العمر، عادية غير ملفتة للانتباه من الناحية الجمالية، وميزتها الظاهرة هي سرعة بديهتها، وفهمها، وليس الساقين، والصدر.

وجد فرانك في أحد الأيام قاعة السكرتاريا فارغة، ولم تكن السّيدة هورناكوفا موجودة، واشتم حدوث شيء غريب، الضوء الأحمر فوق الباب كان مضاءً، وظهرت عليه عبارة ممنوع الدخول. جلس فرانك في غرفة الانتظار، وانتظر ظهور السيدة هورناكوفا في كل لحظة، ولم يرغب بالدخول مباشرة إلى غرفة صديقه. فجأة انفتح الباب، وظهرت في منتصفه امرأة شقراء جميلة إلى أبعد الحدود، طويلة القامة، امرأة لا يشك أحد بأن لون شعرها الأشقر الذهبي طبيعي، حملت في يدها دفتر الاختزال، ونظرت إلى فرانك ببعض التعالي، عندها أصلح فرانك من جلسته ونظر إليها مبهوراً بجمالها.

ـ ماذا تريد؟ سألته ولم تكن واثقة.

لقد كانت مفاجأة بالنسبة لفرانك. وقف، ولم يبعد نظره عنها.

ـ "لا شيء" رد ضاحكاً. "لقد جئت لزيارة المدير"

ـ زيارة المدير؟.... ها... انفرجت تعابير وجهها.

ـ الرفيق المدير مشغول، ولا يستطيع استقبال أحد.

ـ هذا لا ينطبق عليّ، قالها فرانك بكل ثقة، مما جعلها تزداد دهشة، وأردف:

ـ أنت جديدة هنا، أليس كذلك؟ ونهض باتجاه باب المدير.

وبالرغم من محاولتها الوقوف بطريقه تابع سيره نحو الباب وفتحه، ورأى صديقه يقف أمام النافذة، ويداه في جيبيه، وبدا حالماً، ينظر من النافذة، وعندما أحس بوجوده هرع باتجاهه، وعانقه وقبض على ذراعه، وقاده إلى الغرفة الصغيرة الجانبية التي تعود الجلوس فيها مع أصدقائه.

يجب علي أن أقدم لك سكرتيرتي الجديدة: بادره بالحديث. خرجت الكلمات من فمه كما تخرج من الكهف، ثم قدمها له قائلاً:

ـ هذا الرفيق له دائماً حق الدخول، بابي مفتوح له دائماً، من فضلك أحضري لنا كوبين من القهوة الثقيلة.

كان صوته غريباً، ومن اللحظة الأولى كان الأمر واضحاً لفرانك، وقد رغب بالصفير لدهشته مما يحدث. هكذا إذن تجري الأمور؟ بهذا الشكل! ولماذا الدهشة؟ هذا الأمر كان متوقعاً، هذا هو الطبيعي، ما كان في الماضي هو غير الطبيعي. استغل فرانك فرصة خروجها من الغرفة ليسأل:

ـ وماذا حل بالسّيدة هورناكوفا؟

التفت إليه رجل السُّلطة قائلاً:

ـ لقد اضطررت لنقلها.

ـ إلى أين؟ سأل فرانك.

ـ إلى مكتب الوثائق.

لم يسأل بعد ذلك. كل شيء أصبح مفهوماً. ولم لا؟

هذه الشقراء تبدو مليئة بالإمكانيات، وتعرف كيف تستخدمها. محادثتهم في هذه الجلسة لم تكن موفقة، لقد فاجأه فرانك بحضوره، إن مثل هذه التغييرات لا تحدث بشكل بريء ومفاجيء، لقد تأكد فرانك اليوم من آرائه، إنه يعلم ماذا يحدث غالباً بين المدير وسكرتيرته. ونادراً ما تنتهي الأمور بدون مشاكل، وإذا كان لابد من حدوث شيء بينهما فقد كان عليه توظيفها في مكتب آخر، لا يمكن إخفاء أي شيء هنا، كل شيء يكشف بسرعة. لقد كان صديقه يفكر بالشيء نفسه لأنه فاجأه بالقول":

ـ إنها موظفة مثالية، لا يغشك مظهرها الخارجي

- تعرف جيداً الأقاويل التي تحاك حول من هي مثلهنّ؟ تابع فرانك حديثه

- لقد مرت من مكتب الكوادر. إنني لم أخترها، واضطررت لإبعاد هورناكوفا لأنها أخلّت بكتمان بعض الأمور، أموراً صغيرة، ولكنها في مرات قادمة... يمكن أن تكون أمور كبيرة.

فرح فرانك لأنه استطاع استدراجه بالحديث.

لا تكذب يا صديقي. لن تمر علي هذه الأكاذيب، وليس من الضروري أن تكذب. قال فرانك هذا الكلام لنفسه.

- إنني أفهمك، وعلى كل حال هذا الموضوع لا يهمني. نهاية الأمر أنها قطعة جميلة، وكان يمكن أن تكون أسوأ، هذا النوع من النساء محظوظ في كل الأحوال.

- حقاً إنها جميلة: قال فرانك،

- أرجو ألا تفقدك عقلك، واترك شيئاً منه لنفسك.

- لماذا أنت دائماً لا تفكر؟ أنا أفقد عقلي؟ ضحك.

ولكن ضحكته لم تكن صادقةً.

- لا تكن واثقاً من نفسك إلى هذا الحد، حدث فرانك نفسه.

- هذه حكاية غريبة، لقد أخفيتها عني، للمرة الأولى أشعر بأنك تمثل علي، إنها لك، ولم لا؟، وأنا أيضاً تحرك قلبي من رؤيتها، وإذا كانت قد دارت حولها الكثير من الحكايات فربما تكون حكايات بسيطة، إنني أتمناها لك عندما تكون لديك الرغبة، ولكن انتبه لنفسك... هناك واحد اسمه جالوفيتش!

أحضرت الشقراء القهوة، وعندما أدارت ظهرها خارجة، لحقت نظراتهما مؤخرتها، والتفتا إلى بعضهما، وتلاقت نظراتهما، وضحكا بصوت مرتفع.

ـ رائعة، أليس كذلك؟ قال، وضرب فرانك على ظهره بقبضة يده. هنا أصبح الوضع أفضل، وانقشعت الغشاوة التي كانت تحيط بحديثهما.

ـ عليك أن تحافظ عليها بعيداً. قال فرانك.

ـ بعيداً؟ هل تعتقد أنني ذو عقلية قديمة بورجوازية؟ هذه الأفكار ولت إلى الأبد.

وهل تظن أن هذه الأفكار الجديدة أفضل؟

ـ من هذه السخافات. أنت تعرفني جيداً، ومن زمن طويل... إنها سخافات. رد عليه صديقه.

وهكذا بقيت الأمور سخافات، ولن يغير أحد شيئاً. لقد تخطيا هذه المرحلة من العلاقة.

عند خروج فرانك من الغرفة نظر إلى تلك الشقراء، ولمح نظرتها الفضولية، أحس أن كل شيء سيتغير بينهما. إنها تعرف جيداً ماذا تريد، وتسير نحو الهدف متأكدة من النجاح. إن فرانك يعرف جيداً طريقة النساء في ملاحقة الرجال، يفعلن كل شيء لعزله عن أصدقائه بأسرع ما يمكن، إذا لم تنجح في عزله فلن تكون متأكدة أبداً من الوصول إليه.

كانت جميلةً، وبهره جمالها، لكنه من اللحظة الأولى شعر أنها لن تستسيغه، وكان يشاركها الشعور نفسه. لقد خفف فرانك من زياراته لصديقه، وبدأ يشعر بأن القهوة لم تعد كالسابق طيبة المذاق، كما انتابه شعور خفي بأنه لم يعد مرغوباً به.

هكذا توقف عن زيارته في الفيلا الواقعة في المرتفع الجبلي المطل على المدينة أيضاً. لم يعد يشعر بالراحة في وجود ماركيتا، ولم يكن يرغب أن يلعب دور المراقب البريء في هذه المأساة التي انتعشت أمام عينيه. وبخاصة لأن ماركيتا لم تكن بالنسبة له إنسانة عادية، لقد كان شاهداً

على زواجها، ولم يكن هذا بحد ذاته يعني شيئاً كبيراً، ولكن كان هنالك رباط أقوى وأمتن.

لم يحتج فرانك للكثير من التفكير ليعرف كل شيء، لقد غرق صديقه في الحالة الجديدة أكثر فأكثر. لم يعد حاداً في تصرفاته، ولا دقيقاً كما كان سابقاً، وأصبح يسافر أكثر من ذي قبل، وبدأ الناس يتساءلون عن ماهية هذه المهمات التي يسافر بها. فرانك لم يكن يرى في ذلك شيئاً سيئاً، إنه صديقه، ويتعنى له السعادة. أليس كذلك؟

إنه يحترق؟ ينغص حياته؟ يكسر ظهره؟ وما الخطب في ذلك؟ السعادة لا يمكن قياسها بالوقت، أو بشيء آخر. السعادة إما أن تكون أو لا تكون، ولسعادة شخص ما، يدفع الثمن دائماً شخص آخر. لكن فرانك لا يمكن له أن يبقى حيادياً في هذا الأمر، لأن الشخص الآخر الذي سيدفع الثمن هو ماركيتا، وشيء آخر لم يدخل دماغ فرانك. ألم يقع صديقه في فخ جالوفيتش؟

لقد أثبت الزمن أنه لم يقع، وعن الطلاق، والزواج رُوِيَ الكثير، والجميع كانوا ضد هذا التصرف. لقد كان هذا التصرف لصالح جالوفيتش، لكنه لم يتدخل، ولم يتحدث، لم يزبد، أو يصرخ عن هبوط مستوى أخلاق الرفاق القياديين، الذين بدلوا يقظتهم الثورية بحياة الراحة، والمواقف غير اللائقة. لم يصرخ بأن هؤلاء الذين عليهم أن يكونوا مثالاً يحتذى به سقطوا في أخلاقياتهم إلى الحضيض. ربما يكون فرانك مخطئاً في تقديراته، يمكن أن يكونوا قد أرسلوها له من قسم الكوادر. لم تكن شقراء فاتنة فحسب بل كانت دقيقة، وسريعة في الاختزال، والكتابة على الآلة، والتعامل مع الناس، ومن الممكن أيضاً، أنه لم يكن قد حدث شيء بينهما عندما شاهدهما للمرة الأولى، وأن كل شيء حدث في وقت لاحق. ولكن، وعلى كل حال، إن ما حدث كان

متوقعاً آجلاً أو عاجلاً. فرانك يعرف مثل هذه القصص الرومانسية، وعاشها أيضاً.

الرئيس: الرجل المسؤول والمثقل بالمسؤوليات، يتدخل، يحرض، يعمل على إخماد المشاكل وحلها، يعمل حتى آخر الليل بدراسة الأخبار وتحليلها، وكتابة التقارير، والخطابات، لا وقت للراحة، ولا للعائلة، ولا لأي شيء، مستنفر في اليوم لأكثر من ست عشرة ساعة، وأكثر، ينحف، ويشحب لونه من تأثير المشكلات التي لا حل لها، وفي خضم هذه الأعمال، وإملاء التقارير، فجأة يمسح جبينه ويفكر.

ماذا كنت أريد أن أقول؟ لقد هربت الفكرة من رأسي إنني مرهق، ورأسي فارغ. لم أعد أستوعب.

يا رفيقة، استراحة لخمس دقائق، أشعر بحاجة إلى فنجان قهوة كبير وثقيل... أنت تعرفين.

في الجرار زجاجة كونياك، ولكنها جديدة. كونياك. لافودكا.

في إحدى الأمسيات، وبينما كان يملي عليها بعض الرسائل، عصر جبينه من التعب والإرهاق، لم يفتعل ذلك، كان في الحقيقة متعباً. القهوة كانت قوية، والكاتبة البارعة اعترفت بأنها لا تحب الفودكا.

انتهت أمسيات أخرى مشابهة بتوصيلها إلى البيت. مسكينة تسكن في منطقة بعيدة، والوقت متأخر بعد منتصف الليل. عند الوداع أعطاها يده مصافحاً، كان يرغب في ضمها لصدره، لكن هذا عمل غير لائق. ألم يذكر له صديقه الأحاديث والنكات التي تدور حولهما؟

ـ والسكرتيرة؟

ـ رائعة. ثلاثمائة ضربة في الدقيقة على الآلة الكاتبة، شعر جميل، عيون رائعة، ساقان كلاسيكيتان، وبالإضافة لذلك هي متفانية، وسيمة، ذات مزاج جيد. تمكنت من ترتيب المكتب في هذه الأوضاع

المعقدة والمضطربة تنبش بلحظة لك ما تريد، تحفظ أرقام الهواتف عن ظهر قلب...

معجبة برئيسها. لا يتعب، وقوي، وحكيم، وممتع. مسكين! لقد رموا على كتفه حملاً ثقيلاً من المسؤوليات، لكنه قوي، ويتحمل. يتصرف معها بصدق، تعرف أنه مغرم بها، ولكنه لا يظهر أي شيء. الإشاعات تدور حول السكرتيرات في جميع أنحاء العالم، لكنها ليست مبتدئة في عملها، ولا تجلس للمرة الأولى خلف طاولة السكرتارية. لكنه إنسان آخر، وكانت ترغب ألا يكون بهذا الشكل.

إنه يقدر العمل، ولا يوجد في مكتبه سرير (رئيسها السابق كان في مكتبه سرير مريح، ولكن شيئا من هذا القبيل لم يحدث)، وعندما تتأخر في العمل، فإنه يوصلها إلى البيت. ترى هل يدخل منزلها لو أنها دعته لشرب القهوة؟ غالباً نعم. هل يجرب؟ من الأفضل له أن ينتظر.

ما هذا الذي يدور في رأسي: فكر فرانك وضحك من تفكيره بهذه الحادثة القديمة. لقد كان الأمر مختلفاً.

وهل كان الأمر مختلفاً حقاً؟ لا داعي لذلك.

لم يكن السرير في المكتب ضرورياً لبدء العلاقة، ومع ذلك فقد أحضره في أحد الأيام بعض العمال، حتى الدعوة لفنجان قهوة. لم تكن ضرورية لبدء العلاقة. من الممكن أن كل شيء بدأ في إحدى مهمات السفر في جبال القاترا، كان يسافر دائماً في مهمات إلى الجبال، وفي بعض الأحيان أيام السبت. من الممكن أن شيئاً قد حدث في إحدى تلك السفرات. لقد سهرا لوقت متأخر من الليل في أحد الاجتماعات التي بحثت خطة تطوير السياحة في تلك المناطق الجميلة، مجرد اجتماعات، وإضاعة للوقت، وكتابة فقط، وفي خضم هذا العمل الشاق

تذكر أحدهم بأنه لا يمكن أن يجلسوا هكذا على الناشف، لابد من إحضار النبيذ المعتق. وكما يقال: الجبال والنبيذ والقمر.

لقد بدأت تغفو حين سمعت نقراً على باب غرفتها.

ـ من؟ سألت. كانت لا تحتاج للسؤال لتعرف الطارق، لكنها سألت، ويجب عليها أن تسأل.

ـ أنا... سمعته يهمس بصوت خافت.

ـ لكنني نائمة.

ـ لقد نسيت شيئاً، وهو هام جداً.

ـ ألا يمكن الانتظار حتى الصباح؟

ـ يمكن أن أنسى.

وفكرت للحظة، ومن الأدب أن تفكر.

ـ انتظر للحظة حتى أضع شيئاً على جسمي..

فتحت. هجم عليها، وضمها إلى صدره بقوة، حملها، وسار بها إلى السرير، حاولت المقاومة بيديها، وساقيها، وكان عليها أن تقاوم إلى الحد الذي لا تبدو فيه راغبة بالاستسلام.

كانت أصابعه ترتجف، ولم تسعفه بحل أزرار قميص نومها بنعومة، ومن شدة تسرعه قطع الأزرار مع بعض القماش. كان من المفروض في مثل تلك المواقف أن يقول لها: سأشتري لك قميصاً جديداً، لكنه قال ذلك متأخراً.

لقد حدث كل شيء بسرعة بحيث أنها لم تستطع قول كلمة لا. والشيء الوحيد الذي نطقت به ـ كان روحي.. حياتي.. روحي.

هكذا جرت الأمور بالتأكيد. قال فرانك لنفسه، لكنّ هذين الاثنين لم يخلق أحدهما للآخر، وبعد كل تلك السنوات تذكر فرانك النُظرة الغريبة التي حدجته بها الأرملة في ذلك اليوم الذي خرج فيه من

مكتب صديقه، بعد أن قام بزيارة مجاملة ودعه فيها، حين انتدبوه إلى مكتب النشر المركزي.

أحس كأنما تقول له:

ـ أترى أيها المسخ؟ ضحكت عيناها. لقد أردت اعتراض طريقي لقد كنت تدخل. وتتبختر مثل الطاووس، ولم تكتفِ بذلك.؟ أردت الوقوف في طريقي. كان يكفي أن أؤشر بإصبعي لكي أنهيك، لكنك لا تعني شيئاً بالنسبة لي.

هل تحبه على الأقل؟ سأل فرانك نفسه، وليس من باب الخوف عليه، ولكن فقط من باب الفضول.

كان الوداع بارداً، وأنب فرانك نفسه بعد ذلك: لماذا ذهبت إليه؟

جلسا يشربان الكونياك، ولم يكن هناك ما يقوله أحدهما للآخر.

بدأ حديثه بالتذمر:

ـ الوقت قصير، كل شيء يتعقد. لقد كانت هذه اللهجة جديدة في قاموسه الكلامي. أخيراً قال متصنعاً:

ـ سوف أشتاق إليك يا فرانك، لا تنسَ أن تزورني إذا مررت بالقرب منّا. وفرانك يعرف مسبقاً، أنه لن يشتاق إليه، ولا يريده أن يمر عليه، فرد مجاملاً:

ـ تعرف أنني سوف أزورك حين أمر في هذه الناحية.

فهم الصديق أيضاً أن فرانك لن يزوره، وأحياناً يمكن أن تفهم الكلمة بمعناها العكسي.

فرح فرانك لرؤية ماركيتا في الطريق، فقد أزاح عنه هذا اللقاء العابر مشقة زيارتها في البيت.

ـ تتهرب مني يا فرانك؟ قالت متنهدة، وعاتبته. أراد أن يرد عليها مستعملاً الكلام التقليدي، بأنه لا يتهرب، بل هي ظروف العمل... لكنه لم يحاول التلاعب.

ـ إنني مسافر.

ـ هل يعني ذلك النهاية؟ ردت متسائلة.

ـ نعم.. أظن ذلك.

مرت بجانبهم سيارة جالوفيتش ذات الثمانية سلندر وبلوحه 001. يبدو أن جالوفيتش قد ربح المعركة، لقد انتهت هذه المعركة المقرفة، معركة من سيركب سيارة بأصغر رقم لوحات في المنطقة! تابع فرانك بنظره السيارة حتى اختفائها في الطريق الجانبي، ومن خلفه سمع ماركيتا تسأله:

ـ من أين أتت هذه الشقراء؟

آه... هي أيضاً تطرح السؤال نفسه؟

لم يستطع فرانك التهرب من دعوتها للعشاء. إن لم يكن من أجلي فمن أجل مارتين، يجب أن تراه. أردفت معاتبة. ولم يستطع فرانك الممانعة.

كان كل شيء كما عرفه، لقد جهزت ماركيتا عشاءً فاخراً، وحاولت أن تبدو طبيعية، ولم تظهر شيئاً من مرارتها. فكر فرانك: سوف أبقى معهم نصف ساعة ثم أعتذر لكوني أريد تحضير حقيبة السفر، من الصعب أن يتمسكوا بي لمدة طويلة.

لعب فرانك مع مارتين الألعاب القديمة التي تعودا لعبها في السابق، وبعد ذلك قادت ماركيتا مارتين إلى غرفة النوم. اعتذر فرانك وهمّ بالمغادرة، ولكن تراءى له صديقه يسحبه إلى الشرفة الكبيرة التي تطل مباشرة على الساحة.

تذكر فرانك الأوقات التي كانا يقفان فيها سوية على تلك الشرفة الواسعة مستندين إلى الجدار، وسعيدين بمراقبة نبض الحياة في الساحة الكبيرة. لقد نظرا الآن أيضاً إلى الأسفل، إلى الساحة المعتمة.

اعتذر صديقه عن الوجبة المسائية المتواضعة، حرك فرانك يده معبراً عن عدم اكتراثه بالأكل.

ـ سوف أطلق زوجتي... قالها بلهجة إنسان مصمم، بادئاً حديثه.

ـ وما دخلي في ذلك؟ إنه شأنك وحدك، إنها مشكلتك الخاصة.

ـ معك حق، ولكن ماركيتا.

ـ لا تشغل بالك بها... إنها تستطيع أن تتأقلم. أجابه فرانك بلهجة باردة.

ـ أعرف... ولكن هناك أيضاً مارتين.

سكت فرانك.

ـ نعم، هناك أيضاً مارتين، ولكن ما دخله في ذلك؟

ـ لن أتخلى عنه! خرجت الكلمة من فمه متعثرة.

أراد فرانك أن يقول شيئاً بمعنى: إنه من السابق لأوانهِ التحدث عن التخلي عن الطفل أوعدم التخلي، هذا الموضوع سوف تقرره المحكمة، وعادة يكون قرارها لجانب الشخص الذي لم يتسبب بالطلاق. بدا فرانك وهو يفكر بهذا الرد، وكأنه يضحك على نفسه. المحكمة؟ هل يمكن هنا الحديث عن العدل، والمحكمة؟ العدل هو هذا الصديق... والد مارتين،... والمحكمة سوف تقرر ما يرغب به!

ـ أرجوك.. قال فرانك.

ـ أنا لن أنصحك، ولن أساعدك. اعفني من هذا الحديث.

ـ أعرف ذلك، ولكني أردت أن تسمع مني شرح هذا الأمر.

بقي فرانك صامتاً، لقد مرا بوضع مشابه في السابق، وكان من الأفضل لفرانك أن يسمع منه مسبقاً كل شيء، وكان على هذا الصديق أن يتذكر أنه، وفي ظروف أخرى، كان كل شيء أسهل، وذلك بالضبط لكونهما قد مرا بمثل تلك التجربة.

نظر فرانك إلى الساحة وشاهد الألوف من الشباب يمرون، وسمع أصوات ضحكاتهم وأحاديثهم. لقد تذكر مناسبة مماثلة، عندما وقف مع صديقه على الشرفة يراقبان المارة، وتحدثا عن النساء ذوات النهود الكبيرة، وكيف قفز فرانك على السطح، والتقط صورةً لصديقه من الأعلى، تظهر الساحة الكبيرة من تحته في مؤخرة الصورة، وبدت عظمته وسلطته في تلك الصورة.

ما زال فرانك يحتفظ بتلك الصورة في أرشيفه. سيد المدينة في يوم الأحد. وتذكر فرانك ما قاله صديقه في هذه المناسبة:

- تعرف؟ إن حدث شيء ما ضدنا... هنا مدفع... وهناك مدفع... هذا المنزل غيرعادي، إنه قلعة منيعة يا صديقي.

لقد أحزنته نسبية الأشياء. هنا مدفع، وهناك مدفع.... يا إلهي، ضد من؟ ضد هؤلاء الناس هنا في الأسفل الذين يتمتعون بهذا اليوم الجميل من أيام الأحد؟، ما معنى قوله: إن حدث شيء؟ هل يمكن أن يحدث شيء هنا؟ اسمع:

- لو حدث شيء ما فإنه سيسحق، وكيف يمكن لأي شيء أن يحدث؟ إن الجميع مقتنعون بالثورة وإلى الأبد.

بماذا يفكر ممثل هذا الشعب، هذا الرجل الذي انتصر، ووصل إلى السلطة، ورفعه الشعب إلى أعلى المراتب، على أنه ابنه البار؟ وما الداعي لقوله الآن: هنا مدفع، وهناك مدفع؟

أما يزال لا يصدق الانتصار والاستمرار واستقرار الوضع؟ ألا يزال خائفاً؟ ومن أي شيء يخاف؟ وممن؟

الآن، وبعد هذه السنوات ما تزال تؤرق فرانك هذه الفكرة، وكل فكرة تحضر وراءها فكرة أخرى. لقد رافقه مرة في إحدى جولاته، وكان حينذاك الرجل الأول في الدولة لحضور أحد الاحتفالات، وكانت علاقتهما في تلك الأثناء باردة، ومع ذلك كان هناك الكثير من الماضي

الذي ما يزال عالقاً في أذهانهما، ويربطهما الواحد بالآخر، ولا يتركهما للحظة بدون حديث. جلسا في المقعد الخلفي في السيارة الفخمة، وجلس بجانب السائق الحرس الخاص، وتبعتهما سيارة أخرى ذات ثمانية سلندر مع الإسعاف. وللحظة مال رأس الحارس الخاص على كتفه، وغفا من التعب، وعندما شاهد المسؤول هذا المشهد، أزبد، وصرخ:

ـ أيها الرفيق: قم بواجبك!

انتفض الحارس مرتعباً، واحمرّ وجهه خجلاً. كانت هذه عبارة عن حادثة بسيطة، لكنها آلمت فرانك، ولم تعجبه في حينه، إلا أنه نسيها بسرعة، ولقد عادت بعد عدة سنوات. إنها هنا، يا إلهي! ماذا يمكن أن يحدث؟ ما هي واجبات الحارس الشخصي في سيارة تسير بسرعة مائة كيلومتر في السّاعة؟ ماذا يمكن أن يحدث؟ اغتيال؟ هل يظن أنه يستأهل أن يغتاله أحد؟ وإذا افترضنا حصول مثل هذه المحاولة، ماذا يمكن أن يفعل مثل هذا الحارس في سيارة مسرعة؟ إنه الخوف، والخوف فقط، ولقد كان فرانك شاهداً في مناسبة أخرى على خوفه. كان وضعه مضحكاً، أو بالأحرى كان وضعه غير مضحك، بل يمكن أن تسميه تراجيديا..

كان أحد زملاء فرانك يعمل مصوراً صحفياً، وكان مسؤولاً عن النشاطات الثقافية، طلب من فرانك أن يحل مكانه لتغطية أحد العروض المسرحية، وتعجب فرانك من هذا الطلب، ومنه بالذات، لكونه يعرف أنه لا يحبه.

ـ سوف تحضر الحفلة شخصيات هامة، وهو بالتالي من اختصاصك.

رفض فرانك هذه المهمة، لكن رئيس قسم التصوير أوعز له بالقيام بها، وكان تبريره مشابهاً لتبرير المصور ذاته. لم يكن هناك شخصيات

سوى واحدة، كان هناك صديقه، وعرف فرانك لماذا أرسلوه، كانت هنالك شائعات عن علاقة تتهامسها الألسن سراً بين صديقه، وإحدى الممثلات، وكان من المفروض أن تلعب دوراً في هذه المسرحية، ولم يكن هناك أي تفسير آخر لوجوده في المسرح. فرانك يعرف صديقه جيداً، وكان يعرف عنه أنه لا يذهب للمسرح سوى في الحفلات الرسمية، وكان دائم الملل من هذه الحفلات. لقد علم مدير المسرح بحضور هذه الشخصية الهامة، فقام بترتيب كل شيء ليحوز على رضاه، وهي مناسبة عظيمة للجميع لسرد أوضاع المسرح، فقد كان المسرح يحتاج للترميم بشكل عاجل. لقد جهزوا في الندوة بعض المقبلات لهذا الضيف الهام، وفي سياق الحديث يمكن للمدير التعرض للأزمة المالية التي يعيشها المسرح، ويمكن بهذه الطريقة التعجيل في إرسال المبالغ المطلوبة للقيام بالإصلاحات الضرورية. في وقت الاستراحة بين فصلي المسرحية، التقى فرانك صديقه في الممر المؤدي إلى الندوة، فعانقه بحرارة وقال له:

ـ تعال معي.

كان في الندوة مدير المسرح، والمخرج، والممثلة التي دعت المسؤول إلى هذه المسرحية، وكانت قد انتهت من تأدية دورها. لقد وضع في منتصف الطاولة صحن كبير مليء بالسندويشات، والمقبلات، وزجاجتي نبيذ، كانت دعوة متواضعة في وقت الاستراحة.

جلسوا جميعاً حول الطاولة، وبدأ المدير بالحديث عن الأزمة المالية التي يعاني منها المسرح، بينما فتح المخرج زجاجة النبيذ، وتهيأ الجميع لرفع الأنخاب، وفي هذه اللحظة ظهرت من الباب الخلفي للندوة امرأة ترتدي ثياباً سوداء. لقد عرفها فرانك. فوجئت بوجودهم، فارتبكت، وعبرت الندوة بسرعة وخرجت من الباب المقابل.

انتفض المسؤول عند رؤيتها، وبعصبية ظاهرة وضع الكأس المليء بالنبيذ على الطاولة وسأل:

ـ من تكون؟

ارتبك المدير وأجاب بصوت مرتجف، ومنخفض:

ـ إنها السيدة بافلينوفا.

فهم الجميع سبب هذا الارتباك، وما كان عليهم السماح بحدوث مثل هذا الموقف، لكن ما العمل الآن؟ لم يكن باستطاعة أحد منع هذا المشهد.

ـ السيدة مارتانوفا.. أليس كذلك؟

التفت المدير شارحاً....

ـ نعم مارتانوفا اسمها عن زوجها، ولكنها تعمل باسمها السابق قبل الزواج، وحين يطلقون سراح زوجها سوف تنفصل عنه حتماً، وقد كان هذا شرط قبولها للعمل في المسرح.

ـ إذن هي تعمل عندكم؟

لم يتمكن المدير من متابعة الكلام، وأظهر المخرج مقداراً أكبر من الشجاعة، ورد قائلاً:

ـ إنها ممثلة جيدة، ولقد نالت نصيبها من الإبعاد، لقد عملت، ولمدة سنتين في مسرح مغمور، وبرزت هناك بشكل جيد، وسجلها ممتاز، وليس لها أية علاقة بمواقف زوجها المعادية للنظام، وإلا لما كانوا تركوها طليقة تعمل في المسرح.

نظر المسؤول بتمعن وجدية إلى الطاولة، وإلى الكأس الموضوع أمامه، وعقب سائلاً:

ـ وما علاقتها بمسرحية اليوم؟

ـ الافتتاحية اليوم تعني الكثير بالنسبة للعاملين في المسرح، ومن اللائق وجودهم جميعاً هنا، حتى أولئك الذين لا يؤدون أدواراً في هذه المسرحية. المسرح عبارة عن عائلة واحدة.

رد المدير متلعثماً! لقد نسي، ولم يعد يفكر بالمساعدة المالية، وببضعة آلاف من الكورونات التي سيحصل عليها للقيام بترميم المسرح، لقد بدا متعرقاً وخائفاً، وعرف مسبقاً أن أحداً لن يرحمه في تصرفه هذا.

ولكن من كان يخاف أكثر؟ سأل فرانك نفسه.

رفع المسؤول الكأس الموجود أمامه على الطاولة، والذي لم يحتس منه قطرة واحدة، والتفت إلى حارسه الشخصي، الذي وقف خلفه، وأعطاه القدح آمراً:

ـ اغسله.

رجع فرانك إلى نفسه متسائلاً: هل ما يراه معقولٌ؟ هل يمكن أن يحدث شيء من ذلك؟

عاد فرانك ليرى أمامه حشود المودعين يمرون أمام التابوت مرتدين اللباس الأسود، لقد ملأت رأسه كلمات، وأوامر الميت: هنا مدفع.. وهناك مدفع... يا رفيق قم بواجبك.... اغسل...

الآن فقط.. تذكر فرانك أين شاهد الميت تلك المرأة؟ وأين تعرف عليها؟

لقد جاءت لتسترحمه من أجل زوجها، المهندس المتهم بالخيانة. أو ربما كان هناك شيء آخر. بدأ فرانك يسترجع تلك المشاهد القديمة:

دخلت، توقفت، فوجئت بهذا المشهد في الندوة... عبرت الندوة مسرعة، وخرجت من الباب المقابل.

لم يوح هذا المشهد بشيء آخر. يمكن أنها افتعلت المشهد لترجوه منه، وتذكره بزوجها، وليس من الصواب البحث عن أسباب أخرى. هذا الميت بدا مذعوراً من رؤيتها، وهو المسبب لحالة الارتباك والشك التي حصلت، لكن فرانك عرفه جيداً في أوقات كان فيها شجاعاً لا يخاف شيئاً، وكان يصرح بأن الثورة هي حياته، وحياته هي الثورة!

في ذلك الزمان كان يقول الحقيقة، وكان يقولها بدون تواضع وبكل جرأة، وصدق، ولقد كان فرانك شاهداً على مناسبات عديدة وقف فيها صديقه وقفة إنسان شجاع، وكانت تلك الأوقات في منتهى الخطورة. لماذا حدث هذا التغير؟ ومتى، ما هي الأسباب التي جعلته يغير من اتجاهه الثوري؟

لقد بدا لفرانك أن السبب الوحيد في تغيره يكمن في تلك الشقراء. في ذلك الوقت؟ معها؟ من أجلها؟ فرانك يعرف تصرفاته، وكم مرة عاشا لحظات هوى مشتركة، وجلسا سوية، وتحدثا، وتذكرا، أما بالنسبة لهذه الشقراء فإن الأمر اختلف، وكل التصرفات التي حدثت أثبتت صحة رأيه. لقد أثرت به ولعبت بعقله منذ اللقاءات الليلية الأولى، واستطاعت أن توهمه بأنها تخاف عليه وعلى صحته، وربما كانت تقول له دائما:

ـ وفّر صحتك، لا تتعب نفسك، على الأقل من أجلي..

في تلك الليالي اعترف لها بأن الثورة شيء كبير... ولكن هل هي كل شيء؟

هل كان ذلك حباً على الأقل؟

الحب الذي يحرق كل شيء، ويتجاهل كل شيء، ويتسامح؟ هل كان حباً؟ وعلى الأقل من جانبه؟ فرانك لا يملك الجواب، لم يكن موجوداً، ولا يدري إن كان قد أسمعها تلك الكلمات التي تقال في تلك المناسبات لمثل هاته النساء، وبغض النظر عما إن كان في لقائهما الليلي أو النهاري. ولئن وجد مثل هذا الحب بينهما، ففي النهاية لم يبق له منه شيء. ولن يعلم فرانك أبداً، متى بدل صديقه شعاره الأساسي : أنا الثورة، والثورة أنا.

هل السبب هو هذه الشقراء؟ ممكن، ولكن.. لم تكن وحدها السبب.

- ٩ -

استطاع فرانك من مكانه بالقرب من الباب أن يراقب بشكل جيد صفوف المودعين الذين مروا بثياب الحداد بجانب النعش، وقد غطت ألوان الورود والأكاليل سواد ثيابهم، وكان حرس الشرف يتبدل كل عشر دقائق حول التابوت. والفرقة الموسيقية تعزف بدون توقف المارش الحزين لشوبان، ومعزوفة تشايكوفسكي البطيئة كانتابيلا والجملة الثانية من كونسرتو لدفورجاك للفلينشيلو، وقسماً من السمفونية الغنائية لسميتانا، المخيم، ومقاطع من السمفونية الرابعة لبراهمز. مر المودعون الرسميون بجانب النعش، وألقوا النظرة الأخيرة، ثم تقدموا بضع خطوات إلى الطاولة المجهزة لتسجيل أسمائهم في سجل المعزين، ثم خرجوا إلى البرد القارس، وهموم الحياة التي لا تنتهي.

لقد حضر فرانك الكثير من هذه المناسبات، وكان في كل مرة يجد فيها شيئاً جديداً يشده، من منظر الوجوه التي تتغير كل لحظة إلى ما يدور في أذهان الناس. إن الموت يبقى بدون جدل الحقيقة التي لا مفرّ منها، ولا يمكن للإنسان ردّه أو أن يدير له ظهره. لم يخرج الميت من القاعة بعد، ولم يبرد جسده، ولكن الأحاديث، والهمسات بدأت بتعريته، وتعرية الأرملة، والنيل منه. أحاديث عن حياته، ووفاته، وكانت تصل لأذن فرانك بعض الهمسات والجمل اللاذعة:

يبدو، وكأنه استعاد الحياة، لقد كان شاباً لم يكمل اثنين وخمسين سنة، الحزن أظهر جمالها، ويوجد من يواسيها، و... كان يحب

النساء، ويبدل السكرتيرات مثل تبديل موضة الشعر. و.. لم يكن بهذا السوء. لقد فتك بالناس.. لا يجوز على الميت سوى الرحمة.. الخ.

عبرت فكرة جهنمية في ذهن فرانك، وتوقف عندها: من يدري، ربما يكونون قد وضعوا في مكان ما مكروفونات للتنصت؟ وعدم وجود مثل هذه الأدوات يعتبر تقصيراً في التنظيم ليست الغاية هي سماع ماذا قال فلان أو فلان من الناس، وإنما الهدف هو إخافة الحاضرين. لم يعد يهم أحداً ماذا سيقال عن المتوفى، بالنسبة إليه لقد تأخر الوقت، بل من أجل من سيحل مكانه، ليكن حذراً، وليعمل جاهداً في حياته لكي لا يقال عنه بعد وفاته ما قيل عن المرحوم.

سمع فرانك إحدى الملاحظات التي أثارت غضبه، وكانت غير صادقة وتدل على الحقد.

ـ كانت تصرفاته حمقاء في أيام الثورة.

التفت فرانك، وعرف الشخص الذي بدرت منه تلك الملاحظة. كان رجلاً من النوع الذي يتبجح بمعرفته، يعرف دائماً كل شيء، ولديه اطلاع دائم على كل شيء، وكان رجلاً هاماً، وتافهاً في كل شيء. فرانك وحده يعرف جيداً تصرفات المرحوم أيام الثورة، لقد كان بجانبه في تلك الأوقات. كان المرحوم قائداً عسكرياً لأفضل فيلق من الثوار، قاتل ببسالة، وكان شجاعاً، وهادئاً في اتخاذ القرارات، كان يجد مخرجاً مناسباً في المواقف التي كانت تبدو موئسة، والذي حصل لاحقاً بينه وبين يوديتا كان شيئاً آخر لا علاقة له بتصرفاته أثناء الثورة. لقد كان الأمر على ما يرام مع يوديتا. وكذلك بين فرانك والمرحوم.

كان صاحب قرار، وكان يطلب الطاعة الحديدية في المواقف الصعبة، وإلى جانب ذلك كان يحب الإطراء، ويهوى الأعمال المنتجة، والمبادرات. كان يحاول دائماً الاستفادة من التجارب التي يمر بها وإلى

جانب ذلك لم يرسل رجاله إلى معارك فاشلة، ولم يفرط بهم، وفي الوقت ذاته كان صارماً، وقاسي القلب.

من يدري؟ هل كانت قساوة قلبه خطأ؟

فرانك بذاته لا يعرف. لقد أمر مرة بتنفيذ حكم الموت بأحد الشباب لأنه نام في أثناء حراسته الليلية، حين كانوا يقاتلون الألمان في الجبال، وكان وقع هذا الخبر على فرانك مؤلماً. كان الحارس ولداً صغيراً. ولكن بالمقابل، كانت النتيجة أن الألمان هاجموهم من الجانب الذي كانت فيه الحراسة ضعيفة، هاجموهم في الليل، وصادوهم مثل الأرانب، ولم يكونوا مستعدين.

فرانك يعرف جيداً معنى أن ينام الحارس في مناوبته، لقد حدث ذلك معه أيضاً في أثناء مناوبته، ويعرف أيضاً الصعوبة في مقاومة النعاس، العيون تتعب، وتشعر أن الجفون تزن أطناناً، وتحس كيف تلتصق بعضها ببعض، وبلحظة تغيب عن وعيك وربما لثانية، وفي هذه الحالة لا يفيد أي شيء. حين يهجم النعاس لا شيء يرده، ولو حاولت مقاومته بقضم إصبعك أو بفرك عينيك بلعابك لن تستفيد شيئاً. الجميع نيام وأنت تقف في مكان واحد لا تتحرك منه، لأن الحركة تكشف مكانك. عليك الوقوف لأن الجلوس يضعف مقاومتك للتعب، ومن ثم تستسلم للنوم. لابد وأن كل فرد منا قد غفا أثناء الحراسة، وربما لنصف ثانية أو للحظة، وكان بالإمكان أن تكون غفوته مصيرية بالنسبة للجميع، لقد كان آمر الفرقة صارماً في هذا الأمر، ويعرف الجميع أن نتيجة مثل ذلك التقصير هي الموت.

هل كان لينفذ حكم الإعدام بي لوعرف أنني غفوت في الحراسة؟ أم أنه كان ليركلني بقدمه قائلاً: استيقظ أيها المغفل. سأل فرانك نفسه؟

فرانك لا يعرف الجواب.

ما هو الصواب ياترى؟ قتل الحارس أم عدم قتله؟

لم يستطع فرانك تبرير خطأ هذا الشاب، وحاول جاهداً إيجاد العذر المقنع، قال الشاب في قرارة نفسه: إن الألمان لن يحضروا إلى الجبل في الليل، لكنهم حضروا، وكان ذلك في الوقت الذي فشلت فيه الحراسة، وحصلت الكارثة: مذبحة للثوار. كم قتل في تلك الليلة من الشباب الطيبين، وكل ذلك لكون الحراسة لم تكن في المستوى المطلوب. لم يحاول القائد تذكير فرانك بموقفه المتخاذل من ذلك الحارس الشاب، وكأنه يقول له: أرأيت أيها الغبي؟ ماذا حدث نتيجة إهمال الحراسة! كان عليك ألا تنزعج، وتغضب من تصرفي، هل كان خطأ؟

لم يتحدثا عن هذا الموضوع، علماً بأنهما تذكرا كل شيء، ولكن... لايستطيع فرانك تصور إطلاق النار على شاب في السابعة عشرة من عمره، وكل ذلك لأنه غفا في مناوبته.

في ذلك اليوم أباد الألمان مجموعتهم. حضروا في الليل، حيث كان الجميع يغطون في نوم عميق ولم تحدث أية معركة، بل كان ثمة هروب، وتمكن من النجاة خمسة رجال فقط، لم يكن هنالك أي شيء ممكن سوى الهرب. خمسة فقط، امرأة واحدة وجريح واحد اضطروا لحمله على حمالة صنعوها من غصني شجرة، ووضعوا تحته بطانية وحملوه، كان يسمع أنينه، وصراخه من الألم، هربوا إلى الهضبة القريبة، والجريح يطلب منهم مسدساً لينهي حياته، ويتخلص من ألمه، لكن القائد أمر بحمله إلى مكان أمين، وفرانك لم يكن يدري ما معنى كلمة مكان أمين التي قصدها القائد. الألمان لن يتركوهم يهربون بعيداً، لقد أصبحت ساعاتهم معدودة، وهذه الليلة هي نهايتهم. حملوا الجريح وتبادلوا حمله. كانت يوديتا منهكة، وضعيفة وإلى جانب ذلك فهي امرأة. تابعوا سيرهم في الظلام في تلك الدائرة المميتة، ولم يفهم فرانك كيف يمكن لهذا أن يحدث، تابعوا مسيرهم بمحاذاة قمة التل، والله وحده يعرف أن تركهم لهذا الطريق كان يعني الموت المحقق.

كانت الجبال تعني الأمان بالنسبة للثوار، وكلما كانت مرتفعة زادت نسبة الأمان، ربما يبدو الحساب غير منطقي، ولكن في قتال الثوار يوجد القليل من المنطق. لقد كان خط مسيرهم بمحاذاة قمة التل، وكان ذلك بالنسبة إليهم يعني الأمان والأمل الوحيد بالنجاة، كانوا متعبين إلى حد الموت. لا شيء يهين الإنسان مثل الهزيمة. قال فرانك:

ـ خطوة واحدة وسأسقط.

وردد ذلك بعد كل خطوة، لكنه لم يسقط، وقطعاً كانت تلك من أصعب الخطوات في حياته. سار القائد في المقدمة، ومن خلفه اثنان حملا الجريح، وسارت يوديتا في الخلف، وفجأة صرخ القائد:

ـ انبطحوا! تسمر فرانك في مكانه، وظن بأنه أمرهم بالاستراحة، لكن القائد صرخ مرة ثانية: انبطحوا أيها القذرون!... الألمان! وعبرت جسد فرانك شرارة كهربائية، وذهب التعب، وتبدل بخوف قاتل... النهاية... إنها النهاية المؤكدة... استلقوا، وخطرت بباله فكرة غبية... الأمل المضحك... ربما لم يشعروا بوجودنا. لكنهم أحسوا بهم، وكان يسمع من قريب أوامر تتلى بصوت منخفض، وأصوات تلقيم السلاح.

ـ لا تطلقوا النار... همس القائد! لا تطلقوا، إلا إذا بادروا بإطلاق النار!

فرانك لم يفهمه، وما الفرق في ذلك؟ إنهم في الليل، وعلى بضع خطوات من الألمان.

من الحق أن الموضوع لم يكن بهذه البساطة، لم يكن هنالك أمل بالنجاة، إن الذي يبدأ بالإطلاق في الظلام، سوف يطلق عشوائياً، وبدون هدف محدد، وفي اللحظة التي يطلق بها سوف ينكشف مكانه، ويصبح هدفاً سهلاً للعدو. ربما يفكر الألمان بنفس الطريقة، وهم ينتظرون منا البدء بإطلاق النار، فكر فرانك للحظة. حدث صمت خانق، صمت مريب. لم يطلق الألمان النار ولا فرانك ولا غيره يعلم ماذا

يضمرون لكنهم على الأغلب ينتظرون، ربما تملكهم رعب من الجبال والليل. لقد كانت الدقائق طويلة وسمع فرانك دقات قلبه تقرع كالطبل، وكان التوتر لا يحتمل. لِمَ الانتظار يا إلهي؟ همس الجريح، يريدوننا بالتأكيد، وها نحن بين أيديهم!

ـ اخرس... رد عليه القائد. اضبط أعصابك.

ضحك فرانك: أعصاب؟ أية أعصاب؟ من يملك أعصابه هنا؟ الألمان يملكون أعصابهم ويمكنهم التحكم بها.

لقد فقدوها على ما يبدو، وربما قبلنا بثوان، وبدا لفرانك أنه سمع حركة وأصواتاً منخفضة وأصوات تكسر العشب اليابس تحت الأقدام وأصوات وقع أقدام تتلاشى باتجاه الوادي. لقد شعر فرانك بصمت من نوع آخر، صمت احتفالي، وفي هذا الصمت سمع فرانك صوت يوديتا تتأوه، ويبدو أن الجريح سمع تأوهات يوديتا أفضل منه.

ـ يا رجل إنه يبادلها الحب... قالها بصوت منخفض.

بدا هذا الأمر مضحكاً لفرانك، وفعلاً بدأ يضحك. أخرج البطارية من جيبه، وشاهد في الضوء الكاشف جسديهما في حالة حميمية من الوصال وسمع صوتاً منخفضاً ينهره:

ـ أطفئ النور ياسافل.

ـ يتبادلان الحب هنا في هذا المكان! يا الله! سأل الجريح مرة ثانية.

ـ نعم.

ـ حياة إباحية هذه! قال الجريح مهدئاً أعصابه.

ـ ماذا تقول؟ روحك سوف تصعد إلى السماء وما تزال لديك الرغبة!

ـ ولِمَ لا؟

شعر فرانك بالشيء ذاته، إن الإنسان مصنوع من رغبات، وليس من الخشب. قبل دقيقتين كان الألمان هنا وهذا الثور جاثمٌ فوقها. ماذا كان

ليفعل لو وُجِدَ هذا الوضع بين شخصين بالقرب من الألمان وعلى الثلج؟ هل كان ليعطيهما معطفه ليضعاه تحتهما؟

في الصباح هبطوا من التل. ارتفعت حرارة الجريح، وبدأ يهذي، وبحذر شديد دخلوا إحدى القرى الجبلية التي يعرفونها، وتعرفوا على منزل مختار القرية، دخلوا إلى الممر المودي إلى البيت وقرعوا الباب.

ـ من الطارق؟ سمعوا صوت رجل في الداخل.

ـ افتح!

ـ من أنتم؟

ـ افتح وسترى، لِمَ تسأل؟

ـ لن أفتح. لا يوجد هنا ما تبحثون عنه.

ـ سأحرق البيت، وسوف تحترق معه رد القائد بصوت قوي.

فتح المختار الباب، وكان يرتجف من الخوف.

ـ ألا تعرفني أيها الخنزير؟ فاجأه القائد.

ـ تعرفني، وتعرف من أكون أيضاً. معي جريح، وحرارته مرتفعة، عليك العناية به، وإذا حدث له مكروه فلن تجد في الدنيا مكاناً تختفي فيه من عقابي، ودفع المختار بيده، وأمرنا بإدخال الجريح إلى الغرفة. هناك وقفت زوجة المختار وبدت متأسفة.

ـ الألمان... سوف يشنقونني... اشتكى المختار.

ـ الألمان سوف يمكثون هنا لبضعة أسابيع، أما نحن فإننا سوف نبقى للأبد. عليك أن تقرر الآن ما ينفعك!

أراد المختار أن يتمنع، فصفعه القائد، وبدأ ينزف من أنفه. كانت زوجته أذكى، وبدون كلام بدأت تحضر السرير الذي كان لا يزال دافئاً من جسمها. مددوا الجريح على السرير بدون نزع حذائه.

ـ عليك تأمين طبيب... هل فهمت؟ يجب ألا يعتقله الألمان. يجب أن يبقى حياً.

هز المختار رأسه موافقاً، ونظرت إليه زوجته نظرة عتاب.

صافحوا الجريح مودعين، وخرجوا، وشعروا بأنهم فعلوا كل ما يستطيعون من أجله، بذلك يمكن أن يبقى أمل في نجاته من الموت، لقد كان من المستحيل حمله إلى مكان أبعد وهو على تلك الحال. قضوا بقية اليوم مستلقين في الغابة يستريحون من عناء الليلة السابقة.

اقتربت يوديتا من فرانك، وبادرته بالحديث.

ـ أعتذر من أجل الليلة السابقة.

ضحك فرانك من كلامها وأسفها.

ـ كان ذلك مشهداً رائعاً يا يوديتا، ولا داعي للخجل!

ـ أنت تعرفه جيداً... لقد كان...

ـ نعم لقد كان...

نهضوا في المساء من استراحتهم، والتقوا مصادفةً عند عبورهم الطريق مجموعة من الثوار تدعى مجموعة إيفان، وكان قائد هذه المجموعة روسياً. لقد سمع عنها فرانك قليلاً، وكانوا في الطرف الآخر من التلة. كان ذلك في الليل، ولاحظ فرانك بأنهم مجموعة من المقاتلين يبلغ عددها ما يقارب الثلاثين، وكانوا مسلحين بشكل جيد. بالإضافة لذلك كانوا يلبسون ثياباً نظيفة.

سمع منهم الروسي باختصار شرحاً عن حالتهم، وسمح لهم بعدها بمرافقة مجموعته. ساروا في الطريق الرئيسية، وكأنهم في وقت السلم، يجرون معهم بقرتين مربوطتين بالعربة. مال الفيلق بمسيره، وانحرف عن الطريق الرئيسي متجهاً إلى الجبل، وبعد ساعة تقريباً وصلوا إلى مكان تمركزهم، حيث يوجد بيت جبلي فارغ، ودافئ.

ـ انزلوا عن أكتافكم العتاد، واستريحوا... أمرهم الروسي.

لكن هذا الميت.. رفض نزع سلاحه.

ـ انتظر.

التفت إلى الروسي.

ـ ماذا يحدث هنا؟

تمعن الروسي في وجوههم وأضاف.

ـ تقولون إنكم من مجموعة الجبل؟

ـ لا نقول، بل نحن منها رد عليه صديق فرانك.

ـ لكن معلوماتنا تقول عن هذه المجموعة بأنها أبيدت بكاملها في الليل، ولم ينج منها أحد.

ـ نجا منها كما ترى... نحن بقينا.

ـ عليكم إثبات ذلك. الروسي الذي يدعى إيفان تابع حديثه.

ـ قام الألمان في الليل بهجوم سريع، وطوقوا (الفيلق) الموجود هناك، وفيما أعلم لم ينج منهم ولا فأر. ويمكن أن يقول كلامكم كل إنسان وحتى الأعداء.

لم يسمح صديق فرانك لهذا الروسي أن يخرجه عن طوره. فرد معاتبا:

ـ إننا منهكون حتى الموت، وجائعون كذلك. نريد أن نأكل، وننام، وسنتناقش في هذا الموضوع غداً صباحاً.

خاف فرانك من انزعاج الروسي، ولدهشته وافق على كلام صديقه. وأمر بإحضار اللحم والشراب. يا رب ما هذا؟! إنهم يعيشون هنا ببحبوحة.. كما في حالة السلم.

عرض عليهم الروسي السكائر، وأعطى كل منهم علبةً كاملةً. وشعر فرانك بنظرات الروسي إلى يوديتا.

ـ هل شبعتم؟ سأل عندما انتهوا من الأكل.

هزوا برؤوسهم.

ـ يمكنكم الصعود إلى السقيفة، هناك الكثير من سنابل القمح، ويمكنكم النوم، وفي الصباح سنتكلم.

صعدوا السلم المؤدي إلى السقيفة، لف فرانك رأسه، وغرق في نوم عميق، نام طويلاً. واستيقظ فجأة على حلم مزعج، وقد غمره عرق بارد. لقد حلم بأن الألمان قد حاصروهم: ، مد يده ليمسك سلاحه... ولكن... لا يوجد أي سلاح.. هنا أفاق من حلمه، وحمد ربه لأن ما حلم به لم يكن حقيقة. ولكنه بالرغم من ذلك مد يده إلى سلاحه الذي كان بجانبه فلم يجده.

ـ لقد جردونا من سلاحنا.

نزلوا بسرعة إلى القاعة السفلية التي بدت خاليةً إلا من جندي شاب وقف إلى جانب الباب، وبيده سلاحه.

ـ أين سلاحنا؟ صرخ فرانك بانفعال في وجهه..

رفع الجندي كتفيه دالاً على عدم معرفته.

ـ القائد أعطى الأمر..

ـ أين القائد؟ وما هي الأوامر؟

ـ عليكم البقاء في البيت. المجموعة في مهمة.

ـ غبي... صفعة واحدة مني تكفيك لتواجهَ ربك.

ـ هدىء من روعك... سحبه صديقه، وأردف: كل شيء سوف يفسر لاحقاً.

لم يكن فرانك متأكدا من أن كل شيء يمكن تفسيره.

عادت المجموعة في المساء من المهمة، كانت أحذيتهم وثيابهم نظيفة، وسلاحهم يلمع، ولم يكن من الصعب معرفة المهمة التي قاموا بها. العربة التي أحضروها كانت مليئة بالمؤونة، وأكياس السكر. إذاً هذه هي المهمة التي عادوا منها!

دخل قائدهم الروسي إلى القاعة محاطاً بمجموعة من الرجال الذين حملوا في أيديهم صناديق مليئة بالسكائر. لقد نهبوا إحدى المستودعات، وكما في اليوم السابق أفرغوا إحدى المزارع! ماذا سيكون

موقفهم إن هاجمهم الألمان، وهم ينهبون هذه البضائع، وقتلوهم؟ ماذا سيكون رد فعل السكان؟ بالتأكيد الشماتة بهم.

ـ عصابة. همس في أذن يوديتا.

ـ لماذا جردتمونا من السلاح؟ ولماذا تضعوننا تحت الحراسة؟ سألهم صديق فرانك؟

ـ اخرس. صرخ في وجهه الروسي. أنا الذي سوف يسأل!

ـ سوف أعطيكم سلاحكم، ولكن علي في البداية معرفة من تكونون. علي أن أكون حذرا. المنطقة مليئة بالخونة.

ـ وكيف تريد أن تتأكد؟

ـ إنني أملك الوسائل الضرورية لذلك.

وقف هذا المتوفى بهدوء. ومزق ببطه النهاية السفلية من معطفه، وأخرج منه ورقة، وأعطاها للروسي الذي قرأها بتمعن، وعلى الأغلب كانت مكتوبة بالروسية، قرأها، وأعاد قراءة بعض الكلمات، وبدا عليه الرضى، وأظهر بعض التواضع.

ـ خاراشو... لا بأس... قالها بالروسية.

ـ اعطوهم السلاح.

ركض جنديان، وأحضرا السلاح

ـ هل تريدون البقاء معنا؟ سأل الروسي بحذر.

أراد فرانك أن يقول لا. وكذلك شعر أن يوديتا تريد أن تقول الشيء ذاته. لم يكن الروسي يقولها كدعوة لهم، وعلى الأرجح كان يريد أن يفهموا أنه يريد منهم الرحيل بأسرع وقت ممكن. لكن هذا الميت أجابه بشكل حاسم.

ـ سوف نبقى معكم!

كان الروسي شاباً مثل الجبل، ومن هذا الجواب الذي لم يكن يتوقعه بدت على وجهه علامات الغضب، ولكن لم يكن بإمكانه التراجع بعد أن دعاهم للبقاء، وماذا يفعل؟

نظر فرانك إلى الآخرين، وشعر أنهم راضون من قرار قائدهم.

ـ خاراشو.. قال الروسي، ولكن ليكن بعلمكم أنني أطبق هنا الطاعة الحديدية.

ـ الطاعة الحديدية ربما لا تكفي. ابتسم صديق فرانك.

ببقائهم مع هذه المجموعة استطاعوا معرفة الكثير عنها.

في إحدى الليالي احتلوا مصنعاً صغيراً للنبيذ. شربوا حتى الثمالة، وفي اليوم الثاني نفد مخزون السكائر، فوجدوا ذلك سبباً لاحتلال ونهب إحدى الحوانيت، وفي اليوم الثالث شعر القائد برغبة في تغيير لحم العجل واستبداله بلحم الخنزير، وكان له ما أراد، لم يطمئنوا للمقاتلين الجدد! نعم لقد تركوا لهم سلاحهم، ولكنهم كانوا يشعرون بأنهم مراقبون. لقد حاول فرانك عدة مرات إنشاء علاقة مع هؤلاء الجنود، لكن مساعيه باءت بالفشل. كان ممنوعاً عليهم إنشاء علاقات مع الغرباء، والخوض معهم في الأحاديث.

أقبل الربيع مبكراً في ذلك العام، وكان الجيش الأحمر قريباً، ويحتل مواقع جديدة، ويتقدم ببطء شديد، بعد معارك ضارية مع الألمان، وهنا كانت تلك المجموعة تسرق المخازن، ومعامل النبيذ، وتنهب الفلاحين، وتنشر الرعب في المناطق المجاورة، كل ذلك تحت ستار من الادعاء بمقاتلة الألمان، شعر فرانك بعدم وجود رابطة أو علاقة بين الثوار والأهالي، لقد كان الناس يخافونهم، ويتهربون منهم، ويشعرون بأنهم لصوص، وليسوا مقاتلين.

مرة أسرت يوديتا لفرانك:

ـ لا تتركني وحيدة بينهم. إيفان هذا ينظر إليّ دائماً نظرات غريبةً.

لقد لاحظ فرانك سابقاً نظراته الغريبة إلى يوديتا، وكيف كان يحوم حولها.

ـ لا تخافي من أحد. رد عليها فرانك محاولاً تهدئتها، ولكنه مع ذلك لم يستطع طمأنتها، لقد كان وضعهم العام بين هذه المجموعة ضعيفاً، كانوا تحت مراقبتهم: تحركاتهم وحتى أحاديثهم، ولم يتمكنوا من التحدث بعضهم إلى بعض بدون رقيب من هذه المجموعة. ربما كان بإمكانهم الهرب في غفلة منهم. لقد ناقش فرانك هذا الموضوع مع قائده، لكن جوابه كان دائماً:

ـ اهدأ.... اهدأ. إلا أن فرانك كان يشعر بأن شيئاً سيحدث قريباً.

وحدث شيء... في أحد أيام الأحد الجميلة الربيعية، وكانت الجبهة قريبة منهم، على مرمى حجر، وكانت الطائرات القاذفة السوفيتية تعبر فوق رؤوسهم. قرر القائد مسيراً في إحدى الطرق الرئيسية، وتوقفوا بالقرب من طرف الغابة، وأمرهم الروسي بالاستراحة، وتنظيف السلاح الذي كان بالأصل نظيفاً، إذْ لم تصدر عنه طلقة واحدة. وبدأ الشباب بتنظيف السلاح وتلميعه. كان عددهم ما يقارب الثلاثين، وهذا العدد في معايير الثوار قوة لا يستهان بها!

فجأة قال الروسي شيئاً لم يفهمه فرانك، لكن الجميع انبطحوا إثره على الأرض، بدأ فرانك يبحث بعينيه، ويستقصي السبب الذي دعاه لإعطاء هذا الأمر، ولم يجد شيئاً مريباً يدعو لهذا التصرف! إلا أنه لمح في طرف الغابة أحد الفلاحين بلباس أسود وقميص أبيض وطاقية سوداء، وربما خرج في ذلك اليوم الربيعي الجميل ليتفقد الطبيعة بعد شتاء قارس، كان يتصرف بشكل طبيعي.

صرخ إيفان لاثنين من عناصره، وتحدث إليهما بصوت منخفض، وبعد قليل ابتعدا، وشاهدهما بعد ذلك خلف الفلاح، يشهران عليه السلاح، ويأمرانه بالسير. ساقاه لطرف الغابة، لقد كان هذا الفلاح في

عمر يناهز الستين، وبدا مذعوراً، وعيناه ترقصان خوفاً، ولم يستطع فرانك معرفة الأسئلة التي طرحها عليه إيفان، لم يسمع أيضاً جواب الفلاح، وبعد قليل أخرج الروسي من جيبه دفتر ملاحظات أسود صغيراً، وبدأ يتصفح أوراقه، بدا على وجهه وكأنه قد وجد ما يبحث عنه، ابتسم، وأعاد الدفتر إلى جيبه. وبصوت قوي أمر الرجلين اللذين أحضراه، بأخذه إلى الخلف وحراسته بشكل جيد، بدأ الرجل العجوز بالالتفات يمنةً ويسرةً والجنديان يسحبانه، وكأنه يسأل عما فعل ليستحق هذا العقاب، يطلب المساعدة والشرح، وقد صمت الجميع.

اقترب إيفان من فرانك، وقال له.

ـ الآن أستطيع أن أمتحنك، وأتحقق من هويتك. هذا الرجل يدعى ميخائيل، إنه جاسوس ألماني، وأنت، أشار إلى فرانك: عليك أن تعدمه بإطلاق النار عليه. هذا أمر!

أخرج الروسي من جيبه مسدساً كبيراً، وأعطاه لفرانك.

ـ هذا غير معقول! لا يمكن أن يكون جاسوساً! إنها جريمة قتل!

صرخ فرانك بغضب، ويبدو أن إيفان كان ينتظر هذا الجواب من فرانك.

ـ معنى ذلك أنك ترفض تنفيذ الأوامر؟

ـ طبعاً إنني أرفض مثل تلك الأوامر. صرخ فرانك لست مجرماً!

اسودت الدنيا في عيني الروسي، فصرخ:

ـ هكذا إذاً. تأكلون اللحم وتشربون الفودكا، وترفضون إعدام الجاسوس.. أليس كذلك؟ هذا لأنكم خونة مثله. لقد حدثني قلبي بذلك منذ البداية!

ولم ينه كلامه حتى كانت قد وصلته ضربةً قوية على رأسه وسقط إلى الأرض كالشجرة المقطوعة. قائدي... هذا الميت ناوله بطرف يده

ضربة قوية على عنقه... بدأ يلهث، ويتنفس بصعوبة، وضربه أخرى بقدمه على يده، فسقط منها المسدس ووضع قدمه على رقبته.

ـ أيها الخنزير... صرخ فيه... أية حركة أخرى، وسأعفسك مثل الثعبان!

كل ذلك حدث بلحظات، بحيث لم يستطع أحدٌ الإتيان بأي حركة. وعلى كل حال كانت دقائق رائعة، ومجازفة لم يفكر بها فرانك.

توجهت أسلحة أعضاء المجموعة إلى فرانك، ويوديتا، والثائر الذي حضر معهم من الجبل، وكان يكفي طلقة واحدة لينتهي أمرهم، لكن قائدهم، هذا الميت السجى هنا في هذه القاعة كان قد سيطر بشكل كامل على الوضع.

ـ إنني المعتمد فوق العادة من مركز قيادة الثوار. قالها بحزم وبصوت واضح.

ـ استلمت القيادة هنا منذ الآن، ومن لا يوافق يمكنه المغادرة خلال خمس دقائق! ومن يبقى عليه تنفيذ أوامري!

في تلك اللحظة حدث إطلاق نار. طلقة واحدة، وبعدها أطلق هذا الميت عيارين على أحد الأولاد الذي خرج الدخان من بندقيته. خر صريعاً ومضرجاً بدمائه، لقد أصابَهُ القائد الجديد في حلقه.

ـ من التالي؟ سأل موجها كلامه للجميع. لا.. لا يوجد أحد.. وقف الشباب مشدوهين من هذا المنظر.

بقي الروسي على الأرض بدون حركة.

ـ انهض أيها الخنزير... ورفسه هذا الميت بقدمه.

نهض الروسي بصعوبة.

ـ دعني أرَ هذا الدفتر الأسود الذي في جيبك! أمره ساخراً منه.

أخرج الروسي من جيبه الدفتر الأسود. تناوله ونظر إليه. بصق على الأرض، ورماه لفرانك الذي تصفحه، ولم يجد فيه شيئاً سوى بعض العلامات الموسيقية.

ـ مؤلف موسيقي؟ سأله فرانك ساخراً..

ـ لا. عازف بيانو. وبدا من رده أنه استسلم ورضخ للوضع الجديد.

ـ هل نجرده من سلاحه؟ سأل فرانك رئيسه.

ـ لا سوف أترك له سلاحه، قال الرئيس ملتفتاً إلى الروسي.

ـ من الآن فصاعداً انتبه لتصرفاتك، سوف أسلمك للروس حين يحضرون إلى هنا، فإما أن تحارب أيها الخنزير أو سأرسلك إلى قيادة الجبهة كلص ورئيس عصابة! هذا الكلام ينطبق على الجميع. هل فهمتم؟

أخفض الرجال رؤوسهم. فهمنا، وبدا على بعضهم الارتياح من هذا الانقلاب.

ـ الآن لنمش... والتفت إلى فرانك قائلاً:

ـ سوف تكون مسؤولاً عن إيفان. أي حركة تصدر منه... طلقة في رأسه!

ساروا لمدة طويلة، وفي أثناء سيرهم اقترب أحد رجال إيفان من فرانك، وقال له:

ـ كان ينتعل حذاءً جميلاً. لم يفهم فرانك ما قصده. سأله مرة أخرى:

ـ أي حذاء؟

ـ ذلك الفلاح كان ينتعل حذاءً جميلاً.

بصق فرانك في وجهه. كان عليه رميه بالرصاص. وقرر أنه سوف يفعل ذلك في أول مناسبة.

لقد رغب فرانك في البصق مرة أخرى في هذه القاعة، لكن الوضع لم يكن مناسباً، وذلك لدى سماعه هنا في هذه القاعة من يتبجح بقوله: إن المتوفى كان يتصرف أيام الثورة بحماقة!

ـ 6 ـ

سارت الأمور في حفل توديع الميت حسب المخطط المرسوم، كان عدد المودعين في الدقيقة يقارب الثلاثين، ومعنى ذلك أنه سيمر في هذه القاعة ما يقارب ثلاثين ألف مودع خلال يومين، إضافة لآلالف في الخارج ينتظرون مشاهدة الجنازة. لم يعد فرانك يلاحظ بدقة ما يدور حوله، و بدت له الوجوه متشابهة، وغير حاضرة. لقد ضعفت همته ورغبته في مراقبة الحضور، وإلا لكان انتبه لما حدث من الضجة والأصوات من الخارج، وعرف متأخراً بأن شيئاً ما غير متوقع قد حدث هناك. سمع صراخا متكرراً: اذهب من هنا! نظر فرانك إلى باب الدخول حيث رأى بعض المنظمين يمنعون رجلاً من الدخول. لقد عرف فرانك هذا الرجل من صوته.

كان يلبس ثياباً وسخة، ويرتدي معطفاً قطنياً، قذراً مدهوناً بالإسفلت، وينتعل حذاء أسود، ويداه متفسختا الجلد. دفع الحراس، ودخل إلى القاعة، وقف أمام النعش. راقب فرانك وجوه الحضور، وقرأ فيها الحيرة والدهشة من هذه الحادثة، وسؤالاً كبيراً. من يكون هذا الأزعر؟، كيف يتجرأ أن يقوم بهذا العمل الفوضوي؟ وذلك بالرغم من كونهم لا يكنون للمتوفى أي احترام أو حب، إلا أنهم انزعجوا من هذا التصرف الأرعن، واعتبروه إنقاصاً من قدرهم ومكانتهم.

خرج الرجل السري رئيس هذا العرض الاحتفالي من الغرفة الخلفية، وقف، ونظر إلى حوله، وعيناه تشعان بالغضب، مقطب

الحاجبين، قام أحدهم بوشوشته، فأخذ يدير رأسه بسرعة، لا، اتركوه، بعد قليل سوف يخرج، وتعود الأمور إلى نصابها، لا يمكننا السماح أو المخاطرة بمعركة هنا في الوقت الحاضر!

بقيت عيون الجميع مندهشة من هذا التصرف، ومترقبة إلى أن توضح الأمر، وعرفوا أنهم شهود عيان لمأساة هذا الشاب ذي الثياب الوسخة، والحذاء الملطخ، والوجه الملوث بالإسفلت، وكيف وقف أمام التابوت يعصر قبعته بيديه المرتجفتين، وظهره يهتز من البكاء، وضع رأسه على غطاء التابوت الزجاجي، وبدأ يحرك شفتيه بصوت غير مسموع. بعدها جمع نفسه، وخرج مسرعاً من القاعة.

عندما وقف الشاب أمام التابوت، خرج فرانك من مخبئه، ووجه عدسته نحوه، لكنه لم يكبس الزر. كم هو متفائل! إن مثل هذه الصور ربما كان يغني مجموعته، لكنه لم يستطع أن يصور خوفاً من المخاطرة التي يضع نفسه بها.

خرج فرانك مسرعاً خلفه، ولحق به في ذلك الجو البارد، ووضع يده على كتفه.

مارتين.

كانت الدموع ما تزال في عينيه. التفت إلى فرانك الذي مد له ذراعيه: آه.. يا عمي. وارتمى على صدره، وعانقه وهو يرتجف من البكاء. عندما كان مارتين صغيراً كان يناديه يا أمي! كان يجد صعوبة في لفظ حرف العين، وكان فرانك يضحك من لفظه لهذه الكلمة.

لماذا يتحدث الجميع عن أبي بهذا الشكل السيء؟ عندما كان بصحته وسلطته كانوا يهابونه، ويتملقون له والآن.

إنها سخافات يا مارتين

إنهم فرحون. لقد مات. وتلك العاهرة أيضاً...

أراد فرانك أن يصرخ بوجهه: لكن لماذا؟ لن يستطيع أحد في الكون أن يقنع مارتين بأن سقوط أبيه، وموته لم يكن بسبب تلك المرأة.

بدلاً من ذلك قال له فرانك:

ـ كان عليك أن تحضر معها وبالثياب الرسمية.

ـ أنا؟ ومعها؟ مع تلك الساقطة لابد أنها الآن تتسلى مع صاحبها

ـ اسكت. يجب ألا تتكلم بهذه الصورة يا مارتين!

لم يستطع مارتين السكوت، بل وأردف قائلاً:

ـ عم تتحدث؟ إنك تعرف جيداً تلك الساقطة. لم يعد فرانك يعترض، وما الفائدة من ذلك حتى إذا كانت الآن نائمة مع صديقها، من يلومها على فعلتها؟ هل عليها أن تجلس في بيتها بين النساء المعزيات، وتمثل الحزن الذي هي بالأصل لا تشعر به؟ لكنه مع ذلك مشهد مأساوي: الرجل في التابوت، وهي مع صاحبها في السرير. لقد انتبه إليها فرانك جيداً هذا اليوم، إن اللباس الأسود يناسبها، ويمكن أن يكون منظرها في منتهى الإثارة، وهي تخلع لباسها الأسود قطعة تلو أخرى. كل شيء أسود على جسدها البرونزي. الفرو أسود، والقبعة سوداء، والكفوف سوداء، غطاء الرأس الشفاف أسود، جوارب سوداء، سروال أسود، قميص أسود. وحامله نهود سوداء.

ـ كان عليك يا مارتين أن تبدل ثيابك على الأقل.

ـ لم أستطع. لم أكن أريد الذهاب بتاتاً إلى ذلك المكان. ولا أدري ما حدث لي في اللحظة الأخيرة. لقد ذهبت مباشرة من العمل.

ـ إننا نفرش الطريق الرئيسي بالإسفلت، علينا أن ننهي العمل بسرعة. سوف يمر موكب الحزن من هناك.

تابعوا سيرهم، وكل منهم يفكر بشيء آخر.. مارتين يفكر بتلك العاهرة، وفرانك يفكر بالإسفلت الذي يفرش في طريق الموكب خلال

ثلاثة أيام، في البرد، كم من الوقت يمكن لهذا الإسفلت أن يبقى في الأرض؟ شهراً؟ شهرين؟

ـ لا تنس أن تزورني... تعلم جيداً أين أسكن، وإذا احتجت لشيء فإنني جاهز. قالها فرانك عندما همّ بكسر الجمود في الحديث.

ـ إنني أربح الكثير يا عمي...

ـ لم أكن أعني ذلك.. تعال... الطقس بارد.. دعنا نشرب شيئاً في الحانة.

ـ لا أستطيع يا عمي.. لقد هربت من الشغل للحظة. تعال لزيارتنا... أمي ستكون سعيدة بزيارتك.

ـ هل تسكن معك؟.

ـ طبعاً. أنت لا تعلم يا عمي أنني تزوجت، وننتظر مولوداً، بيتنا مقبول، وهو خلف الجسر، أرجوك أن تأتي لزيارتنا.

سجل فرانك العنوان: طبعاً سوف أزوركم.

ركض مارتين مسرعاً بعد أن ودعه فرانك. لقد أصبح رجلاً ضخماً! عندما كان صغيراً كان فرانك يحدثه عن حكاية البحار بيبكا، كيف استطاع أن يكبر، ويصبح عملاقاً بعد كل وجبة سبانخ، لقد أحب مارتين هذه الحكاية، وكان فرانك بعد كل وجبة سبانخ يتصارع مع مارتين، ويطرحه أرضاً.

لقد راقب فرانك مارتين القوي، عرف أنه لا يستطيع العراك معه الآن.

منذ ستة شهور تقريباً كان فرانك يقود سيارته في أحد الشوارع، عندما شاهد مارتين يحييه ويؤشر له. توقف، وسأل:

ـ هل هناك من خطب يا مارتين؟

ـ أوصلني يا عمي.

صعد مارتين إلى السيارة، بعد ما يقارب المائة متر، سأله مارتين أن يتوقف، وعندما همَّ بالخروج من السيارة، سأله فرانك..

ـ إلى أين تريد الذهاب؟

ـ لا يوجد مكان محدد يا عمي. لقد أردت تجريب الجلوس في سيارة صغيرة مثل سيارتك.

ما هي العلاقة بين عامل الإسفلت هذا وبين ذلك الرجل المتباهي قبل ستة أعوام؟ لا شيء، لقد وجد مارتين طريقه وحده، أما أبوه فإنه أضاع نفسه.

ـ 6 ـ

لم يكن فرانك راغباً في العودة إلى الاحتفال، لن يحدث شيء يستدعي منه المكوث في تلك القاعة الباردة طوال اليوم. لقد صور الأرملة، وكذلك أعضاء إدارة المرحوم، والجنرالات، والشبيبة، والعمال، وحرس الشرف. والعجوز المتباكية التي سوف تمثل الحزن المسرحي سوف يصورها غداً، كما يجب عليه أن يعطي دائرة التحرير صوراً جديدة. جالوفيتش سوف يخطب في اليوم الأخير، فلِمَ العودة الآن للقاعة؟

كانت الأعلام المنصوبة على الأعمدة تخفق بشدة من تأثيرالرياح الباردة، وكانت مصابيح الطرقات مضاءة، ولمح في واجهة المحلات صور المتوفى محاطة بإطار أسود، وكتب تحتها اسم المرحوم، وبعض الشعارات مثل: لقد غاب الابن البار للشعب، لن ينساك الشعب، الطبقة العامة تتأسف..

الشعب المسكين الكادح يعبر مسرعاً، متجهماً، وليس لديه الوقت أو الرغبة للتفكير بالمتوفى، وربما سوف يلاحظون تلك الصور الموجودة في

المخازن المضاءة حتى الصباح كما لاحظها فرانك، ويقولون.. ويسألون أنفسهم:

ـ هل عندنا فائض من الكهرباء؟

الشعب الممتن، والمتعب، والمطيع، يسير مسرعاً في الشوارع، وعيونه تلمع بالدموع إذ لفحتها الرياح. المتوفى يطل بصورته المعروضة في فترينة المخازن على الشعب المسكين، والمدينة المهدمة، والشوارع الوسخة، والمحفرة، ما عدا الشارع الرئيسي الذي قاموا بتزفيته لتمر منه جنازته. وكذلك كميات الزبالة المتجمدة، والمرمية على جانب الرصيف، والتي لا يوجد من يرحّلُها، منظر الثلج الوسخ الأسود الذي يغطي الحدائق من تأثير الدخان الذي تنفثهُ مداخن المعامل، والذي يدخل البيوت والمدارس، والذي يتنفسه هذا الشعب الشاكر من العطاءات الكريمة...، ولحسن الحظ، في هذا اليوم، أبعدت الرياح التي هبت على المدينة الرائحة الوسخة الكبريتية التي تصدر من معامل المواد الكيميائية التي تغطي سماء المدينة بدخان أسود، والتي يطلقونها في الجو ليلاً ونهاراً.

قبل أن تصل إلى المدينة تفاجئك لوحة ترحب بالزوار، ولكن قبل أن يصل إليها الزوار يشمون رائحة الكبريت. ويشاهدون الأوراق المتناثرة من تأثير الرياح الباردة، ومن تأثير السيارات المارة في الطرقات المتجمدة، الحافلات المهترئة الوسخة مليئة بالناس، وعلى الأرصفة تغوص أقدام المارة في الثلوج الوسخة من تأثير الرمل، والملح، والأوساخ الملقاة على الثلج، لقد أعلن الراديو تحسناً في حاله الجو، وإذا صح ذلك فسيكون الوضع أسوأ من خليط الملح، والرمل، والأوساخ، سوف يسبح الناس في الطين الأسود.

أمام حانوت الخضروات وقف طابور طويل. لقد استلموا ليموناً. لقد تعودنا على مثل تلك الطوابير، نقف فيها مثل النعاج، ولا يمكن

للإنسان أن يتصور الحياة هنا بدونها، وحلٌ مثل هذه الأمور لا يتطلب الكثير من العمل... قال فرانك لنفسه.

لقد اختار المتوفى وقتاً غير مناسب لوفاته، أسوأ طقس ممكن! إلا أنه بالطبع لم يشاهد المدينة بهذا الشكل. لقد عاش في فيلا واسعة، تطل عليها، وكان الحاجب ينظف كل يوم الثلج من أمام المنزل، وعلى الرصيف، والدرج الذي كانت السيارة ذات الثمانية سلندرات التي يستعملها، تقف أمامه. لقد كانت مدفأة مسبقاً قبل صعوده إليها، وكانت تقله إلى عمله في مكتبه الباروكي.

متى وسخ حذاءه للمرة الأخيرة؟ متى انزلق للمرة الأخيرة على الرصيف المتجمد؟ في السنوات الأخيرة لم يخطُ خطوة واحدة على قدميه، ما عدا السير في رحلات الصيد التي كانت هوايته، وهروبه وراحته، وإن كان قد نظر إلى المدينة في يوم من الأيام، فقد كان ذلك من نافذة فيلته أو من خلف زجاج سيارته الدافئة، أو من المنصة الرسمية في الاحتفالات السنوية. لم يكن فرانك يحسده، ولا يوجد لديه أي سبب ليحسده، لا ضير إن كان يسكن في فيلا مريحة، لقد كانت حياته المهنية مليئة بالتوتر، وكان دائم التواجد في المكتب، في العمل، وإذا حدث أي شيء كانوا يوقظونه في أي ساعة من الليل، وفي مثل هذا الوقت عادة يكون فرانك نائماً، وغير مضطر للرد على الهاتف، لكن صديقه المسؤول كان محاطاً بالهواتف على طاولته، والتي كان لا يستطيع تجاهل رنينها، ونظراً لسفره الدائم فإنه يحتاج لسيارة مريحة، وسريعة، لقد كان دائم السفر، وعليه أن يكون متواجداً بسرعة في أماكن العمل البعيدة عندما تقتضي الحاجة. وليس خطأ أن يملك حديقة، وعامل حديقة، من الصحيح أن يملك كل شيء، إن مركزه حساس، ويحتاج للكثير من الخدمات لكي يستطيع التركيز وإنجاز المهمات المطلوبة، ولابد أيضاً من العناية بالمظهر الخارجي، فلا يصح

أن يكون مسؤولاً، ومظهره غير لائق، اللباس، والحذاء، ومع ذلك لم يكن فرانك يحسده، وكذلك كانوا قلائل من يحسدونه على عيشته.

أما فيما يتعلق بعمله، فلا يوجد من يحسده عليه. في كل يوم عليه أن ينظر في عشرات القضايا الهامة، والسخيفة أيضاً، وعليه تقرير الخطوات الواجب اتخاذها في بعض الأمور التي يفهمها، وكذلك التي لا يفهمها، لأنه كان مسؤولاً عنها. يبدأ يومه بقراءة البريد الصباحي... إنجاز معمل الصناعات الكيميائية، تأمين منزل لإحدى الممثلات، توزيع السيارات الخاصة لاتحاد الكتاب. لقد ترك لنفسه موضوع توزيع السيارات، والبيوت خارج نطاق الدور...، هكذا كانت طاولته مليئة بالأمور السخيفة، التي كان باستطاعة موظف في قسمه القيام بها. من الطبيعي أن المواطنين كانوا يعودون إليه بالكثير من الطلبات، والشكاوى، لكن هذا العمل أيضاً كان من الممكن أن يقوم به مكتب متخصص لشؤون الشكاوي، إلا أنه كان يريد أن يمر كل شيء من طاولة مكتبه، وأن يقرر كل شيء وحده، وبذلك بدلاً من الالتفات إلى ما هو مهم وإيجاد الحلول للأمور الهامة المتعلقة بالسياسة العامة للدولة، أصبح يعمل في توزيع السيارات والبيوت للمقربين، وتقرير ما إذا كان هذا الطالب أو ذاك يستطيع تكميل دراسته الجامعية، والتعامل مع المشاريع المكلفة من مليون فما فوق. لم يكن يتعامل مع الألوف، كان وحده فقط يقرر أين الحق، وأين الباطل، كان يتدخل في الفنون بأنواعها والتي كان بالأصل لا يفقه بها شيئاً. يجتمع في الصباح مع المزارعين، وبعدها مع الفنانين، ثم مع مصلحة بناء القنوات المائية.... في أحد الأيام بدأ يصرخ من تعطل النقل في السكك الحديدية، وقرر أخذ الموضوع على عاتقه، لكنه لم يجد حلاً.

من الطبيعي أن التقصير في كل شيء كان يقع فوق رؤوس الآخرين، وبذلك بدأت تنمو في مخيلته فكرة مرعبة. إن الناس هنا بدون عقول،

ويحتاجون دائماً لمن يشدهم بيده إلى العمل، ومن يراقبهم، ويعاقبهم، وهذا الشعب لا يمكن الوثوق به، إنه يخرب عمداً كل شيء، الجميع يحسدونه، ويقفون عقبة في طريقه. وفي الأيام الأخيرة فقد ثقته بالجميع. إنهم يخونونه ويتركونه ويغشونه، لم يعد يستطيع الاعتماد على أحد.

لقد تملكه شعور كبير بالغضب عندما علم بأن معمل الإسمنت الذي دشنه باحتفال رسمي قبل ثلاث سنوات قد بني في منطقة قليلة الكلس، وأن المخزون سوف ينفد بعد مدة بسيطة. ذهب إلى المعمل وأمر بسجن مخططي المشروع، ومهندسي البناء الذين لا علاقة لهم بالتخطيط، وحوكموا بتهمة التخريب المتعمد.

هل نسي؟ نسي، أنه في ذلك الوقت لم يأخذ بالنصيحة، وهو بنفسه قرر المكان الذي سوف ينفذ فيه المعمل؟ نسي، كيف أن مندوبي المنطقة من مهندسين ومسؤولين حضروا لتنبيهه بأن مداخن هذا المعمل سوف تكون باتجاه الريح، وبأنه سوف يلوث خلال مدة بسيطة أجمل منطقة في المحافظة، ويغمرها بالغبار الأبيض، وأحضروا معهم مخططاً بديلاً مدروساً على أساس المعطيات البيئية المحلية. لقد اقترحوا تنفيذ المعمل في الطرف الثاني من الوادي بالقرب من الجبل الكلسي، بذلك يوفرون الملايين. والمدينة... مدينته تبقى لؤلؤة المنطقة. لقد نسي كل هذه النصائح؟ ونسي أيضاً رده القاطع على تلك النصائح ولكن فرانك لم ينس، وقد كان شاهداً.

ـ تريدون مني أن أعطل مشروع التنمية من أجل بعض الفلاحين المتضررين؟

انتهى اللقاء. أدار ظهره لهم، وخرجوا غاضبين، وخائفين.

اليوم ينقلون الكلس من مسافة عدة كيلومترات بواسطة الناقلات الهوائية من المنجم الذي فتح في المنطقة التي أشار إليها أهل المنطقة.

المدينة مغطاة بطبقة بيضاء من الغبار الإسمنتي، إذا سار الإنسان في المدينة لمدة بسيطة، ومسح بيده جبينه فسوف يلاحظ الخطوط التي تتركها أصابعه على جبينه.

اليوم تراه مسجى في هذه القاعة، واثنان من مندوبي المدينة الذين أدار لهم ظهره في ذلك الوقت يقفون بين مجموعة حرس الشرف. لابد وأنه في وقت ما، عرف أنه بسحبة قلم بسيطة قد سبب للمدينة مأساة بدلاً من السعادة، لكنه كان دائماً يجد سبب الفشل في الآخرين، هؤلاء الذين يضعون العراقيل في طريقه، ويسببون الإخفاقات التي تحدث! لقد أرادوا سقوطه من خلال توريطه بمشاريع فاشلة، وكانوا يقدمون له معلومات خاطئة، ويجعلونه يوقع عليها. في النهاية أصبح يخاف اتخاذ أي قرار، وبالمقابل نشط في تجميع وتركيز سلطته، ووضع في يده كل السلطات الممكنة، ولم يكن هدفه من ذلك أن يحكم، فقد تخلى عن هذا الموضوع منذ مدة، ولكن لرغبته في البقاء، ولمزيد من شعوره بالأهمية.

غير أنه مع ذلك كان خائفاً، لقد كان خائفاً من شخص، وهذا الشخص لم يكن ممكناً الوصول إليه بسهولة، لقد كان قوياً مثله، وربما أقوى منه. لقد كان يخاف من جالوفيتش. وهو محق في خوفه، ومحق في تفكيره بأن جالوفيتش طوال الوقت يتحين الفرصة المناسبة ليكتم أنفاسه، ويدق عنقه.

فرانك الذي واكبه في صعوده، وهبوطه كان يتوقع كل ما حصل له لاحقاً.

ألم يكن من واجبه أن يقول له كل شيء؟

لقد تأخر الوقت. في الفترة الأخيرة كان فرانك يشعر بالأسى على صديقه.

- 7 -

خرج الدبلوماسي من حفلة الكوكتيل التي أقامها المتوفى على شرفه غاضباً من الإهانة التي لحقت به من جراء التصرف غير اللائق الذي ارتكبه ذلك المتوفى، حين فقد السيطرة على لسانه بعد تناوله كمية كبيرة من الكحول، وفقد بذلك دبلوماسيته، ولباقته التي لم يكن أصلاً يتمتع بها، وهذا شيء معروف عنه حتى في الحالات العادية.

كان خروج الدبلوماسي مع مرافقيه من الحفلة احتجاجياً، تظاهرياً، ولم يكن فرانك يتصور الطريقة التي ستحل فيها هذه المشكلة في المستقبل، والتي كان يترتب على المتوفى أن يجد لها مخرجاً مناسباً، سواء بالاعتذار الخطي، أو بالطرق الدبلوماسية، لقد تمنى فرانك أن يراه مرة واحدة في دور الإنسان المخطئ، والمعترف بالخطأ. إنه، ومنذ القديم لم يخطئ، ولم يعترف بأنه أخطأ، ولو لمرة واحدة! كان المدرس يضربه، و كانت أمه تضربه في المنزل، ولكن فرانك لم يره مرة واحدة يتوجع أو يبكي، ولم يره يعتذر في حياته لأحد، حتى لو عرف أنه على خطأ! على هذا الشكل انتهت الحفلة، وصور فرانك ما عليه تصويره، وعلى عادته في مثل تلك المناسبات يدور حول مطبخ المطعم بين النادلين، والحجاب، والسائقين، ويعرف إنه سيجد هناك دائما بقايا من الكونياك، حتى لو كانت طاولات الاحتفال فارغة.

فجأة وبدون توقع ظهر هناك صديقه، الذي بدت على وجهه علامات الإرهاق، والتعب والغضب أيضاً، وطلب من الموجودين مع فرانك قليلاً من الكونياك، وبادرهم بالكلام:

ـ كان نهاركم صعباً يا رفاق، ولولا جهودكم لما نجح هذا الحفل، سأشرب بصحتكم. لمح فرانك واقفاً في الزاوية، وبيده القدح. غمرت فرانك فرحة كبيرة من رؤيته.

ـ أيها السافل: قال له مبتسماً، تعرف كيف تدبر رأسك.

وأحس بأنه قد خرج في كلامه عن اللباقة الوظيفية أمام الخدم، فغيّرَ أسلوب كلامه وأردف:

ـ أنتم المصورون تُسبّبون لنا المشاكل.

حنى فرانك رأسه معبراً عن تواضعه، وبراءته من التُّهمة الموجهة إليه، ولم يفهم ما قصده من هذه العبارة، ولكن هذه العبارة مع ذلك لم تعجبه، واللهجة التي استعملها لم يكن يتوقعها منه، وإن كان قد تعود عليها، ويعرف أنها لغة المسؤولين في الحديث، حيث إنهم يضعون الناس في مجموعات، أنتم... نحن...، فرانك يعرف جيداً من الذي يفتعل المشاكل، ومهما كان الأمر، فليست هذه الطريقة جديرة بمخاطبة صديق قديم. لقد عبر فرانك عن استيائه بنظراته الغاضبة المعروفة جيداً من صديقه المسؤول.

رد المسؤول قدح الكونياك دفعة واحدة في فمه بعد أن أخذه من يد النادل، تماماً كما كان يفعل في شبابه عندما كان يتبارى مع فرانك في الشراب، وفي التحمل.

اقترب من فرانك، وأمسكه من ذراعه، وهمس في أذنه:

ـ لم أكن أقصدك بهذا الكلام.

ـ ألا تعتبرني مصوراً؟ رد عليه فرانك ساخراً منه بطريقة مكشوفة.

ـ إنك شيء آخر، لقد قصدت بكلامي أولئك... هؤلاء، وأشار إلى الآخرين، وأحس بأنه وبتصرفاته تلك قد نزل بمستواه أمام السائقين، والخدم، لكنه ذهب بخياله بعيداً بتأثير الكحول، ولابد وأنه تذكر حوادث قديمة فأمسك بذراع فرانك، وشده إليه متابعاً حديثه.

ـ تعال، أنت لم تزرني منذ مدة طويلة، ولا تعرف حتى كيف أسكن.

فهم فرانك معنى ذلك التصرف الحميمي المفاجئ. إنه يريد أن يشرب، ولا يجد من يشرب معه، ولديه رغبة كبيرة في السكر، لم يشاهده ساقطاً إلى هذا الحد من قبل! لا يجد من يشرب معه، وفرانك يبقى الإنسان الوحيد الذي يذكره بأمجاده، يذكره بالأوقات التي كانا يجلسان فيها حول زجاجة الفودكا، وكانا آنذاك في قمة السعادة، ولكن تلك الأوقات قد ولت، ولن تعود أبداً. لقد كان فرانك يحب الشرب أيضاً، وعلى عكسه كان لايزال يستطيع اختيار مع من يشرب، وأين يشرب. تهرب فرانك من دعوته قائلاً:

ـ لقد تأخر الوقت، أتشوق للنوم، ولدي واجبات في الصباح.

ـ واجبات... صرخ بوجهه مستاءً من اعتذاره. وكانت صرخته تعبيراً عما يشعر به نحو هذا الصديق القديم: أنت أيها المصور القمئ تتجاسر وتعارضني.

ـ لم أكن أقصد واجباتي. بل واجباتك أنت. واجباتي لا شيء بالنسبة لواجباتك. إذ أنت رجل مسؤول.

ضحك النادل الذي وقف خلف فرانك بصوت مرتفع من حديث فرانك. ونادراً ما يحدث أن يسخر مصور عادي من رجل دولة.

لقد أراد أن ينفجر، ويصرخ بملء صوته، وكان وجهه يدل على ذلك، لكنه ضبط أعصابه، ونجح في ضبطها، وحدق في النادل، وكأنه يقول له: لن تخدم في هذا المكان ثانية أيها الغبي.

أخيراً تظاهر بالهدوء، ودعا فرانك للمرة الثانية للذهاب إلى منزله بكل لطف قائلاً بصوت منخفض:

ـ عندي هناك كونياك أفضل. سنجلس، ونتذكر الماضي، إنني بحاجة لذلك.

ـ بحاجة لذلك؟

حتماً هو يحتاج. لقد أصبح خبيراً بإعطاء الأوامر، وعلى الجميع التنفيذ، وكما في السابق؟ هل يعتقد أنه يستطيع الجلوس الآن مع فرانك كما كان يجلس في السابق؟

أراد فرانك أن يصر على رفضه، إلا أن الدخول المفاجئ للشقراء منعه من ذلك.

ـ توقعت أن أجدك هنا.

لم يسبب لها أي حرج وجود السائقين، والنادلين. وبعدها لاحظت وجود فرانك.

حنى لها رأسه بادئاً بالتحية!

ـ لم نرك منذ مدة طويلة. قالت له مبتسمة.

ـ لقد رأيتكم منذ ربع ساعة. أجابها فرانك.

ـ لم أقصد هذا. أعرف أننا لمحنا بعضنا منذ ربع ساعة. وهنا تدخل الرجل الكبير.

ـ إنه يتهرب منا.

ـ طبعاً يتهرب. لسنا من مستواه النبيل. عقبت عليه.

ـ اسكتي.. صرخ بها... شعر فرانك بالحرج. إنهما سيتجادلان هنا أيضاً؟

ـ لقد دعاني لشرب الكونياك. قال لها فرانك.

ـ حقاً؟ وابتسمت، وكانت ابتسامتها ساخرة.

ـ حتى أنت أصبحت نافعاً له في هذه الأيام.

ـ حسناً لنذهب. سأنضم إليكما.

خرجوا. كانت القاعة فارغة، والطاولات مليئةً ببقايا الأكل، والصحون طافحة بأعقاب السجائر، وأقداح الخمر الفارغة في كل مكان.

جلسوا في المقعد الخلفي للسيارة، وانتعش فرانك وهو جالس بقربها من رائحة عطرها وأنفاسها، وسحرته، وهيجته بالدفء الذي يشع منها، إن السنين الطويلة لم تنقص من فتنتها، وجمالها. بل على العكس.

هل حصلت على رغبتها؟ هل هذا بالضبط ما أرادته؟ ألم تتصور حياتها بشكل مختلف؟

فرانك يعرف أنهما كانا يعيشان معاً أمام الناس فقط، وهذا أمر لا يمكن إخفاؤه، ولقد حيكت حولهما أقاويل بطول كيلومترات.

جلسوا صامتين، يحدوهم شعور مشترك بتفاهة هذه الدعوة، وتوقيتها السيء. إن فرانك يحب الشراب أحياناً، ولكن الجلوس، وشرب الكونياك الجيد له طقوسه، ويتطلب أصدقاء متفاهمين، وحديثاً دافئاً، وإن لم يتوفر هذا الشرط فإن الجلسة تغدو مملة، وكئيبة!

شعر فرانك بغربته بينهما. لم تكن تلك الشقراء تستهويه في البداية، ولكنها لعوب، ولكن يا صاحبتي (قال فرانك لنفسه)، لقد عرفت الكثيرات من أمثالك، من ذوي الطموحات الكبيرة، وإحداهن، انحنى ظهرها وضمرت، وتعمل الآن في غسل أدراج أحد الفنادق الوسخة من الدرجة الثالثة. لكن تلك الإنسانة تملك شيئاً ما، وعاشت حياتها كما رغبت بطولها وعرضها، ولم تكن في يوم من الأيام نادمة على ما فعلته في الماضي، بل اقتنعت بما انتهت إليه.

كيف سيبدو ماضيك ياسيدة المجتمع الأولى بعد مدّة؟ أن تكوني السيدة الأولى، لا يعني أن تكوني بالضرورة سيّدة، وبذلك لا أريد أن أقلل من أهميتك، ماذا سيبقى لك من الماضي، عندما تضطرين مستقبلاً للعمل، وربما لغسل الأدراج، وهذا أمر غير مستبعد!

لقد راقبتك طوال الحفلة، وعرفت من نظراتك مدى الضجر الذي كنت تعانينه، كنت تجلسين في صدر الطاولة، تراقبين النساء

البدينات، زوجات النخبة، وهن يأكلن الحلويات التي وللحمد لله لاتستطيعين أكلها. لقد لاحظت كيف ابتعدت وتهربت من إحداهن حين اقتربت منك، وكانت ترتدي البروكات، والتي تظن أنه قمة الموضة، وكيف شممت رائحة عرقها، هل يعني كونك المرأة الأولى أن تتصرفي بهذا التعالي الواضح؟ على الأقل إن تلك النسوة لا يحتجن إخفاء أي شيء. يجلسن حول الطاولة، ويطلبن صحناً كبيراً من الحلويات مع الكريما، ويثرثرن عن كل شعرة في جسمك، إنهن في بيوتهن الفخمة، وأنت تتجاهلينهنّ بدون فائدة، لكن تفكيرهن بكِ أكثر واقعية من تجاهلك لهن. إنك تحشرين نفسك بينهن، ولست من طينتهن.

هل كان هدفك الأساسي الوصول إلى الصالونات الكريستالية اللامعة التي تعيشين فيها الآن، وحضور الحفلات الأسبوعية في بيوتهن، أو مناسبات أخرى في قصرك أو في أحد الفنادق الضخمة، حيث عليك أن تصنعي الابتسامة في وجوه الرجال المملين، ومصافحتهم، والتحدث إلى نسائهم المملات عن الطقس، والموضة؟ عليك أن تمثلي، وتتصنعي كراهية رجال آخرين. كل ابتسامة تبدر عنك، عليها أن تكون مدروسة، ومن ضمن البروتوكول. تذهبين إلى المسرح في الافتتاحية الاحتفالية، بينما يكون عشيقك يلعب في مسرح آخر، الدور الرئيسي في مسرحية أورفيا. لا يمكنك الذهاب حيث تشائين، بل عليك الذهاب حيث يشاء. ممنوع عليك أكل ما تشتهين، محظور عليك أن تعشقي من تريدين، ممنوعٌ عليك مضاجعة من تحبين، هنالك من يراقب كل تحركاتك. أليست هذه هي الحياة التي كنت تواقة لمعيشتها، والتي كنت تظنين أنها حياة رائعة، ومليئة بالسعادة والمفاجآت؟.

يقال إن عشاقك يدخلون إلى فيلتك في المساء من الباب الخلفي، واحد، اثنان، وربما ثلاثة، ويدخلون معاً أحياناً، إن شبقك لا حدود

له! إنني أعرف بأن الفيلا محروسة من عنصرين تابعين للأمن السري. هناك حارس، وخادم، وعامل حديقة، وجميعهم من المصدر نفسه، فمن يمتلك الشجاعة لدخول بيت الرجل الأول في البلاد، وفي هذه الظروف.، ومن الباب الخلفي، والذي هو بالأصل غير موجود؟

إضافة لذلك مضاجعة زوجته؟ كيف يمكنك المخاطرة، واستقبال الرجال في وقت متأخر من الليل؟ أعرف أن تمنعك عن القيام بمثل هذه الأمور ليس بسببه، ولكن من خوفك، وبالذات خوفك من جالوفيتش، أظن أن ذلك أمراً لا تستطيعين مناقشته وهو واضح، وأن هذه الخيالات التي تحيط بك هي من صنع جالوفيتش، ومهمتها حراستك شخصياً إضافة لحراسة الأخلاق العامة.

إن كل زائر عليه أن يسجل اسمه، وزمن دخوله، وخروجه من الفيلا. إنَّ مجرد التفكير بالمضاجعة، والحب تحت مراقبة السلطة وحراستها يقزز النفس، ويقتل الرغبة الجنسية، وأنت.... ألا تشاركينني هذا الرأي؟

لابد أن ذاكرتك تحتفظ ببعض الذكريات التي لا يمكنك نسيانها، كمضاجعة، غرام في الغابة على العشب، وحين يلمس يدك شابٌ جميلٌ، وتخافين منه، لكنك لا تستطيعين المقاومة، مجرد ذكريات، لقد كنت حرة في التصرف بعواطفك فيما مضى، أما الآن وفي هذه الحياة التي تعيشينها، فلم تعودي حرّةً. عليك الالتزام بمفردات كلاميّةٍ لا تناسبك من نوع: لا أستطيع، وعلي، وعندي.

فرانك مغرم بالتجوال في شوارع المدينة الضيقة القديمة، وبخاصة في الليل، وغالباً ما كان يشاهد سيارتها متوقفة في شوارع فرعيّة لا تثير الشك، ويشاهدها في شوارع مختلفة أيضاً.

لابد وأنك تسمعين هناك ما تحبين سماعه، وما تريدين سماعه.. آه.. ما أجملك! ما أروعك! لكن هذا الكلام الجميل لا تسمعينه في

الصباح، لأنك لا تستطيعين البقاء حتى الصباح، يجب عليك العودة في وقت انتهاء الحفلة الموسيقية، وعليك أن تقولي: حان وقت العودة للبيت، وقت عشقك محدد من الساعة السابعة والنصف حتى التاسعة والنصف، دائماً في يوم الخميس.

وهو؟ هل كان بمقدوره في يوم من الأيام أن يختار عشيقاته؟ طبعاً لا، لأنه لا يستطيع التخفي، ولا يملك مثل إمكانياتك وحججك، ولا يستطيع القول بأنه ذاهب للمسرح، ثم يذهب ليلتقي عشيقةً، إنه لا يملك الشّجاعة، ولا يملك المخيلة أيضاً. إنه خبير بتبديل السكرتيرات فقط. لقد كنت أول مجموعته. إنه يضغط زر الجرس في مكتبه، ويطلب من السكرتيرة إحضار دفترها، ثم يشعل الضوء الأحمر في أعلى الباب، وللمزيد من الحذر فإنه يوصده، هذه هي إمكانياته، وهو مكتفٍ بذلك. لكن يا صديقتي: هذه ليست حياة، حياة رجل طبيعي. إنه يعلم أن العيون المرئية وغير المرئية تراقب كل تحركاته، وأن أربعة حراس يراقبون كل حركة يقوم بها، عندما يذهب إلى التواليت يقف أحدهم بجانب الباب. وحين يغازل سكرتيرته الجديدة على الديوان الباروكي، لابد وأنه يسأل نفسه السؤال نفسه الذي طرحته عليه في حينه عندما أحضروك لخدمته في المرة الأولى.

ـ من أين أتت، ألم يرسلها لي جالوفيتش؟ أليست هذه السمراء مخبرة في وكالة أجنبيّة، أرسلوها لتحصل مني على معلومات حكومية؟ أليست ماتا هاري (1) جديدة؟

هل هذه حياة؟ طبيعة، وغير أن تكون مقيداً، وأنت في أوج سلطتك؟

لقد طلق زوجته من أجلك. وكان من الممكن أن يفقد حينذاك مركزهُ، وسلطته، لكنه لم يكن في حينها في أعلى المراكز، كان باستطاعته أن يغامر في ذلك الوقت، أما الآن فقد اختلف الأمر، إنكم في شراكة أبديّة، ولا يستطيع أن يعيد الكرّة. المسؤولون لا يسمح لهم بالطلاق من

زوجاتهم، وإذا أراد الطلاق فعليه التخلي عن مركزه، لكنه لا يملك الشجاعة الكافية للقيام بمثل هذه الخطوة، وإذا قام بها، فكيف سيدبر بقية حياته، ماذا سيعمل؟ ولمَ عليه أن يقوم بمثل هذه الحماقة؟ من أجل امرأة؟ امرأة أخرى؟ لقد فعلها مرة وانتهى، وكان ذلك من أجلك، تعرفين النتيجة، وهو يعرفها أيضاً.

أحد الملوك الإنكليز تخلى عن العرش من أجل امرأة، هكذا يقولون. إنه لا يستطيع التخلي، وترك مركزه، وإذا فعل فسوف يقفز أعداؤه على رقبته. لن يخرج من المركز الذي يشغله إلا مطروداً أو مصاباً باحتشاءٍ أو ميتاً.

يتذكر فرانك تلك الأمسية بالكامل، حين عادوا بالسيارة للفيلا، عندما دعوه إلى شرب الكونياك. ويمكنه تكرار أفكاره كلمة بكلمةٍ، وهذا المتوفى في هذه القاعة أعاد له تلك الأفكار....

لقد توقفت السيارة أمام الفيلا التي لم يكن فرانك قد زارها من قبل، وسطع النور في تلك اللحظة في المدخل، والمعبر، والحديقة، وعلى الدرج، ووقف على الباب رجلٌ في ثيابه المدنيَّة، وأدى التحية عند مرورهم بجانبه. وبالرغم من أن فرانك لم يقم بزيارة هذه الفيلا من قبل، لكنه يعلم قصتها.

لقد قام ببنائها أحد الميسورين في التلة المشرفة على المدينة والنهر، ورويت في حينها الأساطير عن الأثاث الذي كان بداخلها. وبعد الحرب استعملت كحضانة للأطفال، والله وحده يعلم لماذا أراد أن يسكن فيها، لقد حسده جميع الجوار على هذه الإقامة الفخمة. ربما لم يكن ذلك القرار من بنات أفكاره، وربما وضعوه أمام أمر واقع ليسكن فيها. لقد حرم الأطفال من هذه الفيلا، وعادة فإن الناس يخففون من أهمية مثل هذه الأمور. ولكن مهما كان السبب في تبديل بيت الأطفال بمنزل لإقامة المسؤول ـ إن كان ذلك قد حدث برغبته أم برغبة إنسان غيره ـ فقد

كان عليه أن يرفض هذه الفكرة، لقد كانت المنطقة مليئة بالفيلات الجميلة، وكان من الممكن اختيار غيرها، ونقل الساكنين منها لأسباب تمليها المصلحة العليا. لم يكن ضرورياً نقل بيت الأطفال من هذه الفيلا!

أدار فرانك نظره في القاعة الكبيرة التي أدخلوه فيها، كان الجدار مغطى بمكتبة مليئة بالكتب من السقف حتى الأرض، وبحث فرانك عن السلم اللازم للوصول إلى القسم العلوي منها... لم يكن موجوداً. كانت هناك طاولة كبيرة مستديرة الشكل تملأ زاوية القاعة، وبجانبها مجموعة مقاعد وثيرة من الجلد، وبار صغير في الزاوية الثانية من الصالة، كان الحطب مشتعلاً في المدفأة الجدارية، كست أرض الصالة سجادة واحدة كبيرة، أحد الجدران كان من الزجاج والجدار الآخر ملي، باللوحات، وفوق الكنبة الجلديّة الوثيرة علقت لوحة للشقراء، نظر فرانك إليها بفضول، ومن الأسلوب الذي رسمت به استطاع تخمين الفنان الذي قام برسمها. كانت لوحة رائعة بحق، فرانك يعرف الفنان جيداً، ويستطيع تخمين الزمن الذي قضته الشقراء واقفة أمامه لتنفيذ هذه اللوحة.

جلس فرانك في أحد هذه المقاعد وشعر أنه غرق فيها، بينما وضعت الشقراء على الطاولة زجاجة الكونياك، والأقداح الكريستاليّة، جلست أمامه، وأحس فرانك بنظرتها مسلطة نحوه، كما شعر بنظراتها الرجل الكبير.

ـ ظننت أنك تَعْبى بدأ الرجل الكبير حديثه مخاطباً الشقراء أغمضت عينيها بعدم اكتراث.

ـ لقد ولى تعبي، وأرغب في كأس كونياك.

أراد التخلص منها. صبت الأقداح، وشرب الرجل الكبير كأسه دفعة واحدة، صبت له في المرة الثانية قدحاً مزدوجاً.

كان مزاج الجميع يدل على الكآبة، لم يكن هناك ما يتحدثون به، وشعر فرانك بأسفهم لدعوته إلى الشراب. لقد ضجر فرانك من الصمت الذي خيم على الجلسة، فانتصب وسار إلى المكتبة، وبدأ يقرأ عناوين الكتب.

ـ هذه مكتبة زوجي، ومكتبتي في مكان آخر. قالت وهي جالسة حول الطاولة، وفهم منها فرانك ماذا تقصد. كانت هذه الكتب ميتة، وضعت الكتب فيها مصفوفة كما أحضروها له من دار النشر، إنها عادة تنتقي من الطرد المرسل الكتب الجميلة التي تهمها، وتضع الباقي في هذه المكتبة. إنها ليست مكتبة على كل حال، بل مقبرة للكتب. إنها كتب ميتة، ولم تمتد، ولن تمتد يد لقراءتها.

أكثر ما لفت انتباهه وصعقه كانت اللوحات التذكارية، وإحداها تصور الرجل الكبير وهو يحمل طفلاً على المنصة، وأخرى تصوره بين مجموعة من عمال الأخشاب في الغابة، وثالثة بين المحاربين، ويده تؤشر إلى الأمام باتجاه الأعداء، وصورة يقف فيها خلف المدفع. إن جميع هذه اللوحات قد رسمت على أساس صور فرانك الفوتوغرافية. لقد حاول الرسام أن يكون أميناً في رسمه لتلك الصور، ما عدا الصورة التي تظهره مع المحاربين، إن صورة المرأة هناك لم تكن صورة صادقة عن يوديتا التي يعرفها جيداً.

عندما عاد فرانك إلى الطاولة تجنب مضيفه النظر إليه، ورفع كأسه المزدوج بعصبية واضحة ورشفه دفعة واحدة، رقصت عينا الشقراء تسلية بمنظره وكانت العيون تتكلم. بادر رجل المنزل وكسر الصمت قائلاً:

ـ إنه رسام ماهر... واقعي، ولا يرسم الأذن على الركبة كما يفعل غيره.

لماذا هذا الحديث، لماذا هذه العصبيّة؟ فهم فرانك السبب بسهولة.

لقد قيل الكثير عن هذه الصور، وللحظة أراد وضع نقطة من السم على هذا الجو المسائي.

ـ واقعي؟ وهل هذا رسمٌ واقعيٌّ؟ يدك الممدودة التي رسمها تبدو قصيرة، وفي صورة أخرى يظهرك، وكأنك أحول. ضحكت العينان الزرقاوان من هذا الكلام الساخر الذي عبر فرانك به عن رأيه باللوحات. هكذا إذاً وصل بك الأمر! الضحك والفرح عندما يسخر أحد من زوجك؟، لكن صديقه لم يلاحظ تلك الضّحكة السّاخرة التي ارتسمت في عيني الشقراء.

ـ أليست كذلك... يد قصيرة؟ لم ينتبه أبدا لهذا الخطأ التعبيري، وكذلك للحول في العين؟

ـ هؤلاء الرّسّامون شياطين!

فرانك يعرف جيداً هذا الرسام، ويعرف كيف ولدت هذه الفكرة. فقد جاء إليه في أحد الأيام راغباً في إحياء ذكرى العمل الثوري برسومه، وكان يبحث عن مواد ليقوم برسمها، وتعتبر الصور التي صورها فرانك أفضل وحي وإلهام لفكرته. كان راغباً في تجسيد الثّورة. لقد كانت الصور مصدراً كافياً وغنياً للقيام بمثل ذلك العمل. بعد عدة شهور أحضر الرسوم، ولم يطلب شيئاً مقابل عمله... ثمن الإطار فقط.

في أحد الأيام، وعندما كان ذلك الرسام ثملاً، وكان قد حصل على لقب فنان الشعب، بدأ يتبجح في نادي الفنانين، بأنه حصل على هذا اللقب بتعبه، وليس بمناسبة يوبيل الولادة كما حصل عليه بعضهم.

جلس فرانك مقابل رسم الشقراء، وشعر بأن هذا الرسم قد أثاره بشكل ما، وكانت الشقراء أمامه، وربما كان رسمها سبباً في شعور باطني لدى فرانك باحترامها وللمرة الأولى، ولتكن ما تريد أن تكون، إنها هنا شخصية هامة، إنها الشّخصيّة الوحيدة، أما هو فلا شيء. لقد

استطاع الفنان أن يحس بأشياء لم تكن موجودة في وجهها حين تنظر إليها. لقد بذل جهداً عظيماً، ووقتاً طويلاً في رسمها.

ـ طلب عشرين ألفاً على هذه الصُّورة. قطع صوته سلسلة أفكار فرانك

وقفت الشقراء، واعتذرت. سوف أبدل ثيابي.

أخيراً وحدهما، رشف المضيف كأسه، وملأه مرة ثانية.

ـ تخلق لي المشاكل عندما أشرب. شرح ذلك صديقه بدون فائدة، ولكن فرانك لا يتعجب من تصرفها إزاء الشرب بهذا الشكل. فرانك يعرف نهاية هذه السُّكرة. ويعرف ما حصل ليوديتا، إما أن يغيب صاحبه عن وعيه أو يتوحش، ويصبح هجومياً بعد الشراب.

ألقى فرانك نظرة أخرى على لوحة الشقراء... لقد ظنت بأنها ربحت في ذلك الوقت.

لكنها لم تربح، وصديقه كذلك لم يربح، أو على الأكثر لم يفهم ماذا ربح، ولم يعرف ما لديه. إنه لا يستطيع أن يدبر أموره معها، كان يكفيه في البداية أنها له، ملكه. وعندما حصل عليها بدأ يهملها، ولم يَعِ أن عدم الاكتراث بمثل تلك المرأة سوف يكلفه غالياً. هناك بعضهن ممن يكتفين بكونهنَّ زوجات لمسؤولين، يصبحن قطعة ديكور في المنزل، ويكتفين بما حصلن عليه، لكن هذه الشقراء مختلفة، وليست من هذا النوع!

لقد أرادته بكامله، ولم تكن لترضى باقتسامه مع أحد. السلطة؟ العز؟ المركز؟ الإمكانيات غير المحدودة؟

نعم، ولكنها أرادته بكامله لها بدون مشاركة أحد، وهذا شيء مستحيل، لقد كانت حالةً. لقد ترك في نفسها اللوعة والأسى عندما عاد مرهقاً من رحلة عمل شاقّة في المساء، كانت في انتظاره. كان عليه دائماً أن يبتسم لها، يلاطفها، ويداعبها وينتهيان في السرير.

عادت إلى الصالون في ثياب عادية بدون حلي. إنها تعرف السبب... لقد ملأ حضورها القاعة، شعر بها الرجل الكبير ونظر إليها، ولكن برودتها أزعجته.

ـ حسناً إن كنت على هذا الشكل.. وبلع كأس الكونياك، وصب آخر.

ـ لا تشرب. قالت وقبضت على يده. تعرف ماذا قال لك الحكيم... الساقطة.. تعرف كيف تتعامل معه. إنه سوف يشرب الآن أكثر، إنها تريده أن يسكر. الحكيم؟ تتكلمين عن الحكيم وبصحبتنا ضيف؟ ضيف يعرف مقدار تحمله للشراب، ويعرف أنه رجل لايهزم!

أخرج زجاجة أخرى من الكحول المصنوع من الخوخ وفتحها.

رفعت كفيها تعبيراً عن هزيمتها أمامه، وبأنها قامت بواجبها عندما أنبته، ولن تتحمل المسؤولية، ولا تستطيع أن تفعل أكثر من ذلك.

لقد شاهده فرانك يشرب زجاجتين من الكورجالكا، ولكن هذا الشرب الذي يشاهده الآن لا يتحمله إنسان. تجمد فكه، وبدأ كلامه يتعثر، وتورمت عيناه، وسقط في نصف غيبوبة، كما أنه لم يعد يشعر أو ينتبه لأحد من حوله، أراد أن يمسك بالكأس، لكن يده لم تسعفه، مدها إلى الفراغ بجانب الكأس. لقد شرب فرانك أيضاً ما فيه الكفاية، وتحرك في مقعده واضعاً راحتي يديه على ركبتيه، معبراً عن رغبته بالمغادرة، لكنها أعادته بيدها إلى مكانه قائلة:

ـ قدح آخر... لقد أحببته. اسكب لي أرجوك.

ـ ولكن الأخير رد عليها

هزت رأسها موافقة. سكب لها، وأشارت إلى الكأس الفارغة أمام زوجها السكران. وله أيضاً؟ سألها فرانك بعينيه.

ـ وله أيضاً ردت عليه مغلقة جفونها برقة. وقبضت على يده ليملأ له الكأس. ثم حملت الكأس ووضعه في يد زوجها الغائب عن وعيه من شدة السكر، ولكزته ليصحو قائلة:

ـ نشرب نخبك. وضحكت هذه المرّة بوقاحة ظاهرة.

شربه دفعة واحدة مصدراً بعض الأصوات المبهمة، التي لم يفهمها أحد، بدأ فكه يرتجف، أراد الوقوف، ولكنه سقط على الأرض، ساعداه بالوقوف، ثم قادته في اللحظة الأخيرة إلى المرحاض. سمعه فرانك يتقيأ. تركته هناك وعادت، بابتسامة ساخرة.

ـ إنه لا يتحمل الشرب، كل مرة ينتهي بهذا الشكل. اعتذرت من فرانك:

ـ لن أتأخر سوف أنظفه، وأضعه في السرير

زوجة وديعة، مهذّبة. لقد أهانته، انتقصت من قدره أمام صديقه القديم، الذي عرفه كإنسان آخر. لقد أرادت كل هذا. سألها فرانك:

ـ هل تريدين مساعدة؟

ـ لا... لا.. لقد تعودت. ليست المرة الأولى.

ـ إذن سوف أغادر. انتصب واقفاً.

ـ آه... لا.. لا تذهب. إنني أعتذر. لقد فشلت السّهرة.. ولكني لن أغفو الآن. قدح آخر. لم يتأخر الوقت بعد. وأنت كما أعرف عنك تحب السهر لا تقل شيئاً... سوف أضعه في السرير، وأعود الكونياك ممتاز، ومازال منه الكثير في الزُّجاجة.

لم تقل شيئاً مما بدأ يفكر به فرانك، ولكنه فهم ذلك من حركة واحدة منها.

هكذا إذاً؟ عبرت في ذهن فرانك فكرة كحولية ضبابيّة.

لا تفقد عقلك يا رجل، اذهب. هنا ليس مكانك. وليس لك شيء تبحث عنه في هذا المنزل، لكنه لم يذهب. جلس، لقد أغوته وأعجبته، وما شأنه بكلام الآخرين!

سمع، وشاهد كيف كانت تسحبه إلى غرفة النوم، وتدفعه أمامها، أراد مساعدتها، لكنها أبعدته. هل ستخلع عنه ثيابه؟ أو على الأقل حذاءه. ربما سوف ترميه على السرير وتتركه ليصحو في الصباح.

عادت بسرعة.

ـ بصحتنا. قالت، ورفعت الكأس وهي تبتسم. سوف أذهب لتنظيف الحمام. وسأكون هنا بعد قليل، سأحضر القهوة.

حضرت بدون القهوة، وقالت له: تعال معي.

ـ إنني لا أحب هذه القاعة. إنها تذكرني بصالات الموت. غرفتي أكثر شاعريّة..

كان بإمكان فرانك الاعتذار، والمغادرة، وفكر بذلك، لكنه سار خلفها كالكلب المطيع. لقد كانت غرفتها في الحقيقة أكثر شاعريّة. لقد جهزتها بكثير من الذوق، لها وحدها. على الرف بعض الكتب، وعلى الجدار لوحتان لرسامين معاصرين، بدون عري، على عكس ما كان يظن. لوحتان تمثلان الطبيعة.

أحبها... أحبها كثيراً. وبعد لحظة التفتت إليه، وهاجمته بالسؤال:

ـ قل لي بربك: ماعندك ضدي؟

ما هذه اللعبة؟ سأل فرانك نفسه. لكنه اندهش من صراحتها وجرأتها، ورد عليها بهجوم معاكس.

ـ وأنت ما عندك ضدي؟

ضحكت، وأنبته بإصبعها ضاحكة.

ـ أنت يا شقي.

تابع فرانك هجومه.

ـ وماذا يمكن أن يكون عندي ضدك.؟ لقد أعجبت بك، ومن اللحظة الأولى التي وقعت فيها عيناي عليك.

ـ طريقتك في إظهار إعجابك تبدو لي غريبةً.

لم يفهمها فرانك جيداً... ما هو هدفها؟

ـ لقد كنت تحرضه ضدي. ولكن هذا الأمر لا يهمني في الوقت الحاضر. ربما كان من الأفضل لو كنت شحنته ضدي وبذلت جهداً أكبر.

ـ لم أكن أملك الرغبة بذلك.

ـ كان عليك ذلك. كان صديقك، وكنت تعرف من البداية أنه انتهى، وإن كنت لا تدري فقد ساعدت أنا شخصياً بإبعادك عن المركز الذي كنت تَشْغَلُهُ ونقلك... هل كنت غبية في هذا التصرف؟

ركز فرانك انتباهه. هل هذه دعوة صريحة منها؟ هكذا تبدأ الحوارات التي تنتهي عادة في السرير.

ـ لماذا فعلت ذلك؟

ـ هكذا فقط. ألم يكن الموضوع يستأهل؟

ـ هل خاب ظنك في التوقعات؟

ـ نعم، كنت أريده أن يكون منذ البداية لي وحدي، وكنت تقف عقبة في طريقي. لقد كان دائم الحديث عنك، وأينما وجدت، كنت أشعر أنه لم يكن لي.

ـ هل كنت تحبينه؟

ـ كنت أعشقه، أحببته من كل قلبي، كان رجل أحلامي، الرجل الذي كنت أنتظره.

ربما ارتكبت خطيئة كبيرةً لكوني حرضته على الطلاق، ثم تزوجته. لقد كان رائعاً كعشيق، وكان من الممكن أن نبقى هكذا، بدون زواج.

ـ وجالوفيتش؟ سألها.

نظرت إليه متعجبة من سؤاله وضحكت.

ـ وما دخل جالوفيتش في هذا الموضوع؟

لم يكن باستطاعتها أن تمثل الغباء، ووبّخَ فرانك نفسه على هذا السؤال

ـ هل تظن أن جالوفيتش كان ليسمح له بالتصرف على هذا النحو، ويتحمله، وأنت تعرف آراءه في الأخلاق؟ هل كان ليتركه بدون أذيّة؟ رجاءً! الرئيس وسكرتيرته! ألم تسمع ما قيل؟

ـ سمعت عدة مرات، ورأيت أيضاً، وإن أراد أحدهم استغلال ذلك، فلسوف يدفع الرئيس وسكرتيرته الثمن غالياً.

ـ الطلاق كان مخاطرة أكبر. لقد خاف منه كثيراً، ومن هنا بدأ عدم تفاهمنا.

لقد كان دائماً يفكر بالسلطة، ولم يمنحني من نفسه إلا القليل.

لم يجب فرانك، وفضل الصمت. أراد السُّلطة والصعود؟ نعم أرادها، وأراد أن يذكرك أيضاً ويبرهن لك أن لا وجود لإنسان أعلى منه في العالم.

ـ وأنت... ألم تريدي ذلك؟

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني.. هل كان صعوده ورغبته في الوصول إلى السلطة ضد رغباتك؟

ـ طبعاً لا، ولكن أعرف ما يقال عني، وبأني حرضته على ذلك الصعود. لقد تحطمنا هنا بالتأكيد، لأن السّلطة كانت شغلَهُ الشاغل، وليس أنا.

ـ إنك هنا تخفين شيئاً.

ـ أرجوك انظر إلي. هل أحتاج لذلك؟ ماذا أجني من إخفائي؟

- ربما... ربما كنت تتصورين الأمر على نحو آخر.

- لا.. ما كنت لأرضى العيش بسمكة صغيرة على الغذاء، وبكيس على ظهري. كنت بحاجة لرجل، ولكنني أخطأت الاختيار. لم يعد هناك رجال في هذه الأيام، لقد كان يبدو لي رجلاً، ولكنه لم يكن كذلك.

- لقد عرفته جيداً، وأعرف إن كان رجلاً أم لا. رد عليها فرانك بصوت قوي.

- ربما كان، ولكنه انتهى. إنه يرتجف خوفاً في الأيام الأخيرة، يخاف من ظله يخاف على مركزه، لذلك علي البقاء مسجونة في هذا البيت. لا يزورنا أحد، وهو يقضي معظم وقته في مراقبة الجدران باحثاً عن أجهزة التنصت، فلربما وضعوا له أحدها في مكان ما في المنزل. إنه سجن مؤبد ولا يمكن الهروب منه.

- سيارتك مشبوهة.

صفرت عيناها الزرقاوان عند سماع هذه الملاحظة.

- آه.. أنا لا أخفي هذا الموضوع. ما يزعجني هو كوني قطعة أثاث في المنزل. لقد كان واجباً علي أن أطردك من هنا منذ مدّة، ولكنني الآن لاأريد. هناك تعبيرٌ روسيٌّ رائعٌ لهذا الشيء. تابليفات (أبصق عليك).

وقف فرانك عند سماعه هذه الكلمة، وأراد الخروج.

- أرجوك، إنني أعتذر. حقيقة.

- هل أخفتك؟ قالت ساخرة. وهل أنت تخاف أيضاً؟

- لماذا تخافون جميعاً أيها الرجال؟ من أي شيء تخافون؟

في الماضي لم تكن تخاف من جهنم أو من السماء أو من الألمان.

- أنا.. الموضوع لا يتعلق بي.

- لا.. إنه يتعلق بك، لا يتعلق بأحد سواك! يتعلق بوظيفتك ذات المرتب الشحيح. هل علي أن أقول لك مم أنت خائف؟ غدا سوف يجد

جالوفيتش على طاولته تقريراً بأنك كنت هنا حتى الصباح، تقريراً مفصلاً دقيقاً.. متى أطفئ النور في القاعة الكبيرة، ومتى أشعل في غرفتي.

لقد هيج فرانك هذا الكلام

ـ قولي بصراحةٍ. كم رجلاً خاف معك هنا في هذه الغرفة؟

ـ أنت خبير في هذه الجلسات.. معك حق.. أنا أيضاً خائفة، ولكنني امرأة فقط. بإمكاني أن أفعل الكثير، لكن القرار أن أفعل أم لا يكون عادة في أيدي الرجال.

حاول فرانك جاهداً تغيير الحديث، لكنها تهربت ببراعةٍ. لقد أحبها، ولكن لِمَ ساقته إلى هذه الغرفة؟ هل أرادت أن تلعب بأعصابه فقط؟ أو أنها أرادت أن تخلع كل شيء عنها، وفرانك دخل في مزاجها وراق لها؟ لقد أعجبته.. أرادها، ولكن كيف؟ إنها اللعبة الأخيرة، وفرصة لا تعوض ولم يبق الكثير للصباح، أعجبته، أرادها وعرف أنها الفرصة الوحيدة، ولا يريدها أن تهرب منه، ولكن كيف يبدأ؟

هل عليه أن يجلس إلى جانبها، أو أن يركع أمام ركبتيها، ويعترف لها بالحب الجارف؟

لا.. لها بالذات لا.. لن يفعل، تحتاج للكثير من الوقت حتى تنضج.. لينال منها شيئاً. وماذا يفعل هنا حتى تلك الساعة؟ لم يجد الشّجاعة للنهوض، والمغادرة.. لقد أحبها. قرر الهجوم.

ـ صورتك رائعة في اللّوحة.

ـ حقاً؟ هل أعجبتك؟ وبدت مسرورة من كلامه.

ـ أنت امرأة جميلة.

فهمت بسرعة هدفه.

ـ أعلم ذلك. ردت عليه، لكن فرانك لم يسمح لها أن تخدعه بابتسامتها.

ـ أنت موديل رائعٌ.

ـ موديل؟ موديل لأي شيء؟

ـ لا مرأة عارية.

ضحكت بملء قلبها، ضحكت بصوت مرتفع، ضحكة صافية جميلة.

ـ آه.. أنت.. وقفت، وأخذت رأسه بين أيديها، وقبلته قائلة:

ـ آه أنت لطيف.

ـ أنا أتكلم بجد هذا رأيي.

ـ لم أكن أعلم أنك تصور نساء عاريات، كيف تفعل ذلك؟

ـ إنها عمليه معقّدة. رجع فرانك للخلف، وأضاف:

ـ يجب أن يستريح الموديل ساعة قبل التصوير. العدسة لا ترحم، إنها تظهر كل شيء. التجاعيد التي يحدثها مطاط السروال على الجلد، الخطوط الحمراء على الكتفين من تأثير حاملة الثديين.... يجب إزالة جميع هذه العلامات. يجب أن يكون الجسم ناعماً... أبيض.

ـ لم أكن أدري ذلك.

ـ قلائل من يعرفون هذه الأمور.

ـ هل تعتقد أني مناسبة؟

ـ أنت موديل مثالي.

ضحكت طويلاً، ضحكة صافية.

ـ أقول لك بصراحة يا فرانك: لم يغازلني أحد بهذه الطريقة. كيف تتحايلون أنتم أيها الرجال.؟

ـ أنا معجب بك.

ـ تأخر الوقت. لقد قلت قبل قليل، سيارتي ملفتةٌ للانتباه، لقد تحدثت عنها، إن كنت قد سمعت جيداً. أرجو أن أكون قد فهمتك، لقد أردت القول أنك تشاهدها أحياناً في مكان غير عادي؟

ـ أماكن غير معتادة. عقب فرانك.

ـ مكان واحد. دائماً في المكان نفسه، ربما تكون قد لمحتها مرة أو مرتين في مكان آخر. يمكنني أن أتحدث إليك بدون خوف. في إحدى الحفلات أوقفني شاب جميل، نظر إلى عيني وقال: إنني معجب بك. أريدك، وفي الحفلة التالية وجدت تحت محفظتي مفتاحاً ملفوفاً بورقة كتب عليها العنوان. من الطبيعي أنني تحققت في البداية من هوية صاحب العنوان، ومن تظنه يكون؟ ألم يخبرك كيف وصل إلي؟ لا؟ أمر عجيب، لستُ من النوع الذي يدعي البراءة، وعدم الرغبة في جمع الفراشات. لكنك خربت هذه الجلسة.

فهم فرانك قصدها. الساعة الآن الثانية والنصف، ولقد تأخر الوقت، لقد أعجبته، وأعجبته أكثر من لوتسكا مع، لوتسكا كانت الحياة مأساة طويلة، أعجبته هذه الشقراء، والتي يمكن أن تمر العلاقة معها بدون مشاكل. إذا وافقت فسيكون أمراً عظيماً، وإن لم توافق فلن تخرب الدنيا، يا للحسرة! لو أن مثل هذه المناسبة تتكرر، لقد بدأ يحترمها، ويقدر إمكانياتها، لقد كبرت في نظره، أكبر مما كان يظن.

نظر إلى ساعته، ووقف. منعته من الذهاب: ابق معي للحظةٍ!

كان قلقاً، ماذا يمكن أن يحدث؟

لماذا تلاحقه؟ لم يحاول إخفاء دهشته واضطرابه من سؤالها، وأضافت:

ـ أنت تلاحقه، وتراقبه أيضاً، ولكنك تتحاشى مقابلته، دائماً وراءه، ولا تترك مناسبة واحدة إلاّ وتستغلها، لتكون قريباً منه، أرجوك

لا تتصنع البلاهة، إنني لست غبية، وأعرف كل شيء، أعرف عنك الكثير!

ـ هل هذا تحذير؟

ـ لا يا فرانك.. لقد فهمتني بشكل خاطئ، أنا فضولية، ولا أفكر الآن كيف كان رأيك بي منذ البداية، وظنك أنني من طرف جالوفيتش. وأعرف أيضاً أنك من أفعالك هذه لا تريد أية مكاسب، لقد شاهدتك مرات عديدة تلتقط له الصور. ما هدفك من هذا؟

ـ أنت تجيدين ملاحقة الناس، وتتبع أعمالهم، ربما لاحظت أنني لا أصور في أماكن أخرى.

ـ أعرف أنهم نبذوه، ويبصقون عليه، لقد تعطل دماغه، ولم يعد يرى شيئاً، لقد انتهى يا فرانك، إنها قضية وقت، ونهايته سوف تعني الحرية بالنسبة لي، أنا على يقين بأنني حتى ذلك الوقت سوف أتعذب. لست بسيطة، ولا غبية، كما تظن أحياناً، وأعرف بالتقريب سبب جفائك، والوقت الذي حدث فيه هذا الجفاء، لكنه ميت تقريباً، وربما لا يدري بذلك، لكنه ميت، يؤسفني تصرفك نحوه ـ وليس من أجله ـ ولكن كأنك ترفس ميتاً.

ـ لم أكن أبداً أفكر بهذه الطّريقة، ولم يخطر ببالي أن أرفسه.

ـ لابد أنك تملك مجموعة جيِّدة من الفراشات.. يا فرانك.

ضحك، ولم يجب.

ـ لقد كنت في قبضتي، وكنت أستطيع تحطيمك في أي لحظة، كان يكفي أن أشير بإصبعي لأنهيك. هل تظن أن لا أحد يراك؟ في ذلك اليوم في الغابة كنت تظن أن لا أحد يراك، ولكني رأيتك. عندي منظار كبير.

ـ أنت بارعة. أطلق فرانك زفيراً طويلاً.

ـ إنك تجلس الآن في غرفتي، وفي ظروف خاصّة، ومليئة بالمخاطرة، لا أدري إن فهمت قصدي من هذا الكلام.

لقد كان سؤالها عديم الفائدة.

ـ أنا أكرهه. إنه مرعب عندما يشرب، وأرتجف خوفاً في كل ليلةٍ، لقد رأيته الليلة بعينك، إنه موضوع يخصّني، ويخصّه فقط. إنه وحيد، ليس له أحد، ولم أمنحه السعادة التي كان يبحث عنها. أنا متألمة من أجله. هذا ماكنت أريد أن أحدثك عنه أنت صديقه.

ـ يا لرهبة ما أسمعه...

ـ أبداً.. انظر من حولك. إنه شيء عادي وطبيعي. هكذا نعيش، نحن في الأعلى، وأنتم في الأسفل.

انتصبت، وقالت:

ـ أعتذر. لست من أولئك الذين يتحملون السهر الطويل بدون أن يبدو عليهم الإرهاق.

وقف فرانك بشكل نهائي، قبل يدها بحنان، وبالقرب من الباب قبلته من فمه.

ـ هكذا فقط. قبلة الوداع.

ـ يا للأسف... قال فرانك ولم يشعر بأنها تأسفت مثله.

وذهب إلى بيته متخبطاً بأفكار. امرأة مثلها.. امرأة رائعة!

في يوم الخميس سار في ذلك الشارع الخلفي المعتم. كانت تقف هناك سيارتها الغربية.

ـ 8 ـ

كانت الحانة دافئة، ومليئة بالحياة، طلاب، صحفيّون، سائقون، جواسيس، عشاق، تداخلت الأحاديث وبقي منها أصوات هدير

وضجيج. لا أحد يهتم لوجود ميت على بضع خطوات من هنا. في هذه المدينة الكبيرة يموت العشرات يومياً، ويولد مقابلهم عشرات أيضاً.. وهنا... من يعرفه؟ من قابله من هؤلاء الناس؟ ربما عرفوا عن وجوده من الصور في الصحف لا أكثر ولا أقل، إنهم لا يعرفون ماضيه، ولا يهمهم أيضاً في شيء، الصراع الطبقي؟ هل كان هناك شيء من هذا؟ الثورة؟ وهذا الذي يرددونه دائماً في خطبهم وبأنهم قاتلوا من أجله، وقتلوا، وجاعوا؟

لقد أصبح كل شيء من الماضي، لقد تغير الزمن، لا يحق لأحد أن يحاسبهم على ولادتهم المتأخرة، لم يعد أحد يسمع به في المدة الأخيرة، لقد غاب عن الصحف، والغموض يكتنف حياته.

انتهت حياته قبل البارحة. يستطيع فرانك أن يحدد بدقه تاريخ وساعة موته الرسمي. إن وكالات الأنباء الرسميّة تحتوي في كل صفحة من صفحاتها تاريخ ووقت الإصدار. لقد عُمِّمَ في أحد الأيام إلى كافة الصحف والمجلات أمر سري على ورق ملون يحظر كتابة اسمه ونشر صوره. في ذلك اليوم بالضبط مات، نعم، أصبح ميتاً منذ ذلك اليوم.

لم يكن على علم بهذا القرار السري، لم يطلعه أحد عليه، لم يكن يملك صديقاً بين الصحفيين ليخبره بهذا القرار.

لقد انفجروا ضاحكين في رئاسة التحرير من ردة فعله، حين شاهد في إحدى الصحف صورة لجالوفيتش وهو يستقبل أحد الدبلوماسيين ويعانقه.

جالوفيتش، يستقبل، ويعانق، وأنا أين كنت؟

اتصل برئيس التحرير، وخاطبه بلهجة قاسية، وأبلغه بأنه سوف يطرد هذه العصابة الصحفية. لقد نسي بأنه كان في السابق، هو بالذات يعطي الأوامر بعدم نشر صور أولئك الذين ماتوا، الذين ساهم هو بالذات بعزلهم عن الحياة السياسية.

من يدري إن كان قد شعر بالتبدل الذي طرأ على الناس من حوله وبالحذر الشديد من التعامل معه في الأسابيع الأخيرة من حكمه؟ لقد كانوا خائفين، وبعضهم أظهر له المودّة، أما الذين ساهموا في سقوطه، وانتظروا أن يحلوا مكانه، فقد راقبوا لسنوات عديدة صراعه مع جالوفيتش، لقد خسر المعركة، ولم يبق له أمل في هذا الصراع.

ولكن هل أخبره أحد بذلك؟

لقد تابع عقد الاجتماعات، والتوقيع، والإدارة، والأوامر، والتصريح. ولكنه لم يعد موجوداً في الصحافة، وعادة من لا يذكر في الصحافة يفقد أهميته.

لقد صدرت صحف اليوم بإطار أسود، ونشرت في صدر صفحتها الأولى صورته، إن صوره سوف تبقى منشورة في الصحف لعدة أيام، وبعد سنة أيضاً سينشرون صورته مع تعليق بسيط، وتذكير بحياته، وبعد عدة سنوات لن يعني اسمه شيئاً بالنسبة للقارئ.

هناك شوارع تحمل أسماء أناس لا أحد يعرف عنهم شيئاً، ولكن اسمه لن يطلق على أي شارع. وسوف يحتفظون له بثلاثة صور في الأرشيف المركزي.

لن يتذكره أحد بعد الآن، وأولئك الذين قسا عليهم، وسبّب لهم الضرر، سوف يكتفون بالقول: كفى، إنه ميت، انتهى كل شيء، ربما سيتذكره الحلاق، لأنه كان يعطيه بخشيشاً دسماً. أو ربما بعض أصدقائه القدامى في المدرسة، عندما سيستعرضون الصور القديمة سيتوقفون عند صورته ويتساءلون: من هذا؟

آه هذا الذي كان...

إنها ذكريات هزيلة لرجل قد مات، والذكريات الأخرى لم تكن أفضل.

أدار فرانك نظره في الحانة.

إنني الوحيد الذي يتذكره في هذا المكان.. قال لنفسه، ليس لكوني أعطف عليه، لكنه كان يوماً وبالرغم من كل شيء صديقي، أنا أعرف كيف قضى حياته.

نهض فرانك من مكانه راغباً بالانصراف، لكن ضربة موجعة فاجأته على ظهره أقعدته ومنعته من الوقوف، نظر غاضباً للخلف مستطلعاً المصدر، وحتى الجالسون في الطاولة المجاورة أحسوا بصدى الضربة، وانتظروا ردة فعله. وقف خلفه الرسام، ذلك الفنان الذي حصل على وسام فنان الشعب، الرسام الأكاديمي.

ـ ماذا تفعل هنا؟ لقد مات صاحبك. قال مبتسماً، وكأنه ربح الجائزة الأولى في اليانصيب. قالها بلهجة ساخرة وحاقدة.

كان وقع هذا الكلام مؤلماً على فرانك، إضافة للضربة القوية التي أقعدته في مكانه.

ـ لقد مات. رد عليه فرانك، مات صديقي.. ولكني لم ألحس في حياتي مؤخرته. كما فعل بعضهم.

شعر الفنان بأن الحديث ليس لصالحه، وأحس بانزعاج فرانك، وأن الحديث لن ينتهي على خير.

ـ لا تغضب. قال محاولاً تلطيف مسار الأجواء، لكن الوقت كان قد تأخر.

ـ أيها القذر. هل تظن أن الناس لا يعرفون كيف حصلت على لقب فنان الشعب؟ وما هي خدماتك؟ الآن عندما عرفت أنه مات، بدأت ترميه بقذاراتك، وأدرت له ظهرك؟

انتاب الفنان شعور بالخوف ولم يكن يتوقع ما سمع، نظر من حوله، وهمّ بالخروج. دفعه فرانك بيده، وأجلسه على الكرسي، ولم يهتم للضجة التي أحدثها. خيم الصمت في الحانة كما في الكنيسة، والكل يترقب النهاية بفضول.

ـ تريد الهرب؟ لن تهرب. ستجلس مكرهاً هنا، وستسمع ما سأقوله. هل تظن أن الناس أغبياء ولا يعرفون كيف تغدق عليك اللجنة بالمكافآت على سخافاتك في كل عام؟ كم من العقود التي نفذتها في محطات القطارات، والمطاعم، ووسخت بها البلاد برسوماتك السخيفة من شمالها إلى جنوبها، وكانت كلها بفضل دعمه؟ بفضل دعم ذلك الميت؟ إن كنت تظن أن الناس لا يعرفون سبب حصولك على هذه العقود فسوف تُفاجأ بأنني أعرف جيداً.

ـ دعني وشأني. لا شيء نتحدث عنه. حاول الفنان التهرب.

ـ هناك ما نتحدث عنه، وهنا، والآن. بعد ذلك يمكنك الذهاب والاستعانة بمن تريد، إن كنت تملك الجرأة. أنت من بدأ الحديث. أنا لم أتحرش بك، ولذا عليك سماعي جيداً.

أنت قذارة عادية، وصورة حية عن التطفل ولحس المؤخرات والانبطاح للوصول، لو نعتني أحدهم بتلك الصفات لقفزت على رقبته، ولن أتركه حتى أكتم أنفاسه. لكنك وسخ يلقي بسخافاته على ميت، وجبان محترف. عندما كان على قيد الحياة كنت تمنحه مرسمك، وتحضر له العاهرات، إن ذلك على كل حال شأنك وحدك، ولكن لا يحق لك أن تهزأ منه بعد موته. أنت يراز وحسب، وسوف أقوم بواجبي في تعريتك أمام الجميع، اغرب عن وجهي الآن.

لم يحتج الفنان لسماع هذا الطرد مرتين، خرج مسرعاً من الحانة.

رافق خروج فرانك من الحانة خروج مخبرَيْن خلفه، توقف في الخارج ونظر إليهم مبتسماً، ماذا يريدان؟ إنهما يعرفانه، وهو أيضاً يعرفهما. ماذا سيكتبان عنه في تقريرهما؟ سيكتبان أنه لم يحترم ذكرى الميت؟ وكان يدافع عنه؟ ماذا سيحدث إن كتبا بأنه دافع عن الميت؟

ـ خدمة شاقّة أليس كذلك أيها الرفاق؟ قال لهما فرانك. لم يتركهما يحرّضانه. قطب حاجبيه، وراقب ابتعادهما عن عينيه.

إن شيئاً قد تغير بلا شك في هذه البلاد. لو كان قد تفوه بهذا الكلام منذ عدة سنوات لكان مصيره السجن، والآن يمكنه أن يهزأ منهم أمام أعينهم، .هل هذا مكسب شعبي كبير أم صغير؟ لم يعرف فرانك الجواب.

لا شك أنه مكسب كبير، حين يتحرر الإنسان ولا يعود يخاف من تصرفاته وكلامه، أو من فكرة في رأسه.

عاد فرانك إلى قاعة الحزن، حانقاً من نفسه، كان عليه ألا يتورط بالحديث. لماذا؟ هل مهمته هي تأنيب الآخرين وردعهم، والغضب من تصرفاتهم، وتعليمهم السلوك الصحيح؟

هل يختلف هو عن بقية الناس؟ ألا يقوم هو أيضاً بمهمات في هذا الوطن، ويصور المنصات، والاجتماعات، والمسيرات، الابتسامات ومن الكبار يصنع صغاراً، ومن الصغار يصنع كباراً؟ لِمَ عليه أن يؤنب الناس على أفعالهم، ويحتج على تصرفاتهم؟ لماذا تصرف بهذه العصبية عندما نعته أحدهم بصديق الميت؟ ألم يكن حقيقة صديقه؟ ألم يكن صديقه لأكثر من نصف حياته، وبقي ملاصقاً له لأعوام طويلة؟

لقد انهارت علاقتهما حقاً في المدة الأخيرة، ولكن هل يمكن مَحْوُ ما كان بينهما من الذاكرة، ومن الحياة؟

لقد ازداد تعكر مزاجه. لِمَ كان رد فعله قاسياً؟ ألم يشعر هو أيضاً بالخوف يا ترى؟ الخوف من أن يصرخ أحد في وجهه في أحد الاجتماعات قائلاً: اسكت.. ألم تكن ظله؟ الخوف من أن يستلم أحد مركزه كمصور في الحفلات الرسمية؟ فرانك يعرف أن زملاءه يحسدونه على هذا المركز. وهل يوجد ما يحسدونه عليه؟ لكنهم مع ذلك يحسدونه. لقد كانوا يتهامسون بأنه لم يكن ليصل إلى هذا المركز لولا مساعدة أحد الرجال الأقوياء في أعلى السلطة، وكانوا يعرفون أيضاً من هو هذا الرجل القوي. كان ذلك حقيقة إلى حد ما، والآن سوف تختلف

الأمور، وسيقرر جالوفيتش كل شيء، جالوفيتش لا يحب فرانك، وربما سوف يكون هذا اليوم آخر يوم عمل له في هذا المركز. ربما سيرسلونه غداً إلى تصوير الأبنية، أو لتصوير عاملات الأبقار أو النساء خلف آلات العمل. هل سيتغير كل شيء؟ سوف يصور الآلات بدلاً من المكروفونات. سوف يصور ويصور ولن يتغير شيء في حياته، حتى بين المصورين يوجد المصور المدعوم، لقد كان فرانك لمدة طويلة أحدهم، أو بالأحرى في رأس قائمه المدعومين. والآن سوف يتغير كل شيء.

أحس فرانك بقرب النهاية، وكان يشعر بأن هذه الجنازة ستكون الأخيرة. سوف يعزي نفسه على مصيره القادم. ولكن مع ذلك، إن العمل والشعور بأنك تعمل بجانب المسؤولين، والتحدث إليهم عن قرب، ووجودك في أماكن محظورة على غيرك، يبقى شعوراً جميلاً.

ولكن هل يعني أن ما سيحل به مستقبلاً يوجب عليه أن يدير ظهره لصديقه؟ توقف فرانك. وهل أدار له ظهره؟ لقد دافع عنه بصدق وجرأة أمام ذلك الفنان المسخ، ولكنه مع ذلك يحاول أن يعزي نفسه بعدم تركه.

نعم لقد تركه، وتخلى عنه وهذه هي الحقيقة. لقد أغاظه ذلك الفنان عندما نعته بصديق الميت، نعم لقد أغاظه، ولذلك كان رد فعله قاسياً، لقد كان خائفاً من أن يصنفوه بين أصدقاء الميت.

لقد قطع فرانك علاقته به منذ مدة طويلة، لم يعد يحترمه. يمكن أن يحدث ذلك بين شخصين، ولكن ذلك لا يعني نسيانَ ومَحْوَ كل ما كان مشتركاً بينهما، لو كان فرانك قد سأل نفسه بشجاعة فيما إذا كان يأسف لصداقته في يوم ما لهذا الميت، لكان من الصعب عليه أن يجد الرد القاطع. هل يأسف؟ يأسف على أجمل أيام شبابه التي عاشها معه جنباً إلى جنب؟ وماذا يبقى منه إن نسي وشطب ما كان بينهما من صداقة متينة؟ إن الإنسان لا يستطيع أن ينسى حياته، وماضيه، لقد

كان هذا الميت صديقه، وحياته. وبالرغم من كل ما حدث لا يستطيع أن يكون غير مبال بما حدث له، وبالذات في هذا اليوم!

لقد عادت الذكريات إلى ذهن فرانك واحدة تلو الأخرى، عادت كاملة، واحدة تتناوب مع الثانية، تذكر كيف أنهما في أحد الأيام تضاربا بعنف.

كان فرانك في حينها مصوراً محترفاً، ويعمل في مركز التصوير حتى الرابعة مساء، وكان هذا الميت ينتظره بجانب النهر. كان فرانك على علاقة حب مع إحدى الفتيات، والتي كانت تنضم إليهما كل مساء. كان الجو حاراً، وكانوا يسبحون عراة في الجدول الذي كانت تغطيه الأشجار الكثيفة، يتحدثون عن الذكريات القديمة معاً.

شابان، وفتاة واحدة، وهي لأحدهما. لم يكن بينهما حواجز سخيفة، كانا ينظران إليها كيف تسير إلى الجدول عارية، وتغطس في الماء، ويراقبان انعكاس ضوء القمر على جسدها العاري، يغطسان خلفها، يسبحان بعيداً، يضحكان، كانا سعيدين معاً، ولم يكونا على هذه الدرجة من السعادة في أي مجموعة أخرى، إنها تعجبهما، ولم لا؟ جميلة، وشجاعة، وكان منظرها يمنحهما السعادة، ولكنها لفرانك، إنها صديقة فرانك، الجميع على علم بذلك، وعليهم احترام هذه الحقيقة فيما بينهم.

كانا على عادتهما يتمشيان في أحد الأيام بجانب النهر، انتظرا قدومها، وكان فرانك مضطرباً، لقد تأخرت، وليس من عادتها أن تتأخر، كان فرانك ينظر بعصبية واضحة في ساعته، وفاجأه صديقه إذ قال له:

ـ لن تحضر ماركيتا... قالها بشكل مبهم.

ـ ماذا حدث؟ سأل فرانك.

ـ وماذا سيحدث؟ وتهرّبَ من الجواب.

ـ لماذا تظن أنها لن تحضر؟

ـ هكذا. أعرف أنها لن تحضر.

وقفا وجهاً لوجه.

ـ هل أخبرتك شيئاً ما؟

ـ لا.. لا.

لم يعرف فرانك ماذا عليه أن يخمن، وبماذا يفكر، وبدا على صديقه أنه يستعد لشيء ما، لشيء لا يبدو سهلاً.

ـ أنا وماركيتا نحب بعضنا. قال صديقه.

لم يفهم فرانك قوله للوهلة الأولى. ماذا حصل؟ إنّه وماركيتا يحبّان بعضهما، ولِمَ عليه أن يقول ذلك؟ ماركيتا له، الجميع على علم بذلك.

ـ وكيف ذلك؟

ـ هكذا، إننا نحب بعضنا.

نظر فرانك في عيني صديقه بدون أمل. وفهم كل شيء. الحية، تلك الحية الفاسقة.

وسرت في جسده حرقة موجعة، كما لو مر سكين حاد حول عنقه وذبحه، حرقه، وشعر بألم لم يحتمله.

قفز فرانك بدون صراخ، وبدون تحذير، وقبض على عنق صديقه وضغط، ضغط، شاهد أمام عينيه ازرقاق وجهه وكيف يحاول بدون أمل فتح فمه. في اللحظة الأخيرة تمكن الصديق من القبض على إصبع فرانك، وحرر رقبته من الموت المحقق. رفسه فرانك بقوّة على بطنه، وأعاد رفسه مرات عديدة حتى أحس بأن قدمه قد كسرت، وقفز عليه، وطرحه أرضاً، وبدأ يضربه، وكسر له أنفه، وجرح فمه، ضربه بركبته على أسفل بطنه مرة ثانية، وصرخ الثاني من شدة ألمه، ثم رفسه بقدمه ورماه بعيداً عنه، وبدأ فرانك يلكمه على وجهه، مرة، مرتين حتى شعر بألم شديد في أصابعه، ونظر إلى يده التي كانت في فم صديقه،

فشدها بقوة. حاول الثاني أن ينتصب فلكمه فرانك لكمة أخيرةً وطرحه أرضاً. ثم وقف أمامه يستجمع أنفاسه، وبدأ وعيه يعود إليه بالتدريج، كان الثاني مسجى تحت قدميه ينزف بدون حراك، عندما سمع فرانك شخيره عرف أنه مازال حياً، سحبه من قدميه إلى الجدول، وغطس رأسه بالماء ومسحه بالعشب الموجود على طرف الجدول. عادت له ثانية موجة حنقه فرفسه، لكن فكرة أخرى وأفضل عبرت رأسه: سأقتلها، سأقتل تلك الحية!

لا يعرف فرانك حتى هذه الساعة كيف وصل إلى ذلك الشارع الذي تسكن فيه، لم يعرف شيئاً، ولم يشعر بشيء، ولا يتذكر شيئاً. كان عليه أن يسرع وقدماه كما في النار، يجب عليه الوصول، يجب عليه أن يقتلها.

وقف أمام البيت، ذلك البيت الذي كان يودعها أمامه كل يوم. وللحظة شعر بأنه ضعيف، وأن قواه بدأت تخور، ولا يدري ماذا عليه أن يفعل.

كان الشارع خالياً، وشاهد فرانك خيالاً يقترب نحوه من جهة النهر، اختبأ خلف شجرة الكستناء، ولمح صديقه الذي بادره.

ـ أنت هنا؟

صمت فرانك، ولم يجب.

ـ أعرف أنك هنا، ولكن عليك أن تترك ماركيتا. إنني أحبها، وهي تبادلني الحب.

خرج فرانك من خلف الشجرة، وبصعوبة شديدة سحب قدمه التي كادت تقتله من الألم باتجاه صديقه. كل خطوة كانت بالنسبة له عذاباً شديداً، وعندما وصل إلى الخيال المنتصب في وسط الشارع، قبض فرانك على رقبته ولم يبد ذلك الثاني أية مقاومة، بدأ فرانك يرخي قبضته ببطء، لم يستطع أن يتابع، تركه وتوارى مسرعاً، وسمعه يهوي على

الأرض. تركه وملأت ذهنه فكرة واحدة: المستشفى.. المستشفى قريب جداً، عليه أن يتحمل الركض حتى يصل إلى المستشفى. في شارع النهر.. في شارع النهر يتمدد... قال بصوت مبحوح متلعثم، وحاول أن يخطو خطوة أخرى، صرخ من ألمه، ووقع على الدرج قام الطبيب المناوب بخياطة جروحه، ووضعوا قدمه بالجبس وشدوها على طرف السرير. أجاب فرانك على جميع الأسئلة التي طرحها عليه المحقق بالصمت، ولكن مثل هذه المعركة وبين صديقين لا يمكن إخفاؤها. أحضروا صديقه إلى المستشفى، وأصبحا حديث المدينة.

عندما حضر المحقق لتسجيل أقوال فرانك، أراد معرفة كل شيء، ولكن عبثاً. لم يعطه فرانك أية معلومات، حاولوا معه بلطف، وبالتهديد، واستعملوا معه كل الوسائل، أغروه بالتعويض عن الإصابة، أخبروه أن عليه تسجيل شكوى ضدّه، معللين أن ذلك محض روتين، عليه توقيع الأوراق اللازمة.

أرادوا الإيقاع به، أرادوا إحالة صديقه إلى المحاكمة كشخص خطر، إنسان يعرض سلامة الناس البسطاء للخطر. أرادوا أن يحولوا البطل الثوري إلى مغتصب، يهدد حياة الناس، أرادوا أن يوسخوا سجله الحافل بالبطولات، ويجعلوا منه مجرماً، قاتلاً. لم يكونوا مهتمين بما حدث بينهما من قتال، أرادوا ذلك الثاني وهو محط اهتمامهم، وجدوها فرصة عظيمة لا تعوض لتكتب في سجله، لقد خافوا منه، وكانوا مسبقاً يعلمون ماسيكون عليه في يوم من الأيام.

ـ إنّهُ أمر سخيف أيها السيد المحقق، الناس يعرفون أننا أصدقاء.

رد فرانك على المحقق.

ـ إننا نعرف، ولابد من أن يكون أحد قد أوصلك إلى هذه الإصابة.

قال المحقق وقد نفد صبره.

ـ لن تصدقني إن قلت لك إنني اصطدمت بالقطار، لقد خرجت عن السكة.... ضحك فرانك من المحقق، الذي وقف غاضباً.

ـ لا بأس... هذا شأنك إن كنت لا تريد الاعتراف،، ولكن ليكن بعلمك، ويجب ألا تتفاجأ من كونكما ستحالان إلى المحاكمة.

ـ بإمكانك أنت ومحاكمك أن تذهب إلى.... تفهم أنت الباقي. رد عليه فرانك بسخرية واضحة.

ـ إنك بهذا الكلام تهين رجلاً رسمياً، بدأ المحقق بالصراخ، وسيكلفك كلامك الشيء الكثير، ويوجد شهود على كلامك.

أحدث كلام المحقق في الغرفة الكبيرة ضحكاً مدوياً اشترك به جميع المرضى، وكان خروج المحقق الغاضب من الغرفة منظراً مسلياً للجميع.

حضرت ماركيتا في اليوم التالي، وجلست إلى طرف السرير، ولم تتأثر حين أدار لها فرانك ظهره.

ـ أيها المجنون. بدأت بإقناعه. كلاكما مجنون.

ـ أغربي عن وجهي.

لم تذهب. وبقيت صامتة، بدأت بتمسيد ظهره بيدها المرتجفة من البكاء، ولم تخرج إلا حينما أعطاها يده، و ابتسم لها كما كان يفعل في السابق.

بعد مدة شوهدوا ثلاثتهم يتنزهون بجانب النهر، وعاد كل شيء كما في السابق، ما عدا شيئاً واحداً: لم يعودوا يسبحون عراة في الليالي الدافئة.

ـ 9 ـ

لم يكن فرانك راغباً في العودة إلى صالة الحزن. توقف في إدارة التحرير وسلم الآنسة المسؤولة عن مخبر التحميض بعض الأفلام. نظرت إليه مستغربة، لأنها تعرف أنه يقوم عادة بتحميض أفلامه بمفرده.

تنزه بعدها في الشوارع القريبة، وذهب إلى بيته لتناول طعام الغذاء. لم يتناول اللحم، ولم يعجبه. من المألوف أن تحصل مشاجرة في البيت

عندما لا يعجبه الطعام، في هذه المرة لم تفعل زوجته شيئاً من هذا بل مررت أصابعها في شعره وداعبته.

ـ أنت متألم، أليس كذلك؟

حرك كفه إلى الأمام منهياً الحديث.

ـ شيء مزعج.

ـ كان عليك أن تترك هذا العمل منذ مدة طويلة. مصور غيرك ينشر الكتب الكبيرة في البلاد الغربية، ويملك الكثير من البوني.

ـ أرجوك.. صرخ بها. لم يكن مستعداً لسماع الأسطوانة القديمة. معها حق، ولكن فرانك لم يكن مستعداً لخوض مثل هذه المناقشة في ذلك الوقت الحرج.

ترك الطاولة، وذهب إلى الغرفة المظلمة، نزع الغطاء عن الجدار المليء بالكراتين الكبيرة.

توزكس... هذه هي التوزكس. الهواية التي كلفته أفلامها الكثير من المال والوقت، والورق. إنها المستندات التي لا يمكنك الحصول عليها في أي مكان من العالم. هنا يوجد كل شخص. هنا يوجد كل شيء.

عندما نزلت الألبومات الجلدية إلى الأسواق، اشترى فرانك عشرين ألبوماً، ويتأسف الآن لأنه لم يشترها بكاملها. إنك تستطيع أن تضع في كل ألبوم ما يقارب الخمسين صورة، والآن لم تعد كافية لاحتواء الصور التي نفذها. لقد قام فرانك بترقيمها بالأحرف العربية، يكفيه لحظة واحدة لإخراج أية صورة يريدها.

مد يده، وأخرج من الوسط أحد الألبومات.

رجل كبير، متوفى منذ مدة طويلة، نزل في أحد الفنادق منذ نصف ساعة، يقف على الشرفة مبتسماً، مبهوراً من الحشود المتجمعة تحت الشرفة في الساحة للترحيب به. سوف يبقى لمدة نصف ساعة فقط في هذه المدينة الصغيرة، وما يقارب ألفي شاب حضروا لأداء التحية،

والترحيب، يقف مغتبطاً من المحبة، والود الذي يشعربه الناس نحوه، ملينا بالفخر والعظمة، يصرخون بملء حناجرهم، يصفقون، وهو يحني رأسه لهم ويلوح بيده رداً على تحيتهم سعيداً من مظاهر العرفان، والتقدير، والإعجاب التي يكنها له الشعب.

منظر آخر، ومن مدينة أخرى. الرجل الكبير بذاته يعتمر قبعة عمال المناجم، ويسير برفقة المدير وعدد من المهندسين، وعلى سارية المنجم علقت صورته، وقد سمي المنجم باسمه.

وصورة أخرى في الألبوم لميكروفون يقف خلفه ذلك الرجل الكبير في قاعة المحكمة، وحينها لم يعد كبيراً، يفرك يديه قائلاً: إنني أيها الرفاق قد نسيت اليقظة الثورية ووقعت في أحضان العدو.

وهنا في الصورة التالية، وفي المنجم ذاته بين الساجين الذين يقومون بأعمال الحفر يقف ذلك الرجل، وبدلاً من قبعة عمال المناجم يعتمر قبعة الساجين، لقد تغير اسم المنجم قبل ذلك.

الصورة التالية لباب السجن، يخرج منه ذلك الرجل الكبير، وبيده حقيبة صغيرة، ويتلفت حوله يبحث عن أحد ينتظره. لم يكن هناك أحد.

صورة أخرى لباب كنيس، وأمامه سيارة نقل يقف أمامها الرجل الكبير حاملاً طرداً كبيراً من الأوراق، ويدخله إلى الكنيس الذي عُلقتْ في أعلاه لوحة كتب عليها: مركز جمع الأوراق شركة. مؤمّمة.

وصورة أخرى، حفرة حديثة، وبجانبها تابوت متواضع، وكاهنٌ بروتستانتيٌ يحمل صليباً، وامرأة باللباس الأسود، ورجل آخر. وسبب وجود الكاهن البروتستانتي هو رفض الكاثوليك القيام بمراسم الدفن للقتلة.

تراجيديا من الحجم الصغير، وتراجيديا من الحجم الكبير. ما هو اسم الرجل الكبير الذي علقت صورته على سارية الإنتاج في المنجم؟

فرانك يعرف اسمه، ومن يعرف اسمه أيضاً؟ امرأة وبعض الجيران، كم من الوقت مضى على وقوفه على شرفة الفندق؟ خمسة عشر عاماً. فرانك كان من القلائل الذين بادروه التحية عندما كان يراه في الحديقة أو في الشارع.

في هذا اليوم بالذات لم تستطع مجموعته أو الكنز الذي يملكه من تحسين مزاجه. وقف وأعاد الستارة إلى الحائط، وخرج من المنزل.. سمع صوت زوجته وهي تسأله:

ـ ستحضر على العشاء؟

ـ لا أدري. لا تحضري شيئاً. إذا عدت سوف أتناول شيئاً بارداً.

فهمت. إنه لن يأتي ثانية. بقيت واقفة في الباب كعادتها تراقبه وهو يتوارى.

ـ حسناً لن تحضر، ولكن على الأقل لا تشرب. هذا التنبيه يزعج فرانك دائماً، لكنه هذه المرة عاد إليها وحضنها بين ذراعيه، وشدها إلى صدره، ووقفا هناك لبرهة صامتين، شعر بها ترتجف بين ذراعيه، أراد أن يقول لها شيئاً يسعدها، شيئاً جميلاً، لكنه لم يقل شيئاً قبلها مودعاً. لم يقبلها منذ مدة طويلة، ولماذا؟

لماذا لا يقبلها كل يوم؟ ها هما بعد مضي تلك السنين ما زالا يحبان بعضهما بعضاً، على الرغم من أن حياتها معه ليست سهلة. مهما حاولا التقتير، فالمعاش لا يكفي. فرانك يسافر، وهي دائماً بانتظاره. لقد تعودت عليه بعد كل تلك السنين.

ـ سوف أعود اليوم مباشرة إلى البيت. لقد شعر بحب واقعي نحوها، وهو سعيد معها، لأنها هكذا دائماً بانتظاره، وليس وحيداً كما يصرح في بعض الأحيان. إنها تتفهمه. ويعرف ما تريد قوله عندما تحاوره.

ـ لا تتورط معهم! انشر كتاباً عن الفراشات. إنه عمل دائم.

قال فرانك مرة أخرى : سوف أعود مباشرة إلى المنزل.

ـ 10 ـ

سمع فرانك في قاعة الحزن ملاحظة، كان لها وقع الصاعقة عليه. رجلان لم يعرفهما مسبقاً خرجا من القاعة، ولا يتذكر أنه رآهما من قبل، رجلان مجهولان تماماً. ولأن فرانك يعرف جميع الرجال المهمين بدون استثناء، وعلى مر تلك السنين، فقد أصبح خبيراً في تمييز الوجوه، لأن مهنته معرفة الوجوه. خرج مسرعاً، ولحق بهما، انتصب أمامهما، ووجه عدسته إلى وجهيهما، وكبس الزر بسرعة، وشاهدهما يرتبكان، ويصطدمان ببعضهما، خافا، واحمر وجهاهما. سوف يعاتب أحدهما الآخر على ما بدر منه من كلام؟ سوف نعاقب على هذا الكلام! قال أحدهما للآخر.

هذا الكلام لم يعد يوصل الناس للسجن، لكنهما لا يعرفان، وسوف يعيشان لوقت ما في الخوف، والخوف ما زال يأخذ حيزاً كبيراً في أدمغة الناس، ويحاصرهم. إنهما يعبران عن رأي الناس، الناس الذين نفد صبرهم، وبمجرد أن يديروا ظهورهم للتابوت وتحين لهم الفرصة للكلام والنقد، يحكهم لسانهم، ويقول أحدهم للآخر: من يعرف من هو؟.

ـ لقد مات من الأوريميا.

ارتجف فرانك من سماع هذا الكلام. إنهما لم يوفرا هذا الميت!

فرانك مصور، ويمكن اعتباره مصور المسؤولين، مصوّرٌ رسميٌ، ومثله يعرف الكثير، ويعرف بدقة سبب الوفاة، هل يعرف ذلك الإنسان العادي؟ فكر فرانك فيما إذا كانت الأرملة تعرف سبب الوفاة، هل يعرفه أعضاء مكتبه؟ ربما تعرف الأرملة السبب.. ربما.

الأوريميا مرض بغيض، وسبب بغيض للوفاة.

لقد وقع بروتوكول الوفاة ثلاثة من الأطباء المرموقين، ثلاثة علماء في الطب، وقعوا، ولقد نشرت وكالة الأنباء الخبر الذي أرسل من المكتب الرئيسي للنشر، لقد كان التقرير يتألف من كلمتين: سرطان الدم (لوكيميا).

وهكذا حصل، لقد زور ثلاثة من الأطباء السبب الحقيقي للوفاة، تعديل بسيط!

من الأوريميا يمكن أن يموت أي شخص، مثلاً فرانك يمكن أن يموت منها، حتى هؤلاء الأطباء، وربما ذلك الشخص، الذي وشوش صديقه عند خروجه من قاعة الحزن. أما رجل الدولة فلا يمكن أن يموت من الأوريميا، المسؤولون لا يموتون من مرض مقرف كهذا المرض، ولا يحق للمسؤول تعيين سبب وفاته أو اختياره، يمكنه أن يموت من أي شيء، إنها مشكلته الخاصة، لكنه رسمياً يجب أن يموت لسبب لائق، ويُحدد سبب وفاته من المسؤولين.

أما سبب الوفاة الحقيقي فسوف يتوشوشون به سراً من الأذن للأذن.

إنه أمر مضحك، ومؤسف، ومحزن أيضاً. الأوريميا مرض خطير، تتعطل بسببه بعض أجهزة الجسم عن العمل، ويتسرب البول إلى الدم، ويسممه، إن صورة البول يمكن أن توقظ في هذا العالم القاسي تصورات، وتداخلات، وحكايات غير مستحبّة، تسيء لسمعة الرجل الكبير. فمن المعروف عن المسؤول أنه يخطب، ويوقع البروتوكولات ويستقبل الزوار الرسميين، ويوزع الميداليات، ينهر المخطئين، ويمتدح النشطين، يتحدث أحاديث ودية. هذه هي حياته الرسمية التي يظهر بها على العلن. أما أن يكون معقداً، ومملوءاً بالأخطاء أو سيّئاً، وله عشيقات، ويمد لسانه في الحمام أمام المرآة، ويجمد وجهه، ويقف لساعات أمام الخياط، ويحب الشراب، ولديه في مكتبه صورٌ جنسيّةٌ يحبها أكثر من كلام الفلسفة الموجود في الكتب، أما أن يكون كذلك، فالحياة في منزله،

وفي عائلته جحيم. إن حياة المسؤولين سر كبير لا يحق لأحد أن يعرفه، لقد كان هذا الميت بالذات من سأل فرانك في مقعد الدراسة، فيما إذا كان المسؤول يذهب للتواليت؟ كل هذه الأمور يجب كتمانها، ولا يجب أن يعرف أحد عنها شيئاً.

طبعاً إن تصور المسؤول ميتاً من البول في الدم تصور غير لائق. يمكن أن يبدو هذا الأمر لبعض الناس مقرفاً. المسؤول يمكن أن يموت بالجلطة، فهو موت مناسب للمركز الذي يقوم به، لقد مات من الأعباء، والمهمات التي كانت ترهقه. لقد تذكر فرانك أحدهم، ذلك السياسي الكهل الذي انتهى بين أحضان الغانية، بعد محاولته البائسة لإثبات رجولته، لم يتحمل هذه المهمة، وقيل أمام قبره إنه مات من المجهود الذي بذله حتى النفس الأخير في خدمة الشعب، وقضاياه، لقد عدد فرانك في ذاكرته أسماء العديد من المسؤولين الذين ماتوا من المراحل الأخيرة لمرض الزهري، وكتمت هذه الأخبار في سيرتهم الذاتية. لقد اغتالت كورداليوفا الزعيم مارات في البانيو، المؤرّخون يعرفون ذلك، وهذا الخبر موثق في كتاباتهم، لكن الجميع يتكتمون عن الحقيقة. لماذا استقبل مارات هذه المرأة، لقد حدث ذلك في ظروف غامضة، يظنون أن الحديث عن هذه الأمور سوف يلقي الضوء على العديد من المسؤولين.

فليكن.. الثورة كانت دوماً تحاول التعظيم وإظهار الرجال الكبار، ولكن في هذه القضية اختلفت الأمور، لقد أقسم هؤلاء الأطباء على قول الحقيقة عند استلامهم الدبلوم، وفي جميع بلاد الدنيا تعمل جمعيّات الأطباء للحفاظ على شرف المهنة، والطبيب الذي يفرط بهذا الشرف المهني يفقد حقه بمتابعة عمله، وبالتالي دبلومه.

ثلاثة أطباء من أشهر الأطباء، وفرانك يعرفهم جميعاً، ويعرف عنهم أكثر بقليل مما يعرفه عنهم الناس العاديّون الذين قرؤوا أسماءهم في تقرير الوفاة، ويعرف أيضاً أن ذلك الطبيب الطويل كان الطبيب

الشخصي للمتوفى، بمعرف سمعته العلمية والاجتماعية التي كانت بحق ممتازة، لقد عالج الميت حتى اللحظة الأخيرة، وعندما عرف خطورة وضعه الصحي بذل قصارى جهده، واستعان باثنين من أفضل الاختصاصيين والعلماء في الطب. لم يكن يريد - ولا يحق له - أن يقرر وحده خطة علاجه، بل قام الثلاثة بمتابعة علاجه حتى النهاية، لقد بذلوا حتماً كل ما في وسعهم لمنع الأسوأ، وعندما لاحظوا أي تبدل في حالته الصحية، قاموا بالتشاور، وقرروا مجتمعين العلاج الأفضل. كانوا إلى جانبه في اللحظات الأخيرة. كتبوا بكل دقة في البروتوكول الطبي نوع مرضه، وطريقة العلاج التي اتبعوها، نسخة من تقريرهم ذهبت إلى الجهات المعنية، وعندما غسلوا أيديهم بعد تشريح الجثة وقعوا ثلاثتهم بشكل نهائي على وثيقة الوفاة. لم يكن أحد يعرف، ولن يعرف أحد إن كانوا قد سجلوا أن سبب الوفاة هو سرطان الدم.

فرانك يعرف أنه طُلِبَ إليهم بعد توقيعهم للبروتوكول مقابلة جالوفيتش. وجالوفيتش يملك موهبة فائقة في الإقناع، ويتصور فرانك بالتقريب ماذا جرى خلال هذه المقابلة. جالوفيتش يقف خلف طاولته، وبمنتهى الجدية التي لا يمكن الطعن بها، يطلب منهم الجلوس، ثم يجلس على الكرسي القاسي، وبالمناسبة فإن جالوفيتش الوحيد بين المسؤولين ممن لا يستعملون الكراسي الطرية. يجلس بصمت، وينظر إلى التقرير الموجود على الطاولة، ثم يراقب عيون الأطباء الثلاثة، ويبدأ الحديث بصوته الغليظ:

- علينا أن نمزق هذا التقرير أيها الرفاق. هل فهمتم؟ التقرير الأصلي.

ينظر الثلاثة بدهشة إلى جالوفيتش، وأحدهم يتجرأ، ويسأله: لماذا؟

- يا رفاق.. ويحرك رأسه نحو الطاولة. إن الموت بأوريميا الدم سبب غير لائق للوفاة.

نظر الثلاثة إليه مندهشين، وتجرأ أحدهم، ورد بانفعال جليّ:

ـ وماذا يعني كلامك؟

كان جالوفيتش يتوقع مسبقاً رد فعلهم، ولكنه لم يسمح لهم بإخراجه عن طبيعته، وحافظ على هدوئه.

ـ لا يمكننا أن نعلن سبب الوفاة الرسمي بهذا الشكل.. أيها الرفاق.

ـ ولكن هذا... هذا الذي تطلبه منا يخالف ما أقسمنا عليه من الصدق في قول الحقيقة، وهو ضد الأعراف الطبية، والوجدان!

نظر جالوفيتش إلى وجوههم مبتسماً! الأعراف، والمسلك المهني، والوجدان، لقد قلت: الوجدان، أنت أيها المثقف! يا مدرس الجامعة؟ وأشار إلى مدرس الجامعة، ونتعجب من الفوضى الموجودة في جامعاتنا؟، كيف لها أن تكون عندما يتبجح أساتذتها بالوجدان؟ ومتى كنت أيها البروفيسور للمرة الأخيرة في الاعتراف الكنسي؟ ستلوح أنت أمام جالوفيتش بسيف الدين؟

ـ إنها أشياء سخيفة أيها الرفاق!

توعد. وقف طبيب الداخلية البدين ذو اليدين الكبيرتين، بعصبية ظاهرة، وهم بالخروج من المكتب، وقال أن لا عمل له في هذه الجلسة. لكنه سمع أثناء خروجه جالوفيتش يقول:

ـ يجب علينا أيها الرفاق كتابة تقرير جديد. الآن وفي هذا المكان، الوقت يتداركنا، يجب أن نعطي بياناً رسمياً، الأمر مستعجل. والاثنان اللذان بقيا في أماكنهما بدأ ينظر أحدهما للآخر، ورفعا أكتافهما، ورفع الكتف يدل على اتخاذ القرار، وجالوفيتش يعرف كيف يخرجهم من هذه الورطة.

ـ أنا لا أفهم بالطب، أيها الرفاق إنها مهمتكم، ولكن الأوريميا لا يمكن أن تكون سبب وفاته.

فهم طبيب المرحوم الخاص قصده، وفهم أيضاً زميله، لقد كان الطبيب الخاص للعديد من المسؤولين، وزميله الذي بقي جالساً كان من النوع المعروف. وجالوفيتش سوف يقرر لاحقاً من سيكون مسؤولاً عن قسم الصحة في الإدارة. أما ذلك الثالث فإنه كاثوليكي.

كتبوا ووقعوا التقرير، وكان كافياً تغيير كلمة واحدة، اتفقوا بسرعة على الكلمة وكتبوها. جالوفيتش ينظر، وينتظر، ويقف معلناً انتهاء الاجتماع. أخ أنتم أيها المثقفون. إنكم الآن في قبضتي! يمكنكم أن تغضبوا، وتفكروا فيما تريدون، أعرف ما تشعرون به نحوي، ولكن عندما أريد فإنكم توقعون! وعندما أردت فقد وقعتم.

هذا بالتقريب ما حدث، فرانك يعرف أن جالوفيتش قد قام بهذا العمل، وتلذذ في إهانتهم، ماذا كان ليفعل هو لو كان في مكانهم؟ هل يوقع؟ أم لا؟

طبيب الداخلية البدين، كاثوليكي مؤمن بطهارة السيدة ماريا، لقد كان مستقبل شعبته التي أسسها عالقاً على شعرة بسبب معتقداته الدينية، وسبب بقائه كان زملاؤه الذين نبهوا إلى إمكانية تدني مستوى العمل في القسم في حالة الاستغناء عن خدماته. لا يمكنكم أن تفعلوا ذلك. إن هذا الرجل يملك سمعة عالمية في اختصاصه، وقسمه يعطي نتائج رائعة في علاج أمراض الدم، هل كان موقفه الدونكيشوتي سيسبب تحطيم مشروعه العلمي؟ قسمه الذي يعتبر بالنسبة إليه حياته وكل شيء؟ هل من العدل أن نحرم المرضى من خبرته بسبب موقفه؟ الأمر لا يتعلق به شخصياً، إنه لن يموت جوعاً، سوف يجد بسرعة عملاً جديداً، لقد أسس قسماً حديثاً مجهزاً بأحدث الأجهزة العلمية، هل عليه أن يضحي بكل هذه المكاسب، ويحطم هذا القسم؟ بسبب موقفه هذا سوف يتوقف العمل العلمي النشيط والسمعة العالمية التي

تحققت من خلال إدارته لهذا المركز. هل كان تصرفه شريفاً، إنه قرار صعب، علماً أنه من الصعوبة بمكان احتفاظه بمركزه إن لم يوقّع.

وقع... ولا يعرف فرانك هل كان عليه التوقيع أم لا؟

الطبيب الثاني كان ضليعاً بشؤون الصحة، كان يعرف ما وصلت إليه الصحة من الفوضى، بسبب التعقيدات الرّوتينيّة، لا توجد أية عناية بالمرضى، والأطباء يعملون بدون رغبة. وبالدرجة الأولى يكتبون، ومنهكون، ولا يقدّر أحدٌ عملهم، رواتبهم ضعيفة، يموتون في سن مبكر. الجهاز البيروقراطي المتحكم بالصحة لا يهتم، وغايته البقاء في الكراسي، وفي أماكن نظيفة، يقضون أوقاتهم في كتابة التقارير الرنانة عن النجاحات في زيادة عدد المرضى المعالجين، وعدد الأسرة الموجودة في المستشفيات، ويقررون الموازنة المخصصة، عدد الأطباء، الأجهزة، يبهرون الناس بالأرقام الخيالية، ولا يذكرون عدد الذين شفوا، بل عدد المرضى الذين دخلوا ويتبجحون بأن الأسرة مليئة مائةً بالمائة.

ذاك الذي وقّع التقرير يعرف، كيف، وماذا، وأين عليه العمل والتغيير! لا يخاف المشاحنات ولا المخاطرة التي تنتج من أفعاله، بإمكانه تنظيف ذلك الإسطبل الصحي، ويشعر أنه يملك الإرادة والقوة للقيام بهذا العمل.

إن تسميته تحتاج لعدة أيام فقط. إنّ تغيير المناصب الذي سيحدث بعد غياب مدير الدائرة المتوفي سوف يسرّعُ في تسميته.

وقّع.. هل كان عليه أن يوقّع؟ أم لا؟

الثالث.. كان يراقب بحذر عيني الرجل الجالس خلف المكتب. افعل ما تريد. قريباً سوف تحتاج لطبيب خاص.

وقّع أيضاً. إنه الوحيد الذي فهم هذه اللعبة منذ بدايتها.

لقد قابلهم فرانك لحظة خروجهم. ساروا صامتين، ورؤوسهم منكسة إلى الأرض، لم يكونوا سعداء، وعندما قرأ فرانك تقريرهم في مكتب

التحرير فهم سبب مظهرهم التعيس، وعرف أنهم سيبقون طويلاً على هذا المزاج.

فرانك يعرفهم... وكيف كان ليتصرف لو كان في مكانهم؟ هل كان قد وقع؟ إنه لا يعرف. كان سعيداً أنه لا يوقع سوى أذونات السفر. ويشعر بالفخر لكونه مصوراً، ومصوراً للمسؤولين.

ولكن كيف انتشر الخبر؟ ومن سرّبَهُ؟ هؤلاء الثلاثة... حتماً لا، لأنّ مثل هذا العمل سوف يسوّد صفحتهم المهنية. جالوفيتش؟ جالوفيتش لا يتحدث عن الأسرار.. الأرملة؟ وهل كانت تعلم شيئاً عن نوع مرض زوجها؟ لم تكن تهتم بمرضه ولا حتى بنوعه.

وكيف تظهر مثل هذه الأسرار إلى الضوء؟ ربما كان أحد المخبريين الذين قاموا بفحص الدم. لقد كان المتوفى في المشفى وحيداً بغرفته، وكان المرضى يعرفون بوجوده، وكانوا فضوليّين، ويحبون معرفة نوع مرضه. من هنا إشارة، ومن هناك كلمة.

قرأ المحرر في مكتب النشر التقرير الرسمي وتجمد في مكانه.

مات من الأوريميا... قال لفرانك، وفهم فرانك لماذا ظهر أولئك الثلاثة عند خروجهم من مكتب جالوفيتش بهذا المظهر التعيس. وشعر فرانك معهم بمرارة كبيرة.

ستتجهّم وجوه الجميع من هذا الخبر كما تجهم وجه المحرر، جالوفيتش على الأغلب لم يكن يريد أن تعلن الوفاة على هذا الشكل، وجالوفيتش من التأخر والبدائية بحيث لا يمكنه أن يقرر هذه اللعبة، ولكن إن كان يريد أو لا يريد كانت هذه الفكرة مؤسفة، وخاصة بالنسبة للمتوفى، ولم تكن خدمة لائقة له في وداعه. إنهم لم يوفروه حتى بعد موته. لم يعرف فرانك مسؤولاً واحداً مات من الأوريميا.

غاص فرانك في أفكاره، حتى نسي ما حوله، ولم ينتبه لتغيير الحرس، وعندما أعاد نظره إلى القاعة وإلى التابوت لمح موكليك.

موكليك... لقد فوت فرانك فرصة مشاهدة تبديل الحرس، وانتابه شعور بالحيوية والرغبة بالتصوير، وبدأ يصور موكليك من الأمام ومن الخلف ومن الجوانب. صوّر عينيه الواقفتين بجانب التابوت كأحد حرس الشرف، ينظر في جميع الاتجاهات باحثاً عن نقطة تركيز ليلتقطها، كم أراد فرانك أن يكون بحوزته بودرة للعطس ليجعله يتحرك ويعطس، وكأن الله سمع نداءه واستجاب لرغبته، فإذا به يراه يبادر بحك أنفه ويفتح فمه، ويطلق عطسة قوية، ولم يتحمل، وبدأ بحك أنفه، استغل فرانك المناسبة وصوره بسرعة، وظهر الغضب في عيون أعضاء الحرس الآخرين من فعلة فرانك، عيونهم الغاضبة أرسلته إلى الخارج وكأنها تقول له، ماذا تفعل هنا، لماذا تشاغب؟ وعينا موكليك كانتا تتوسلانه بأن لا يستمر بهذه اللعبة، لكن فرانك استمر بالتصوير وقرفص وصور وأخذ صورة للرجل من الجانب ثم رفع آلة التصوير للأعلى وصوره من الأعلى، هذه الصورة ضرورية: موكليك يحك أنفه والميت الكبير في المؤخرة. لن يرى أحد هذه الصورة، ولا أحد سوف يفهمها ما عدا فرانك، وموكليك أيضاً الذي يعرف لماذا يصوره فرانك بهذه الشهوة.

تنفس موكليك الصعداء بشكل ظاهر حين انتهى دوره وجرى تبادل الحرس. ذهب فرانك بعدها إلى خلف الستارة وشاهده يجفف عرقه البارد. نظر موكليك إليه نظرة غاضبة.

ـ كيف حدث لك ذلك؟ سأله فرانك

ـ اغربْ عن وجهي. رد عليه والدموع تملأ عينيه. أخيراً هذه دموع في قاعة الحزن. قال فرانك لنفسه وكان ظاهراً أن موكليك يتعشق القفز على فرانك ليشبعه ضرباً. لكن الشجاعة كانت تنقصه لفعل ذلك، وتنبهت في مخيلته ذكريات الصفعات والرفسات الماضية التي أوصلته إلى الحدود القصوى من الغضب.

لقد كان مخبراً في المدرسة، وكان ملقباً بمكبك، ومنذ صغره التصق به ذلك اللقب. كان في المدرسة يفسد على الطلاب في كل شيء يراه، وإن لم يكن يرى شيئاً فإنه كان يخترع شيئاً ليوشي به على زملائه. كانوا يضربونه، وكان يوشي بهم لضربه، يضربونه من جديد ويوشي بهم ثانية. لقد ابتعد الجميع من حوله لوساخته ولمظهره الذي يدل على خسته، من عينيه ومشيته كانت تظهر الخساسة، كانت أذناه طويلتين، وهذه علامة فارقة تدلك عليه. في الحرب كان يكتب التقارير ضد هذا الميت، وضد فرانك، وينعتهم بالقتلة، والخونة، كان يسبهم علناً وفي الجريدة النازية حيث كان رئيس تحريرها، وحتى العدد الأخير قبل دخول الجيش الأحمر، كان يكتب: سوف نعود ونسحق هذه الحثالة.

في هذا العمل الوسخ استعمل كامل موهبته، كان يبدو لفرانك كالخنزير السعيد في الزبالة، لكن جميع محاولاته كانت بدون جدوى، لقد كان عضواً في حزب هلينكا، وكان أيضاً عضواً في مجموعته العسكرية، لكنه كان متديناً، ومثله في تلك الأوقات لم يكن لهم طريق للسّلطة. لقد كان بارعاً في الأعمال الوسخة فقط. ولم يكن ذلك يزعجه أو يؤثر فيه، وقد تابع نشاطه المحموم حتى اللحظات الأخيرة، لقد كان مهووساً، ويملك صحيفة، وبواسطتها يتابع انتقامه بكتابته الوشايات، والأكاذيب، والاتهامات، لقد كان سعيداً في وساخته.... سوف نعود.... كتب في المقال الأخير، لكن لم يكن هناك ما يعود إليه. هو لم يهرب حتى يعود، لقد اختبأ لوقت قصير، وعندما انقشعت الأمور، عرض خدماته على المعارضة السياسية، بدأ من جديد، ولكن هذه المرة لم يتحدث باسم الله، والشعب، بل ركز في أحاديثه على حماية الديمقراطية المقدسة وضد حكم الفرد، والحزب الواحد، لقد غير

اتجاهه فقط، لكنه لم يغير صناعته الكلامية وقاموسه، واحتفظ بقاموسه لمدة طويلة بعد ذلك، ووجّهه ضد البرجوازية الخائنة التي باعت نفسها للرأسمالية وللتروتسكية، كانت مقالاته مزبلة التاريخ، وبقايا الأدمغة المريضة، لقد عبر ثلاثة أنظمة سياسية، واستقر في الرابع.

وعندما وصل هذا الميت إلى رئاسة المنطقة، طرده من الجريدة ومن المدينة.

ـ لقد سمم الهواء هنا. كيف استطعتم تحمله أيها الرفاق؟

لقد كان هذا المتوفى في ذلك الوقت جريئاً ومتابعاً للعمل.

لقد فضحه، ونشر تاريخه، وكشف سجله. لقد كانت سيرة حياته مختصرة، وكتب فيها أنه انتظم في صفوف حزب الفلاحين ليتمكن من الإقامة في بيوت الطلاب التابعة لهذا الحزب. ودخل في الحرس لأسباب تتعلق بحمايته، وكان مسجلاً اسمياً فقط في الحرس، ولم يكن يدفع رسوم العضوية، وكانت مقالاته تدل على انحيازه للسوفييت، وللديمقراطية، وكان بذلك يغطي ماضيه، ليصبح نشيطاً في لجان محاربة الفاشية. ولولا بعض الظروف غير الملائمة لكان في وقتها جنباً إلى جنب مناضلاً بين المقاتلين الشجعان ضد الفاشية في زمن الاحتلال، لقد غفر له موقفه من عدم إعطاء المحتلين اسم أحد الصحفيين الذين كانوا يعملون مع المقاومة السرية، وما يتعلق بكتاباته؟ من مراجعة طريقته بالكتابة يبدو لك من الوهلة الأولى أنه أراد الإساءة لسمعة الفاشية.

وبعد سقوط الفاشية لم يعرف مباشرة الطريق الصحيح. فقد سقط لوقت تحت تأثير الشعارات البرجوازية، وأخيراً بعد انتصار الطبقة العاملة، واستلامها السلطة تفتحت عيناه، وعرف الطريق الصحيح.

في الأسفل وتحت توقيعه أضاف ما يلي:

لقد كتبت قصيدة مدح إلى هتلر، ولكنني كنت في ذلك الوقت ثملاً، ولم أكن أريد أن أنشر الشعر، ووصلت القصيدة إلى الصحافة بالرغم من إرادتي، لا أعرف كيف وصلت. إنني أتأسف، وأخجل من هذا العمل.

الرئيس الجديد لهذه المنطقة قبض على رأسه قائلاً:

ـ كيف يمكن أن يحدث مثل هذا الأمر؟ هل الرفاق عميان أو طرشان؟، كيف استطاعوا تحمله دقيقة واحدة في هذه المدينة؟ وقرر الرجل الكبير مباشرة:

تكسير الحجارة! لا يمكن أن يكون في مكان آخر. علينا أن نعطيه عملاً، وإن كان عليه أن يعمل فليكن في تكسير الحجارة!

هرب موكليك بسرعة من فرانك، وعندما عاد فرانك إلى قاعة الحزن، نظر في عينيّ المتوفى وقال:

لو كنت تعلم من كان يقف بجانب قبرك، ويخدم كحرس الشرف... موكليك الذي لم تتركه طويلاً في المكسر، موكليك الذي سلمته دائرة الصحافة في مكتبك، كيف استطعت أن تقبله؟ لكن فرانك لم يكن يحتاج شرحاً لسؤاله.

عندما أصبح المتوفى رئيس المكتب، دعا لحفله استقبال وتعارف، كان فرانك في الخدمة المسائية، وكان لقاء بعد أشهر طويلة، وكان فرانك قد قطع العلاقة معه منذ مدة طويلة، لكنه لم يستطع التهرب من مصافحته أمام الحاضرين الذين يعلمون مدى صداقتهما.

ـ تعال لزيارتي في المكتب. دعاه الرجل الكبير.

حاول فرانك التهرب، الاعتذار... أنت دائماً مشغول، مسافر أيضاً. لا لا، يجب أن تزورني.

أنا محاط هنا في المكتب بالكثير من حاملي الدكتوراه، والعناصر التي لا أعرفها، إنهم يخافونني، ولكني أعرف أنهم يكرهونني، ولا يمكنني

الاعتماد عليهم، علي أن أتخذ القرارات في أبسط المسائل، ثم قال لفرانك مباشرة ماذا يريد.

ـ كنا سابقاً مجموعه متفاهمة، وجيدّة، كنت أستطيع الاعتماد عليكم، أما هنا فقد اختلف الأمر، وإني أرى ضرورة تبديل الجميع من حولي بمعارفي، علي بسرعة أن أعين رئيساً للمكتب الصحفي. سكت الرجل الكبير، ونظر بتمعن في عيني فرانك.

ـ لقد فكرت بك... أضاف في حين أظهر فرانك عدم تفهمه للموضوع. لقد فوجئ فرانك بهذا العرض، فكر بسرعة بالجواب.

ـ تعلم... لكي لا أكون متسرعاً بالموافقة أو بالرفض. أنت تعرف كرهي للعمل الذي يتطلب الجلوس الطويل خلف الطاولة. إنني مصور، وإنني أحب هذا العمل، ولا أريد أن أقوم بعمل لا أستطيع أن أخدمه بشكل جيد، أعطني فرصة لكي أفكر بهذا العرض جيداً.

لقد كان عرضاً مغرياً.

ـ فكر ملياً. سوف أعطيك راتباً يعادل ثلاثة أمثال راتبك الحالي، وربما أكثر، ولن أعتمد على جدول الرواتب.

لم يتمكن فرانك مباشرة من فهم قصده. وعندما تفتح ذهنه، احمر وجهه. هل أراد أن يشتريني؟ يريد أن يشتري صمتي؟ ربما أسف لكونه لم يسجنّي في ذلك الوقت. إنه الآن لا يستطيع، يريد أن يصلح غلطته بهذه الطريقة. يريد شرائي.

راتب فرانك تعيس جداً، لكن هذا العرض لم يكن نظيفاً، واشتم منه فرانك رائحة نتنة، لقد ضبط نفسه، ولم يسمح للسانه بالانفلات، سوف يرفض بشكل لبق، بشكل لا يكلفه وظيفته الحالية.

ـ سوف أفكر بالموضوع. أجاب فرانك متهرباً.

الرجل الكبير شعر من جواب فرانك نوعاً من الموافقة، وبرر جواب فرانك على أنه نوع من الدلال.

ـ إذاً.. تعال لمقابلتي غداً. قالها الرجل الكبير مغموراً بالسّعادة.

لم يذهب فرانك لزيارته، وكان هذا أفضل مخرج بالنسبة له. واستغرق الرجل الكبير وقتاً طويلاً في البحث عن الرجل المناسب لهذه الوظيفة.

في أحد الأيام قام بدعوة رؤساء تحرير الصحف والمجلات لاجتماع في مكتبه، طلب رئيس التحرير من فرانك أن يقوم بتصوير الحدث التاريخي في مقابلة الرجل الكبير لرؤساء التحرير ومندوبي الصّحافة.

تجمد فرانك في مكانه حين وجد في صدر الطاولة الرجل الكبير وبجانبه موكليك. لم يصدق عينيْه.

ـ ماذا أرى؟ وهل ما أراه حقيقة؟! وشوش فرانك هذه الكلمات في أذن زميله الذي حضر الاجتماع معه. هل تعرف أنت أيها المسكين ما هي الحقيقة؟ وما هو مستحيل وغير مستحيل؟ رد عليه زميله مبتسماً.

لقد تصرف الرجل الكبير وكأن فرانك لم يكن موجوداً، ولم يعره أية أهميّة. وقف، وبدأ الحديث عن تطوير وسائل العمل المستقبلية والآفاق الكبيرة التي ستفتح أمام سلطة الصحافة، والواجبات التي على الصحفيين القيام بها، وضرورة تقوية العلاقة بين مكتبه والصّحافة، لكي تحصل الصحافة على الأخبار مباشرة من مكتبه.

ـ سوف نكرر هذه اللقاءات كل شهر أيها الرفاق، ورئيس مكتبي الصحفي الرفيق موكليك سوف يقوم بإعلامكم بالمستجدات المتعلقة بسياستنا التي سوف تخدم التطور العام لمجتمعنا.

رمق موكليك الصحفيين بنظرة الرجل المنتصر والابتسامة لا تفارق وجهه. إن أمثال موكليك لا يضيعون، إذا رميته من النافذة، عاد إليك من أنابيب المياه.

من أين جاء به؟ سمع فرانك أحد الصحفيين يتنهد. الجميع يعرفون موكليك. وأحس كأن الرجل الكبير يريد أن يقول له: أستطيع الاستمرار بدونك.

منذ ذلك التاريخ تغير قاموس الرجل الكبير، وأصبح كلامه وخطبه أكثر حدة وبذاءة. قبل ذلك الوقت كان حديثه مليئاً باللطف، والحنان. كان يتحدث إلى الناس بلغة مفهومة، ويشرح لهم آراءه بموضوعية وبأسلوب مقنع. كان يستطيع تحريضهم وجمعهم حول المهمات الصعبة، لقد تغيرت طريقة أدائه. أصبحت تسمع في المنصات كلاماً طويلاً، مملاً، ومحضراً بعناية. إن هذا المتوفى كان في السابق متفوهاً يجيد الحديث، وخطيباً رائعاً، علماً بأنه كان لا يعرف كتابة الخطب كتابة صفحة واحدة كانت بالنسبة له عملاً شاقاً، ومضنياً، وربما لهذا السبب لم يكن مغرماً بالصحفيين. وفي تلك الخطب المكتوبة التي كان يلقيها فقد كل مهاراته الخطابية، وبدت كلماته باردة، بدون حياة.

لقد استعان بموكليك لكونه لا يعرف كتابة الخطب، وبعد مدة بسيطة بدأ موكليك حملة التشهير به والحديث عنه، والمفاخرة بكونه يكتب له خطبه، ورسائله أيضاً. لقد كان موكليك مستعداً لكل شيء، وفي إحدى المناسبات كان ثملا، وصرخ بأعلى صوته:

ـ إنه يريد طبع مقالاته! لقد طلب مني أن أقوم بجمعها. لقد قمت بكتابتها بنفسي، وسوف تصدر بأسعار مرتفعة، ويقبض هو أجورها لجيبه.

لم يصدق فرانك ما سمعه، ولكن بعد مدة بسيطة خرجت خطبه بمجلد ضخم، غير أنها لم تُبَعْ في المكتبات، لقد أمر جالوفيتش بسحبها لوجود أخطاء سياسية في محتوياتها.

حصل فرانك على نسخة منها، وهي في منزله الآن، وجالوفيتش الذي أمر بسحبها من الأسواق لاحتوائها على أخطاء سياسية، كان أول

من قيمها تقييماً عالياً ولكن من هنا بدأت أسهم الرجل الكبير بالهبوط. بعد ذلك بمدة بسيطة أصدر المكتب الصحفي تعميماً على كافة الصحف والمجلات بعدم نشر اسمه، وصوره. ولم يصدق فرانك ما سمعه بأن موكليك نفسه قد اتهم الرجل الكبير بكتابته أخطاء سياسية في مؤلفاته الكاملة.

ـ 11 ـ

نفذ فرانك عدة لقطات بعد الظهر، بالإضافة لصور موكليك كدلالة على أنه لم يقف بدون عمل في حفل الوداع، وسلم فيلمين للتحميض. في بهو بناء الصحيفة، وقفت جمهرة كبيرة من الناس أمام لوحة الإعلان المثبتة إلى الجدار. وفرانك يعرف هذا الاهتمام من الناس، والناس يهتمون عادة بالمسيرات والجنازات وصورها، هذه صورتك، وهذه صورته، ويكونون سعداء عادة حين يجدون صورهم في اللوحة، وفي يوم الغد سوف يستمر هاتف مركز التصوير بالرنين لطلب الصور. إنها رغبة قديمة عند الإنسان أن يرى صوره مكبرة أو مرسومة بالزيت بشكل ظاهر على شاشة السينما أو التلفزيون، بالنسبة لفرانك الذي يقوم بالتصوير، وتكبير هذه الصور يبقى هذا الأمر غير مفهوم. نادراً ما يخلو بيت من بيوتهم من ألبوم مليء بصورهم، وهم يقومون أحياناً بقص المقالات من المجلات، والجرائد حين تكون هذه المقالات تتحدث عنهم، ويجمعونها في ألبومات خاصة، في سبيل الشهرة يمكن أن يفعل الإنسان أي شيء، وربما يتوصل للقتل. فرانك يملك الكثير من الذكريات المضحكة حول هذا الموضوع. فمثلاً أحدهم يدخل في جيبه مائة كورون ليقوم بتصويره بجانب أحد المسؤولين، أو يطلب منه محبان شابان وبخجل ظاهر أن يذهب معهما إلى المنزل، ويلتقط لهما

بعض الصور في لحظات وأوضاع حميمة، ويمتنع فرانك.... إن هذا ممنوع.

ـ لن يعرف أحد بالأمر. إننا متزوجان وسندفع لك ما تريد.

يرفض فرانك الفكرة من أساسها.. إن كانا متزوجين فما حاجتهما لمثل هذه اللقطات؟

ـ نريد أن نعرف مظهرنا عند القيام بهذه المتعة من الأعلى، والأسفل، ومن الجوانب.

ـ يمكنكما أن تضعا مرآة بجانب السرير.

ـ لقد قمنا بهذه المحاولة، ولكنها ليست فكرة أصيلة.

يريدان هذه الصور للذكرى.

ـ ألا تخافان أن يستغل أحد تلك الصور؟ الناس يدفعون المال الكثير للحصول على مثل تلك الصور.

لم يكونا خائفين، ولقد درسا الأمر بتعمق.

ـ سوف يذهب معك زوجي إلى الغرفة المظلمة، تقول الفتاة الشابة، وسيكون موجوداً معك عند تحميض الصور، سوف تظهران لكل نيجاتيف صورة واحدة ثم تحرقان النيجاتيف سوية. امرأة جميلة، وعند حديثها مع فرانك توردت وجنتاها.

ـ هل تدري؟ قالت لفرانك خجلة.. أريد أن أعرف كيف أبدو عندما أمارس الحب، أنا عادة أغمض عيوني، إننا نحب بعضنا كثيراً.

لقد صارع فرانك نفسه طويلاً حتى استطاع أن يرفض هذا العرض. وسبب رفضه كان، مصير الصور إذا حصل بينهما طلاق؟ سيتركان بعضهما حتماً، لأن مثل هؤلاء الشباب الذين يحبون بعضهم على هذا النحو، في بداية زواجهم، يفكرون بمثل تلك الأمور. سوف يمل أحدهما الآخر خلال مدة بسيطة.

لقد تخيل فرانك هذا المشهد لمدة طويلة: اثنان على السرير وحولهما الضوء من جميع الجهات، والثالث ينظر إليهما، وهما يمارسان الجنس، وهو يقوم بتصويرهم من كل الجهات.. هل يظنان أن المصور ليس إنساناً من لحم ودم وإحساس؟

فرانك يملك (وأي مصور لا يملك) مجموعة رائعة من الصور الفنية العارية، ويعرف فرانك أنه نادراً ماترفض امرأة تملك جسداً جميلاً مثل هذا العرض، ويمكن إقناعها بسهولة بالوقوف أمام الكامير والتعري، أغلب الفتيات اللاتي قام بتصويرهن لم يحتج لجهد كبير لإقناعهن، بعضهن كن يطلبن منه ذلك بكل صراحة، وجرأة. إن فرانك يملك حساً خفياً، ومدرباً للقوام والمظهر واللون والضوء، وهذا طبعاً من متطلبات عمله. هو يعتبر جسم المرأة أروع وأجمل هدية من الطبيعة، ويعرف أن العري التام لا يحدث تأثيراً قوياً كما لو كان الجسد مغطى بستار خفيف، ولكن فليكن ما يكون. فرانك لا يستطيع مضاجعة امرأة في حضور شخص ثالث ينظر إليه. وهل هذا شيء ممكن؟

لابد وأنه ممكن، وفرانك يعرف حالات مشابهة، لكن في هذه الحالات يكون الهدف مختلفاً، إنه نوع من الاستعراض، والشخص الثالث الذي يراقب هذا المشهد الجنسي يكون هدفه الإثارة وليس المضاجعة الحقيقية. ولكن هذين الاثنين كانا يريدان شيئاً آخر، كانا يريدان شيئاً لا يمكن التقاطه، ولكن من يدري، ربما بعد عشرات السنين سوف يقوم الأزواج بتعليق مثل هذه الصور في غرف نومهم فوق سرير الزوجية بدلاً من صور الطبيعة أو صور حفلة زواجهم، إن بقي هنالك رابطة زواج وسرير زواج في المستقبل.

سرير الزوجية.. فرانك يعرف أحدهم، وقد علق فوق سريره صورة عجيبة. صورة ملونة كبيرة لهذا الميت، وهو يحمل طفلاً فوق المنصة، ووالد هذا الطفل يعمل نادلاً في أحد الحانات الكبيرة، لقد سحب في

أحد الأيام فرانك من يده إلى لوحة الإعلانات أمام البناء وقال له: أنت من التقط هذه الصورة؟ اعترف فرانك بذلك.

ـ أريدها مهما كلفت من المال، إنني أريدها.

أرسله فرانك إلى السكرتيرة ليتفق معها.

ـ لا! إنني أريد صورة مكبرّة، وبأكبر حجم، وملوّنة.

ـ أنا لا ألون الصور. أجابه فرانك.

ـ لا بأس... لدي صديق يمكن أن يلونها.

ـ وماذا تريد أن تفعل بصورة كبيرة كهذه؟ ألا تكفيك صورةً من قياس 18 x13 للألبوم العائلي؟

ـ أريد صورة كبيرة أضعها فوق سريري.

ـ في غرفة النوم؟

ـ وأين يمكن أن يكون السرير... أليس في غرفة النوم؟

قام فرانك بتكبير الصورة إلى 30 60، ولم يَنْتَهِ الأمر، بل بعد شهر قام النادل بدعوة فرانك إلى منزله:

ـ عليك أن تراها.

ذهب فرانك معه إلى البيت، وشاهد الصورة معلقة فوق رأسه في غرفة النوم، وبدا له الأمر مضحكاً. ولكن هل هو مضحك؟ هل هو مضحك أكثر من ألوف الصور الزيتية الموجودة فوق ألوف الأسرّة؟ صور الملاك الذي يرافق الطفل البريء في الطريق الضيق بجانب الوادي، المسيح في أورشليم، القائد يراقب بفخر جنوده المقاتلين في المعركة الرابحة. إنه لمن العجب ما يقوم بتعليقه الناس في غرف نومهم وفوق سرير الزوجية.

نظر فرانك في وجوه الناس الذين كانوا يلقون النظرة الأخيرة على الميت، لم تبدُ عليهم السعادة أو التعاسة، كانوا فضوليين فقط. لقد

اختاروهم في المعمل لإلقاء النظرة الأخيرة، وهاهم هنا يقومون بما أمروا به بدون اكتراث. لم يكن يحبه أحد، لم يبكه أحد.

نعم لم يبكه أحد... ربما في أحد المنازل، وقف أحدهم ينظر إلى صورته الكبيرة وهو يحمل ابنه، متأسفاً على غيابه، ماذا سيفعل بتلك الصورة الكبيرة المكلفة اللونة الموضوعة في إطار مذهب.؟ إن ارتباطه بالمتوفى يختلف عن ارتباط أولئك الذين يمرون أمام تابوته، والمتوفى بالنسبة إليه أكبر شخصيَّة التقى بها، وهذه الشخصية الكبيرة تحمل ابنه، ابن إنسان عادي... نادل في حانة! إن النادلين يسمعون ويقولون عنه الكثير من الأخبار المؤلمة، ويكيلون له الشّتائم، لكنهم يغارون منه فقط، إنه رجلُ دولة، رجل عظيم، إنه يحمل ابنه! لقد أحب الأطفال، ولا يمكن أن يكون سيئاً من يحب الأطفال.

ولكن ماذا سيفعل بالصورة بعد وفاة القائد؟ لقد كبر ابنه، ولن يستطيع رفعه الآن ليحمله قائد آخر على المنصة.

لقد أنزلوا صورة الميت منذ عدة شهور من جدران المكاتب الرسمية، ولم يأمرهم أحد بذلك، الناس يملكون حساً خفياً بتغير الأشياء، وبعد عدة شهور لن تبقى صورته معلقة في أي مكان.

الأرملة سوف تزيل جميع صوره، وسوف تضعها في غرفة المؤونة، لكن أمثاله لن يختفوا من العالم، سوف يَسْتَمِرُّون لمدة طويلة. سوف يمر وقت طويل لحين وراثة طفل في الثالثة من عمره منزلاً بعد وفاة أبيه، ويعيد ترتيبه، فيرى في الجدار صورة مضحكة له مع أحد الرجال الذين لا يعرفهم، وهو يحمله بين ذراعيه، فيقوم بتبديلها بصورة لامرأة عارية أوبصورة أخرى من الصور الفنية.

وفي كل الأحوال إن هذا الميت وحيد، فرانك يعرف أن موته لم يترك أي أثر في الناس، إنه متفهم لردود فعلهم. إنهم لم يجلسوا معه، ولم يتقاسموا معه السيكارة الأخيرة، لقد بدت هذه الذكريات لفرانك بعيدة

جداً، بعيدة بحيث أنها لم تعد حقيقة. هل كانت حقيقة في يوم من الأيام؟ أليست تخيلات وأوهاماً؟ ألا يحاول أن يجعل منها صورة لتفكيره المثالي؟ هل كان حقيقة إنساناً عظيماً كما كان يراه؟ وإن كان إنساناً عظيماً فكيف انتهى بهذا الشكل؟ كيف زالت خصاله العظيمة التي كان يراها، والتي كان يحسده عليها قليلاً؟ الشجاعة، والقرار السليم، والحضور القوي والجرأة في تحمل المخاطر، الرغبة في المزاح اللطيف، التوازن الجسمي والنفسي، وليس آخراً التواضع.

مع ذلك كان يحب أن يكون الأول، وفي المقدمة، لكن فرانك لا يهمه منه ذلك، ولا أي سبب جعلهم يصنعون منه الرجل الأول، ويسمحون له بالصعود، لقد بردت منذ ذلك الوقت حماسته، وشجاعته، وتقلصت فيه الخواص التي مكنته من أن يصبح الرجل الأول. لقد وصل على الأكثر إلى ما كان يرغب به منذ مدة طويلة، وغش جميع من حوله. لقد جمع بين يديه السلطة، لكنه لم يستخدمها، لم تكن السلطة في يده وسيلة، بل كانت هدفاً. متى بدأ ذلك؟

متى تحولت في ذهنه كلمة أنتم في أنا؟ وهل كانت هذه الأنا موجودة فيه منذ القديم أم أنها دخلت تفكيره في الظروف الجديدة؟ ماذا استفاد من هذه الأنا؟ وما السعادة التي حصل عليها من مركزه؟

لقد حدث ذلك على الأغلب بعد إقلاع مرضه الخبيث، عندما دعا إلى حفلة عشاء على شرف وفود أجنبية، ووقف عند مدخل الصالون وصافح المدعوين، ولقد بدا الأمر مضحكاً لفرانك، إنه لم يصافح أعضاء مكتبه الذين كان معهم قبل ساعة على أكثر تقدير. أراد فرانك أن يتهرب من أنظاره، ولم يشعر بالرضى، سوف يتحرك ويصوره، يصور المدعوين، ولكن الصحافة سوف تنشر صورة جالوفيتش، وهو يعانق رئيس الوفد الأجنبي.

لقد بدا مريضاً، أصفر اللون، متعب الوجه، لقد تفشى به المرض الذي لم يكن يدري به؟ لم يكن واثقاً، وكان يشعر في الأيام الأخيرة بأنه ليس على ما يرام. الجميع من حوله يتصرفون معه بشكل مختلف، وحين مد يده لفرانك مصافحاً نظر في عينيه وقال له:

ـ حتى أنت خنتني.

وقف الجواب في حلق فرانك، كان يريد أن يقول له: لم يخنك أحد، ولكنك خنت نفسك، لكنه تمالك نفسه. لماذا؟

ـ لقد ساد بيننا جو من عدم الثقة، كلانا وحيد.

ـ لقد توصلت يا صديقي إلى هذه النتيجة متأخراً، ومع ذلك من الجيد أنك توصلت إليها.

ـ لقد ماتت الصداقة. لم ينبس فرانك ببنت شفة، وإن كان يرغب بتذكيره بنظريته الهامة في الصداقة: لا صداقات في السياسة.

كانت تلك المرة الأخيرة التي شاهده فيها، بعد ذلك وصلته أخبار مرضه، وعرف أنه في المستشفى وفي غرفة معزولة مخصّصة للمسؤولين، لقد فكر بزيارته، ولكنه وجد أنه من الأفضل عدم القيام بهذه الزيارة.

في أحد الأيام كان فرانك ماراً في طريقه بجانب المستشفى، ووجد أمامه حارسه الشخصي، كان يعرف أحدهما الآخر جيداً، لقد كان ذلك الحارس الذي لم يقم بواجبه أثناء رحلة العمل، وغفا للحظة في الطريق.

ـ هل أنت ذاهب لزيارته؟ سأله الحارس. أدار فرانك رأسه. توقف الحارس.

ـ إنه لأمر مؤسف، إنه يستلقي هناك وحيداً، ولا أحد يزوره. زوجته تسأل بالهاتف كل يوم عن صحته، وهي على ما أظن سعيدة عندما تعلم أن حالته أسوأ.

ـ وما هو مرضه؟

ـ وضعه سيء.. وعنده شيء في الدم. لا أدري بالضبط. لم يكن فرانك يحتاج للسؤال مرة أخرى، وفهم.

ـ وكيف أنت؟ وما أحوالك؟

ـ بالنسبة لي... خليفته سيحتاج إلى حارس.

ـ وهل تحب هذا العمل؟

ـ أنا لا أجيد عملاً آخر، كما أنه لم يكن عملاً سيئاً، ولقد أحببته... ألن تمر عليه؟ سوف يسعد برؤيتك.

ـ لا... أجاب فرانك.

لقد دهش فرانك من كلام الحارس المطيع، وفكر بكلام صديقه:

ـ لقد خانني الجميع.

وأعاد فرانك القول الذي لم ينطق به أمام صديقه في حفلة العشاء:

ـ أنت الذي خنت نفسك.

ـ 12 ـ

استقبلت بافلينا فرانك في المنزل، وأخبرته أنها اشترت بطاقتين للسينما، لم يتوقف العرض في السينما والمسرح بسبب الحزن الرسمي، وإنما تبدل البرنامج المقرر ببرنامج أكثر جدّيّة. لقد توفي رجل دولة، ولكن الحزن الرسمي لم يعلن، أحس فرانك بالشفقة عليها، ولم يرغب في رفض طلبها. مضى زمن طويل لم يخرجا فيه سوية، لا أريد إزعاجك، ولكن علي أن أقوم بعمل هام، أرجوك لا تغضبي مني.. بافلينو.

ـ في المرة القادمة،.. أعدك بالذهاب.

ضمها لصدره، وكانت طريقته المعهودة في تهدئة خاطرها. وقال في نفسه. إنها محقة، لقد أهملتها أكثر من اللازم، وأعاد العبارة التي يستعملها دائماً:

ـ لا تنسَيْ أنَّكِ زوجة مصور يا عزيزتي.

ـ دائماً مشغول، ولا وقت من أجلي، ثم رَجَتْهُ قائلة:

ـ لا تفرط بالشرب... ترجته بنظراتها حين هَمّ بالخروج.

وجد فرانك ذلك المنزل بسهولةٍ، بيت خشبي قديم موشك على السقوط، لم يكن هناك جرس على الباب مما اضطره لقرعه براحة كفه.

فتحت له ماركيتا.

ـ مرحباً جيتكو حياها بحرارة، وبدت سعيدة برؤيته، وقالت له:

ـ شيء جميل منك أن تحضر.

ـ لم أكن أعرف أنك تسكنين هنا، لو عرفت لكنت حضرت من مدة طويلة.

لماذا الكذب؟ قال فرانك لنفسه لقد جئت إليها لأنه مات، عندما كان على قيد الحياة لم يكن هناك معنى من وراء زيارتي.

كان المنزل مليئاً برائحة الإسفلت والعفونة، ولاحظت ماركيتا انزعاجه، وبادرته:

ـ أنت تعلم كيف تسير الأمور. تنفست بعمق وأضافت:

ـ لم يكن بوسعي أن أقبل منه شيئاً، ومارتين يشاركني ذاك الرأي، وأنت تعرف علاقتهما.

أجلست فرانك على كرسي خلف الطاولة في المطبخ الذي كانت تقضي فيه على الأغلب طوال يومها.

عبرت في ذهن فرانك صورة المطبخ في البيت الصغير الذي ترعرعوا فيه. على النظافة التي كانت تملؤه، والطاحونة الهولندية التي كانت تزينه، والجدار المزين باللوحة القماشية المطرزة بشكل رائع والتي كتب

عليها: مهما كان الضيف حبيباً، يجب ألا تطول زيارته ثلاثة أيام، وإذا كان حبيبي سيسقيني الماء فقط، أبكي على فقدي حريتي معه، وحيث يكون الطبخُ لذيذاً يكون الحب موفقا.. لم تتغير ماركيتا. هنا لا يتغير شيء. لقد بقيت على حالها. كما أعرفها قوية، واثقة من نفسها وبسيطة، ولهذا ربما تركها، لم تكن مناسبة لمركزه الجديد. من الغرفة المجاورة أطل مارتين بصحبة فتاة شابّة.

ـ لم تتوقع حضوري بهذه السرعة... أليس كذلك، سأله فرانك وهو يضحك.

فجأة بدأت ماركيتا بالبكاء.

ـ لماذا الدموع يا أمي؟ لا تبكي. إنها تبكي باستمرار منذ يومين. قال مارتين ونظر إلى فرانك.

آه منك أيها الشاب. ما هذه الكوميديا التي تلعبها أمامي. أنت حزين أكثر منها، وتتظاهر بالقوة.

خرجت الصبية من الغرفة بهدوء، لم تكن تريد التدخل في الحديث المتوقع، وضع فرانك على الطاولة زجاجة فودكا، كان قد اشتراها في طريقه.

ـ أرجو ألا تمانع يا مارتين؟

ـ طبعاً لا أمانع، رد عليه.

جلسوا إلى الطاولة، وتحدثوا في كل شيء ما عدا الموضوع الذي كان يفكر به ثلاثتهم، بعدها ذهب مارتين للنوم، على العمال الاستيقاظ باكراً، وبقي فرانك جالساً مع ماركيتا حتى منتصف الليل، تحدثا عن كل شيء، وتذكرا الماضي، ولكن لم تبدر من كليهما كلمة واحدة عن الميت، وعندما نهض فرانك خارجاً قالت له ماركيتا:

ـ لم يكن أحد بجانبه ليغلق له عينيه عند موته، لقد أبعد الجميع من حوله، حتى أنا لا أذكره بالخير، وليس من أجلي، لقد أصبح هذا

الأمر من الماضي، ولقد نسيته، ولا أحقد عليه من هذه الناحية. من الصعب الاحتفاظ بالرجل عندما يكون غير راغب بالاستمرار، ولكن أن يطرد ابنه الوحيد من بيته كالكلب الوسخ...

لم يتوقع مارتين شيئاً أفضل من الذي حدث.. إنه من بذرة مختلفة، ولم تكن تلك الحياة لأمثاله يا كيتكو.. (اسم الدلع لماركيتا).

ـ المهم أنه وجد طريقه وحده، وأنت... ألم يمنعه عنك أيضاً، إنه لك الآن، ولا أستطيع التعبير عن فرحتي بمشاهدتكما سوية في هذا المساء.

ـ قل لي بربك ماذا حصل لنا؟ فكرت يوماً بأن نهايتنا ستكون على هذا الشكل؟

ـ لا يا كيتكو... إن ما حدث كان بفعل السلطة، كنا غير مستعدين، ولم نعرف التصرف، وحتى هذه اللحظة لم نتعلم.

ـ لم أقدر على متابعة العيش معه بالطريقة التي أرادها، كنت دائماً أتراجع أمامه، أسكت، لم أكن أريد شيئاً ليس بمقدور الآخرين الحصول عليه، وما الفرق بيننا وبين السادة السابقين؟ كان كل شيء زيادة في منزلنا، والآخرون عاشوا على مساعدة الدولة، لم أكن أستطيع النظر في عيونهم، كنت أشعر دائماً أنني متهمة. وعندما أحضر ورقة الطلاق، تألمت كثيراً، وأنا الآن أحمد ربي. هذا بيت قديم، مليء برائحة العفونة، ولكني أشعر فيه بمزاج أفضل.

ـ هل كنت هناك؟ سألها فرانك.

ـ لا.. ولن أذهب. لقد مات بالنسبة لي منذ مدة طويلة، ربما أحببته في الماضي. إن الرجل الذي تركني لم يكن هو، بل كان رجلاً آخر.

تذكر فرانك الرسالة التي أرسلها اليه صديقه حين أفرجوا عنه:

اعتنِ بماركيتا كما تعتني بعينك، وساعدها، لا تتركها تحتجّ شيئاً، دعها تعتنِ بولدي. إنه سيعيش حياة أفضل.

في تلك الأثناء فكر بمستقبل ابنه الذي لم يكن قد رآه بعد، وعندما ولد مارتين، كان مرة أخرى في السجن، ولم يتركوها تزوره في حينها مع ابنه، وعندما أطلقوا سراحه، وتأهب مع فرانك للذهاب إلى الجبال، قال لماركيتا:

ـ سوف نقاتل، عليك الآن العناية بمارتين، وهذا أيضاً نوع من النضال أيضاً.

بهذه الطريقة أنهى حديثه، ووداعه، لقد كانت تريد الذهاب معه إلى الجبال.

ـ النساء لا عمل لهن في الجبال.

أطاعته، كما أطاعه الجميع في ذلك الوقت، كان هناك نساء في المعارك، وقاتلن أيضاً، وكن محاربات باسلات، وربما أفضل من الرجال.

إنه اليوم هناك وحده في المستشفى، غريب بالنسبة لكليهما، وغريب بالنسبة للجميع، ولكن ماركيتا وفرانك عرفاه في صورة مختلفة، عرفاه حين كان النضال في سبيل المبادئ هوايته وهدفه، عرفاه حين ضربه الجنود بقساوة مفرطة، ولم يعرفوا ما يمكنهم أن يفعلوا به، ضربوه حتى أغمي عليه، وكان الجنود البسطاء في القرية يهابونه، كانوا يتحدثون عنه قائلين: إن ثورة يقف من خلفها مثل أولئك الرجال الشجعان ليست حلماً غير قابل للتحقيق، ولا يمكن إلا أن تدخل التاريخ من بابه العريض.

كان يقود الإضرابات، ويحرض الشعب في الساحة، أرادوا شراءه، وإسكاته، كرهوه، ولكنهم كانوا يحترمونه، كان موجوداً حيث كان الموقف يتطلب رجالاً شجعاناً، وحين انتهت المذبحة الأوروبية، أرسلوه

إلى الأماكن التي كانت تحترق، شغل منصب المسؤول عن تجديد السكك الحديدية، وجلس في المحاكمات الخاصة كمراقب، وعمل مسؤولاً عن المبيعات. لم يكن لديه وقت لعائلته، وبيته، كان ينخطف إلى بيته للحظات، لقد أخذ العمل كامل وقته.

ماذا جنى من كل ذلك؟ بقع سوداء تحت عينيه من ندرة النوم، وجيش كامل من الأعداء. بدأ تسلقه الجديد كقائد للميليشيا الثورية، نظف دوائر الدولة من الأعداء، نظف البنوك، والإدارات، أخرج للضوء كل القذارات التي كان عليها أن تبقى مستورة، لقد كان شعاره في ذلك الوقت: الهجوم، الضَربة القاضية، المعركة، احتلال مراكز المعارضة، تحطيم الخونة.

لقد كان يوماً يشاهد مع فرانك في أحد دور العرض فيلماً روسياً، وفي إحدى اللقطات شاهد لينين يسلم أحد العمال الأميين إدارة أحد البنوك القيصرية، عندما شاهد هذه اللقطة شعر بفرحة كبيرة واعتزاز. ولقد عاد إلى هذا الموضوع في كثير من المناسبات، سلط نار غضبه على المثقفين الذين يقفون في وجه الطبقة العاملة، وتركوها تتخبط في أخطائها، وجهلها، ومنعوها بذلك من الوصول إلى المراكز القيادية.

إنه من هؤلاء الذين أوجدوا أعداء لهم في الحزب، أولئك الذين يعشعشون في مجموعات، من المنحرفين، والمتسلقين، والمثقفين، والعملاء... يجب طردهم قبل أن يحرفوا الثورة ويخربوا الحزب.

ازداد صفاءً على صفاء، أظهر كفاءة فائقة في عمله، وأرسلوه إلى مناطق أخرى ليقوم بتنظيفها، طلبوا منه أن يكون حازماً، وصلباً، ألا يرحم أحداً.

لا تخف من أحد، وكن عنيفاً مع العدو. عندما تقطع أشجار الغابة تتطاير الفروع ومن أجل الفروع لن يحاسبك أحد.

بدأ يقطع، وبدأت الفروع بالطيران، نظف المنطقة بكاملها، بدأ يتدرّج في سلّم السُلطة.

من السهل قطع الشجر، ولكن الشجر الجديد ينمو ببطء. ألم تكن مأساته. أنه، وجد نفسه وحيداً في غابة فارغة؟ لم يعد هناك ما يقطعه، سقط الكبار ولم يعد هناك ما يعيق صعوده، وبرز فوق الجميع كعملاق، الساحة فارغة، معنى ذلك أن بالإمكان التخلص من الكبار، ومعنى ذلك أنه لابد وأن يكون أحدٌ قد بدأ به، ويريد إزاحته. ماذا يعرف عن مخططاته وأهدافه أولئك الذين قام بتصفيتهم؟ لقد كانوا يبتسمون له، ويبتسم لهم، ويصافحون بعضهم، ويتبادلون النكات في مجالسهم، لقد تسامروا، وضحكوا ملء قلوبهم، ولكن في اليوم التالي ثار غاضباً منهم وتحدث عن خيانتهم. هؤلاء أصدقاء الأمس. الابتسامة، والمصافحة، إنها طريقة في تكتيك أثناء الصراع الطبقي. في الصراع الطبقي؟ نعم، وحسب رأيه كان ذلك صراعاً طبقياً، وهل تغير شيء الآن؟ إنه يتقابل الآن مع الناس، ويصافحهم ويبادلهم النكات، لكنه أصبح كبيراً وواجبه أن يفتح عينيه وأذنيه جيداً، ليكشف المرتدين عن الثورة. يجب عليه معرفة الناس الذين يثق بهم، وبمن يثق؟ من منهم يؤمن اليوم بالقضية؟ إنه ما يزال مؤمناً، ويعرف نفسه، أخيراً إنه الوحيد المؤمن بالقضية، لقد بقي بمفرده رجلاً كبيراً في الغابة الفارغة.

قبل الوداع وبالقرب من الباب قالت ماركيتا لفرانك:

ـ لست نادمة على شيء، كنت سعيدة، وإنني سعيدةٌ لأنه تركني. كنت لن أتحمل رؤيته يتهاوى أمام عينيّ، لقد بدأ بالسقوط منذ اللحظة التي تعرف بها على تلك الشقراء. لقد فعلت ما بقدرتي لمنع هذه الكارثة، لكنه كان دائماً ينفذ إرادته.

- 13 -

خرج فرانك إلى الجو الصقيعي، وكان عليه أن يسير ببطء وبخطوات قصيرة خوفاً من الانزلاق، كانت الأرض كالمرآة المصقولة الناعمة، وكان رأسه ثقيلاً من المحادثة مع ماركيتا، لم يكن راغباً في النوم، ووجد نفسه قريباً من حانة ليتسكا، وقرر الدخول قائلاً لنفسه: ربما أراها وراء البار.

هناك وقفت ليتسكا، لقد تغيرت الحانة، وبدت عتيقةً، إنها تحتاج لترميم عاجل. لقد كانت في وقت من الأوقات من أجمل الحانات في المدينة، وليتسكا أيضاً كانت في تلك الأوقات من أجمل النساء، وأكثرهنّ إثارة، لكن الأشياء تتغير، وكل شيء يعتق، ويستهلك، الإنسان من هذه الأشياء أيضاً. المقاعد وسخةٌ، والقماش الذي يغطيها مثقوبٌ في بعض أماكنه، وقد امتلأ سقف الحانة ببقعة صفراء من الرطوبة الناتجة عن تسرب الماء من السطح، بَدَا السقف كلوحة تجريدية، وامتلأ جسم لوتسكا بالبقع البنية، أين ذلك الجسم الذي كان منذ مدة ناصع البياض؟ ومن فعل به ذلك؟

لم يسرع فرانك باتجاه البار، بل وقف في منتصف القاعة، وأدار رأسه متفقداً ما حوله. كانت الحانة شبه فارغة إلا من بعض الغانيات اللاتي ينتظرن فريسة دسمةً، جلس في الزاوية شاب يرتدي سترة جلديّة يتحدث مع فتاة متوسطة الجمال، لقد كان هناك أيضاً بعض العجز ولكنهم بدوا أكبر سناً.

كان الجدار في السابق مزيناً بلوحات زيتية رائعة، بحر أزرق، مانهاتن الأبيض (هذا كان اسم البار سابقاً)، تمثال الحرية يمر أمامه قارب بخاري كبير، ويقف عليه رجل لفحته الشمس، يغازل سيده، لابدّ وأنّ الألوان التي استعملت في رسم هذا العمل تساوي اليوم مئات الألوف. في هذا الجو المليء بالدخان تبدلت الألوان، الزمن لم يرحم هذا العمل الفني، مانهاتن الأبيض أصبح أصفر، بدا بالياً كالعديد من المنازل في هذه المدينة التي تنهار سقوفها، ربما مسح أحد رواد الحانة الثملين وجه صديقته الملون بمكياج المساء في هذه الصورة، وربما رمى أحدهم كأساً من النبيذ الأحمر في طرف اللوحة.

هذه الحانة الفاخرة استملكتها دائرة الفنادق والمقاهي في البلدية من صاحبها في أجمل وضع، ولمدة بسيطة جعلوها مستودعاً للمواد الكهربائية، بعدها تبين للقائمين على البلديّة بأن الثورة لا تعني نهاية كل شيء، وأن الحياة مستمرة، وأن النبيذ والشراب لا يمكن الاستغناء عنهما، فبدلوا اسم الحانة، وأصبحت دوكلابدلاً من مانهاتن، العقول المفكرة في البلدية درست موضوع لوحة مانهاتن، ووجدت أنها رمزٌ لأسوأ بلد في الدنيا: واقترح أحدهم أن يرسم على تمثال الحرية صورة لرجل أسود مشنوق، لكن هذا الاقتراح لم يَحْظَ بموافقة الأعضاء. وبعد تفكير طويل قرروا ترك البحر، والقارب أيضاً، ورسم علم على سارية القارب، وإلباس الرجل على القارب ثياب عمال، والفتاة لباساً شعبياً، وأخيراً جاء اقتراح وجيه من أحد العقول: تترك اللوحة على حالها ويكتب في أسفلها شعارٌ ثوريٌ على الشكل التالي: العملاء كانوا في هذه الحانة يحلمون بالدولار.

اتفق الجميع على هذه الفكرة، وأُنقذت اللوحة. لقد أرادوا أن يذكروا بأن مثل هذه الأماكن كانت في العهود البالية ممنوعة على الطبقة العاملة، وحكراً على الأغنياء، وأن الطبقة العاملة انتصرت،

ومنحت العمال مكاسب كبيرة، أحدها، من يدري كم من الوقت سيمضي لحين إعادة اسم مانهاتن لهذه الحانة؟ ربما سيقومون أيضاً بترميم المكان، وتجديده، ولكنهم لن يستطيعوا ترميم وتجديد ليتسكا. لقد كان فرانك يتردد إلى هذه الحانة من أجل رؤية ليتسكا، وليتسكا لن يرممها أحد.

إنها ما تزال تقف وراء البار، وبشرتها الصافية البيضاء تبدلت بلون شاحب مرضي. إنه لون الوظيفة التي تقوم بها، نمت تحت ذقنها كتلة دهنيّة. وورِكاها التي فتنت الجميع بهما تشوها، عندما خرجت من خلف البار إلى المطبخ، لاحظ فرانك في ساقيها خطوطاً عريضة زرقاء من الدوالي. لقد قضت هنا ألف ليلة...

حتى عيناها الزّرقاوان لم تعودا كما كانتا صافيتين، لقد بقي شعرها على حاله بفعل الصباغ لكنه لم يكن أشقر، على كل حال إن شيئاً منها قد بقي.

ـ شعرك ما يزال جميلاً.

ابتسمت على عادتها، تذكر الأوقات التي كان يجلس فيها أمامها على البار ينظر بشراهة إلى صدرها العامر الذي كان يتمنى دائماً أن يمدّ يده إلى استدارتَيْهِ... ابتسمت، وقالت:

ـ دائماً نفس المداعبة يا فرانك، إنك لا تنسى، لكنهما لم يعودوا كما تعرفهما، إنهما الآن بحاجةٍ إلى حَمالةٍ.

ـ ماذا تشرب؟

ـ كالعادة، فودكا، ولكن مع قطعة ليمون.

ـ ليمون... ها.. ها.

ـ لقد كبرت يا فرانك.

ـ هذا صحيح، ولكنه غير مهم.... أما أنت...

ـ في هذه الحياة.

لقد كانت رائعة الجمال تذكر فرانك عندما كانت مليئة بالحيوية، لقد كانت مشهداً رائعاً في اللوحة الليلية. كانت محط أنظار الجميع من شعراء ورسامين، وضباط، وكانوا يجلسون، ويشربون أمامها، يتمتعون بجمالها من وراء البار، ويلتهمون جمال عينيها، وشعرها، وفرانك كان أحدهم. لقد كان ليفعل أي شيء للوصول إليها. وتذكر كلامها:

ـ إنك لطيف.. ابتسمت، لا يمكن أن أبني معك أي علاقة، إنني الآن سعيدة بهذا الوضع، ولا أحب التبديل.

لم يتراجع. بل زاد من هجومه، ومحاولته، وإغرائه لها، (وتصورها في أوضاع جنسية لطيفة)، قارنها بالنساء اللاتي عرفهن، لم يجد واحدة تساويها روعة وجمالاً، وممانعتها أوصلته في بعض الأحيان إلى الجنون، ولقد فاتحها برأيه.

ـ يا مسكين. ومررت يدها فوق يده: إذا كانت حياتك تتوقف على الوصول إلى جسدي، فإنني لا أريد أن أتحمل هذه الخطيئة. لقد تأثّر فرانك من كلامها، وقرر عدم لقائها ثانية.

في إحدى الليالي استيقظ من نومه، وارتدى ثيابه، وذهب إلى المدينة، سار أمام باب الحانة، وشيءٌ ما شده للدخول إليها، لكن شيئا آخر منعه، ولم يدخل، وانتظر، شتمها لأنها تلعب معه، وبعواطفه، ترافقه، وترافق غيره، ربما تكون باردة جنسياً أو مختلّةً، ربما كانت سحاقيّةً، إنها تسخر منه، لابد أن لها صديقاً تعيله، وتعيش من المال الذي يغدقه عليها الطلاب والفنّانون، والرسامون، والمهندسون الذين يتحرقون لجسدها.

لم يدخل، وبقي لمدة طويلة منتظراً أمام الباب، انتظر أشهراً، وربما أكثر، ولكنه لم يدخل.

في أحد الأيام بينما كان منشغلاً في عمله في مكتب التصوير، رن جرس الهاتف، كانت ليتسكا على الطرف الآخر من الخط، وطلبت منه بصوتها الرقيق الحضور لمنزلها:

ـ فرانك أرجوك، تعال لنشرب كأس ويسكي، إن كان لديك وقت، ورغبة.

تعثر فرانك في الرد، وأخيراً أبلغها أنه سوف يلبي، قال لزملائه إنه ذاهب لأمر ضروري، ركض، ودار حول منزلها أربع مرات لكي لا تشعر أنه حضر بسرعة.

أجلسته بجانبها على المقعد الوثير، شربا كأساً، وأمسكَتْ يده بحنان وقالت:

ـ فرانك يا حبيبي، لقد افتقدتك كثيراً، أعرف أن كلامي سخيفٌ، ولكن ما العمل؟ الحياة معقّدةٌ، وعندي ما يكفي من المشاكل، إنك لطيف، وليس من الصعب عليَّ أن أذهب معك، لقد فعلت ذلك مراراً مع غيرك، ولن يكلفني ذلك الكثير، امرأة مثلي يمكن أن يكون لديها مائة عشيق، ويمكنها البدء من جديد كالعذراء، لكنني لا أستطيع العيش بهذه الطريقة، لا أريد أن أكون امرأة للتعويض. إنني إن أحببت فليكن الطوفان، جسمي لا يتحمل ضوء النهار، وأتمتع بفعل الحب في الليل. اليوم السابع في الأسبوع مقدس. وعطلتي الأسبوعية في يوم الثلاثاء. في الثلاثاء من السابعة حتى منتصف الليل أكون حرّة، وفي هذا اليوم يمكننا أن نكون معاً، ولكن سيكون عليك أن تنهض للذهاب إلى بيتك عندما يحلو لي البقاء معك، أنت مرتبط بعائلة، واثنان وخمسون ثلاثاء في العام لا يكفيني،، هل هذا ما تريد؟ أنا لاأستطيع الاستمرار بهذا الشكل، إن نفسي تقطر حزناً على أولئك الرجال الواقفين بانتظاري حول البار، يحدقون إلي بعيونهم المتعبة، ويهمسون بأذني أجمل الكلام، ينتظرون، وينزعجون من ملاطفتي الآخرين، يمثلون

حبهم للشراب، ولكنهم في الحقيقة يحاولون إغوائي، وينتظرون أن أذهب مع أحدهم، وفي الثالثة والنصف يحضر المدير ويبلغهم بصوت ساخر بانتهاء العمل، علي أن أبقى ساعتين على الأقل بعد ذلك أمام الأوراق لأدون كل غرام بعته للزبائن، كل طلبيّة على حدة، وأخرج من العمل ميتة، متعبة في الخامسة، وأمضي نصف ساعة في الطريق إلى المنزل، ورغبتي الوحيدة هي النوم. النوم ثم النوم.

في إحدى الليالي انتظرني أحد الزبائن الصابرين بسيارته، ماذا كان علي أن أفعل؟ أخذته لبيتي، وبمجرد استلقائه على السرير، غفا في نوم عميق. صدقني لن يسعد أحد معي. هذا ما أردت أن أشرحه لك.

ـ لكنك لا تستطيعين أن تعيشي بهذا الشكل إلى الأبد!

ـ ماذا بقي لي غير ذلك؟

ـ كان بإمكانك... وفوجئ فرانك بابتسامتها.

ـ ماذا أستطيع أن أفعل؟ أبحث عن عمل آخر، في أوقات الصباح، أليس كذلك؟ كان بإمكاني، هل كنت ستقوم برعايتي، جميعهم يقولون لي هذا الكلام، ومنهم من وعدني بالزواج، وأقسم على ذلك، وأقسم أيضاً أنه لا يشعر بشيء نحو زوجته، وبكى، وصرح بأنه زواجه كان خطأ فادحاً، إنهم مساكين، لا يعرفون شيئاً من الدنيا، كنت أحياناً أصدقهم، وأشعر بالأسى نحوهم، لقد عشت حباً كبيراً يا فرانك، وكم استغرق؟ سنة؟، وكم استغرق الحب الثاني؟ نصف سنة؟ هنا على هذا المقعد الذي تجلس عليه الآن وعدني أحدهم برحلة إلى البحر وقضاء أسابيع رائعة. لم أره بعد ذلك، حتى أنني لم أنتظره، كان مهندساً. وصرف في تلك الليلة راتبه الشهري. إنني أعرف الكثير يا فرانك عن وعود الرجال. إنك لطيف، لا أدري سبب حبي لك، أنت إنسان مختلف، وأشعر معك بالأمان، والراحة، لقد شعرت بالذنب حين غضبت مني في تلك الليلة، وافتقدتك فعلاً، لهذا طلبت منك الحضور.

شعر فرانك بأسف وحزن عميق. إنها مُحِقّةٌ. كان يمكن أن يقول لها، ليتسكا لا أستطيع العيش بدونك، سأفعل أي شيء تريدينه، سوف أترك زوجتي من أجلك، لكنها سبقته بهذا الكلام، ولا يستطيع الآن أن يقنعها بمشاعره، لقد كان راغباً في الماضي بمصارحتها.

كيف جاءه صوتها من بعيد وهي تقول له: ليس من الصعب أن نستلقي معاً في السرير يافرانك، ربما سيكون أصعب بكثير لو أننا لم نفعل. جلس فرانك بمواجهتها وشعر نحوها بشيء جديد، أحس بها وبعواطفها وصدقها، طبعاً هي مُحِقّة، كان فرانك متأكداً أنها كانت تستطيع قول أشياء مختلفة، كلاماً معسولاً، مهيجاً، ولو أنها كانت قد ضمته لصدرها وأسمعته كلاماً مغرياً في الهوى، والحب لكان صدقها أيضاً، لكنها لم تفعل. لقد نطقت بالحقيقة.

ولكنها مع ذلك حياة مزعجةٌ... أنت لم تخلقي لتعيشي كراهبة، عندك شيء، وهذا الشيء لن يبقى للأبد، سوف ينتهي في يوم من الأيام، وماذا أنت فاعلة بعدها؟ تابع فرانك حديثه.

لقد أحببت أحدهم. أحببته كثيراً، ولا أدري السبب، أحببته، لكنه محرم علي ولا أستطيع معاشرته، لاوقت لدينا للقاء، إن دنياه ودنياي لا تلتقيان.

ـ من يكون؟

ـ لن أخبرك، لأنك سوف تضحك.

بدأ فرانك يتردد إلى حانة دوكلا، وكان يزور ليتسكا أحياناً في البيت، وفي إحدى المرات عندما كان بزيارتها قالت له:

ـ تعال يا فرانك. الزمن يضيع منا، والسنين تمر بسرعة.

كان ذلك في يوم عطلتها، قضى معها يوماً كاملاً لم يبارحا فيه السرير، كان يوماً رائعاً، شيئاً لا يوصف، لقد عاش فرانك حلماً مليئاً بالروعة والسعادة، وكانت هذه الليلة الأولى، والأخيرة، ونهاية كل

شيء بينهما. زارها بعد ذلك مرة أو مرتين. لقد أصبحت ليتسكا الجميلة من الذكريات والماضي، في الماضي كان مستعداً لفعل أي شيء من أجلها، ومن أجل الوصول إليها. إنها الآن خلف البار عبارة عن إنسانة، إنسانة لطيفة فقط.

لمس أحدهم فرانك من كتفه. نظر إلى الخلف، ووجد خلفه البرفيسور فوندا:

ـ هل يمكنني الجلوس معك؟ سأله بكل أدب.

ـ تفضل.

ـ لم أكن أدري أنك من طيور الليل يا فرانك.

ـ وأنا كذلك لم أكن أظن أنك منهم.

ـ مضى وقت طويل لم أرك فيه.

ـ زمن طويل، قال فرانك.

ـ وماذا تشرب؟

ـ فودكا.

ـ يا آنسه اثنين فودكا من فضلك! سوف أشربها معك لذكراه.

ـ أنا لا أشرب لذكراه.. رد عليه فرانك. بعصبية.

ـ لا بأس، ومع ذلك دعنا نشرب لذكراه، أظن أنه مات في الوقت المناسب.

نظر فرانك في عيني البروفيسور واندهش من كلامه، بماذا تفكر؟ كان واضحاً بماذا يفكر، ولم يكن يستطيع أن يفكر بشيء آخر.

ـ بأي شيء تفكر؟

ـ هكذا كما أقول لك، لقد مات في الوقت المناسب، الموت في بعض الأحيان رحمة من الرب. ولقد أنقذه الموت من أشياء أسوأ.

ـ الأمر سيان بالنسبة إليك.

ـ نعم يمكن أن يكون.، لكن ألا ترى أن الحياة غريبة؟ تصورْ يا فرانك أنه لم يكن سيان بالنسبة لي.

ـ تريد أن تقول لي إنك منزعج، وحزين من غيابه.

ـ حزين.. لا، ولكن غيابه مؤسف، لقد كنت تعرفه جيداً وعن قرب.

فكر فرانك بكلام البروفيسور، هل هو جاد في كلامه أم يسخر منه؟

ـ لقد كنت دائماً ذا طباع غريبة.

ـ لماذا؟

ـ بالرغم من أنه انتهى، لكني أسفت عليه، أعرف أنه تغير. ومن السهل أن تتغير وتسقط، إن كانت الظروف تساعد على ذلك، لقد كانت لديه الأسباب لكي ينحرف.

ـ ولماذا تقول لي هذا؟ سأله فرانك. هل تريد أن تقول لي بأنك كنت تحترم ذلك الإنسان، بعد كل ما حدث بينكما؟ بماذا تريد أن تقنعني؟ لقد سبب لك ذلك الميت الكثير من المشاكل، لقد طردك من الحزب، وطردك من كرسي الجامعة، ولاحقك لسنوات عديدة.

ـ وماذا تفعل الآن؟

ـ أعمل في أرشيف المدينة.

ـ منذ متى؟

ـ منذ سنتين.

ـ قبل ذلك كنت في الإنتاج؟

ـ لا.. لقد كنت قبل ذلك في المناجم.

ـ وماذا تريد؟ هل تسخر مني.

ـ أنا لا أسخر من أحد، ولا أريد أن أقنعك بأنني كنت مغرماً به، لقد رأيتك هنا، وأنا أعرف أنكم كنتم أصدقاء، أعرف أيضاً أنكم لم

تعودوا كما كنتم في المدة الأخيرة. وبالنسبة للمناجم لم أشعر في حياتي بالسعادة مثلما شعرت هناك، أنا لا ألومه على فعلته معي.

ـ ولماذا لم تَبْقَ هناك؟

فكر قليلاً قبل أن يجيب على سؤال فرانك، الذي بدا وكأنه يريد أن يستفزه، وأخيراً قال.

ـ انظر.. قال وأشار إلى ساقه، ورفع طرف بنطاله. شاهد فرانك طرفاً اصطناعياً.

ـ إنني آسف، اعتذر فرانك بسرعة، لم أكن أعلم عن ذلك شيئاً، حقيقة لم أكن أعلم، لقد صدمه هذا المنظر.

ـ لا تهتم، لا أريد أن أتحدث في هذا الموضوع، ولكنك سألتني.

ـ يا رجل، أنت تطلب مني الآن أن أقتنع بأنك لست غاضباً من تصرفاته نحوك؟

ـ أنت تقولها للمرة الثانية، إنني لا أريد أن أقنعك بشيء، ولكنني في الحقيقة لست مستاءً منه كما تظن، ربما أبدو للكثيرين بأنني لا أقول الحقيقة، ولكنني حقيقة لا أشعر نحوه بالكراهية والحقد، كان رجلاً وكنت أحسده على رجولته. ولم يكن باستطاعته التصرف معي على نحو مغاير، ربما تقول إنه حطمني، وإنه يتحمل مسؤولية إعاقتي... ولكن هذه الإعاقة حدثت من عدم انتباهي.. لم أكن حذراً، على الإنسان أن يكون حذراً في حياته. إنني إلى حد ما مدينٌ له، مدينٌ له بتصرفه القاسي نحوي، لقد ساعدني هذا التصرف في الكثير من الأشياء. ساعدني في رؤية طريقي، ومعرفة نفسي، ربما لن تجد من يقول لك هذا الكلام، لقد فتح عينيّ على معنى الحياة، كنت قبل ذلك أريد الحياة، والثروة الذهبية السريعة، لكنه منعني من أن أتابع ذلك الطريق، اضطررت أن أبدل رغباتي، شئت أم أبيت. كان علي أن أجد طريقاً آخر، إنني أملك الآن حياتي الخاصّة الهادئة والبسيطة، لا أحد

يتدخل فيها، ولا أحد يعرف عني شيئاً، ولا أحد يهتم بما أفعل، ولا أحد يحشر أنفه بأسلوب حياتي. إنني الآن حر، وفي أعلى مراتب الحرية، لا أقف بطريق أحد، ولا أخاف من أحد. أنا الآن وحيدٌ في الأرشيف، بين الكتب، لقد وجدت أخيراً سحر العيش في الحياة الهادئة، وهذا أهم بالنسبة لي من المرتب المرتفع، وأعباء التسلق إلى السلطة، لدي الوقت الكافي، إنني أراجع الآن القانون الروماني، إنه يبدو غير واقعي في الوقت الحاضر، وربما مضحكاً، ولكنك حين تقترب منه وتتعرف عليه تجد نفسك تغوص في المغامرة التي تسمى تاريخ العالم، وتفهم منه كل شيء.

ـ وهل أفهم منه ما نحن عليه اليوم؟

ـ بالضبط، سوف تفهم كل مايجري، وتجد التفسير الدقيق. إنه شيء لا يصدق يا فرانك، كيف أنه وفي ظروف تاريخية مشابهة تحصل أخطاء مشابهة، هذا يتكرر منذ زمن صيد الماموت. إن الإنسان ما يزال حتى الآن صياداً للماموت، ربما لا يوجد الآن ماموت، ولكن الإنسان مازال حتى الآن يركض خلف أكبر قطعة من اللحم. جميع الحضارات والثقافات تعمل على طمس وإخفاء هذه الحقيقة.

ـ ألا تشعر أنك تبالغ قليلاً؟

ـ ربما.. ولكن قليلاً كما تقول، إننا نعرف بعضنا منذ مدة طويلة، وتعرف كيف كانت الأمور، كان مصاباً بعقدة السلطة، كان يريد أن يكون الأول في كل شيء، وأنا كنت مثله، كنت أريد أن أكون الأول، كان من الطبيعي أن نتصادم، وربما زاد المشكلة بيننا وجود امرأة.

ـ لم أصدق ذلك في حياتي.

ـ إنه أمر مستغرب، إنك لا تصدق، كنت أظن أنه أخبرك بهذا الموضوع، كنتم أصدقاء حتى العظم، لقد شعر أنني أهدد ملكيته الخاصة، وأقترب من الفتاة التي كان يعاشرها، والتي كنت تعاشرها

أنت قبله. لقد أعجبتني، لقد حاولت لأجلها التدخل بينكم، لقد أحس بهذا الاختراق بسرعة، وقبل أن يحدث أي شيء يمس بملكيته. لقد مضى على ذلك الأمر سنين طويلة، إن الأمر سيان الآن، ولكني أستطيع أن أروي لك ما كان يمكن أن يحدث في حينها. هنا بدأت نظرته المعكوسة عني، كم من المرات كنت أسأل نفسي: ماذا كنت فعلت بإنسان يحاول أن يعتدي على فتاتي ويسرقها مني؟ هل كنت سأتصرف بشكل آخر؟ لا أظن أن تصرفي سيكون مختلفاً عن تصرفه. أعرف أن تصرفك كان مختلفاً في ذلك الوقت عندما أخذ منك حبيبتك، لكنك كنت دائماً الرجل الثاني في حساباته، لم تكن تهدده في مركزه، وكنت ستقتله من هذا التصرف.

ـ هل تظن أنني كنت سأقتله لهذا السبب فحسب؟

ـ طبعاً.

ـ ألا تشعر أنك تحاول أن تؤلهه؟

ـ أبداً. وتابع البروفيسور حديثه:

ـ ابحث عن المرأة. يا صديقي، إنني لم أكن أصدق، كنت أظن أن ذلك كان بالنسبة له عبارة عن ذريعة.

ـ لقد كنت أعاشر ماركيتا، ولقد ضبطنا مرة بجانب النهر، ولم يكن ذلك مصادفة، كان يبحث عنا، وضربها أمامي،وأمرها بالذهاب إلى البيت... و كنت أنظر إليه.. لم أملك الشجاعة للقفز عليه. ربما كان سيسحقني، أعرف ذلك، وكان علي أن أتركه يضربني. حينها شعرت أنني خسرت، لم أخسر الفتاة فقط، بل إنني في ذلك الوقت خسرت كل شيء. ولم يستغرق ذلك وقتاً طويلاً لأفهم أني خسرت، لقد عشت بعدها حالة من الاكتئاب. إننا خلقنا لنكون شخصاً واحداً، أقوى. وكان هو الأقوى.

ـ لكنك تغالط، تغالط في كل شيء، لقد أزعجك، أزعجك في كل شيء، وكان يلاحقك دائماً، كنت عقدته، كنت مثقفاً أكثر منه، وكان يشعر بقربك أنه لا شيء، وبأنه ضعيف. كان يكره الجميع، ويكره ويحقد على كل إنسان يعرف أكثر منه. إنه يحقد على المثقفين بشكل عام. لقد كان هؤلاء جميعاً مصابين بعقدة المثقف، وأنت تعرف من أكون. لقد ترعرعت في عائلة ثرية، وكان أبي من ألمع المحامين، كان يريد دائماً أن ينقص من أهميتي ومعرفتي وأراد أن يشعرني بأنه يستطيع في أي لحظة تحطيمي، وأنه أقوى مني، وإن كنت تفكر ماذا كان يقف بوجهي وبوجه ارتقائي، بإمكانك أن تفهم ماذا كان يريد، ومع ذلك فإنني أعتقد أننا بدون أمثاله ما كنا انتصرنا في ثورتنا.

ـ نحن؟ ومن هم نحن؟

ـ بالضبط.. نحن.. نحن الشيوعيين. إنني بالطبع لم أكن عضواً في الحزب، وكان هو سبب عدم قبولي به، لكن لا يستطيع أحدٌ أن يمنع الإنسان من أن يكون ما يريد، وأن يتصرف حسب رغبته، كنت أعتقد أنني في قرارة نفسي شيوعيٌّ، وإن لم أكن عضواً رسمياً في الحزب. لقد كان أحد الرجال المخلصين والأشداء في طريق الثورة ونجاحها، لكنه لم يستطع الاستمرار، أنت لا تستطيع أن تصنع من الطين كلساً، وهذه هي مصيبته. آه.. حان وقت النوم، إنني سعيد برؤيتك بعد كل هذه السنين، لقد تقدم بنا العمر.

إن هذا البروفيسور حاضرٌ بفكر فرانك على أنه عميد كلية الحقوق في الجامعة... خرج من الحانة وهو يعرُجُ من قدمه المبتورة.

ـ شيء غريب أليس كذلك؟ قالت ليتسكا.

ـ غريب.

ـ من أين يحصل الناس على هذه القوّة، لم يكن فرانك يملك القوة على متابعة الحديث، الحياة تلعب بهم، وتطحنهم وهم يقفون مرة

ثانية وكأنّ شيئاً لم يحدث. فوندا... أراد أن يصل إليهم في يوم من الأيام. أراد أن يكون بين شباب العمال، لقد أخذوه بينهم وكان مشكوكاً في ولائه، ماذا يريد أن يفعل بينهم ابن مُحَامٍ لامع ومدلل؟

شعر فرانك منذ البداية بعدم الثقة التي كان يعامل بها صديقه ذلك الطالب. كان يقول عنه إنه شاذ طبقياً، لكن الشرح يكمن في شيء آخر. الشرح عند ماركيتا، الفتاة، ولكن هل يمكن أن يكون ذلك شرحاً؟

هل كان صديقه ليتصرف معه بشكل آخر إن لم تكن هنالك مشكلة مع ماركيتا؟ وهل كانت ماركيتا سبباً في الصراع بينهما؟ ولماذا كان فوندا يريد الوصول إليهم، وإلى مجتمعهم؟

عندما رفض صديق فرانك طلبه في عضوية الحزب، كان شرحه للرفض على الشكل التالي: إننا لا نريد أن ندخل بيننا محرضاً، ولكن ذلك لم يكن سبباً كافياً لرفض عضويته، وعرف فرانك ذلك، كما عرفه الجميع، ولكن من يستطيع أن يأخذ قبول ابن محامٍ ثري في الحزب على مسؤوليته؟ ومع ذلك فإن فوندا لم يفقد الأمل، وبحث عن طرق أخرى، وسمعنا بعد ذلك أنه أسس تنظيماً للطلاب الماركسيين. لقد وقف والده ضده، وطرده من البيت، لكنه لم ينحرف عن الطريق الذي اختاره. وهنا بدأ صديق فرانك بحملة مسعورة لإيذائه، ووصفه بأنه يحاول تمزيق الوحدة، وكان يذكرنا دائماً بأي حشرة كنا سَنُدخِل بيننا، وعندما كشف الفاشيُّون تنظيمه السري، اعتقلوه مع مجموعته، ولكنهم كانوا يحسنون التصرف والتاكتيك. كانوا بارعين بنشر عدم الثقة بين المناضلين، وبسرعة أفرجوا عن فوندا ابن المحامي اللامع، وكان ذلك ذريعة لصديق فرانك كي يزيد من هجومه عليه، بينما ظلت جماعته في السجن.

- إن شيئاً غير طبيعي يكمن في فوندا.. هكذا كان يقول وكان ذلك. لقد عاد وقام بتنظيم مجموعة سرية قوية قامت بخدمات جليلة في

تحضير الانتفاضة، وعمل محرراً في جريدة الانتفاضة، وكان ذلك زيادة في مصيبته، وحقد صديقه عليه

ـ أترون؟ إنه يتحرك مع الريح، قال صديق فرانك ذلك، والغضب يشع من عينيه عندما علم أنه يشتغل في تحرير الجريدة.

بعد ذلك عمل فوندا معيداً في الجامعة، وبعدها بروفيسورا، وفي النهاية أصبح عميداً لكلية الحقوق، لقد أحبه الطلاب، وعبدوه، وجمع حوله عدداً كبيراً من الطلاب والشباب.

عندما أصبح صديق فرانك رئيساً للمكتب أصبحت أيام فوندا معدودة في الكلية، أقالوه من الكلية لعدم النزاهة، ولضرورات المصلحة العامة. قام في حينها الطلاب بحملة احتجاج، كتبوا مذكرة، وقعوها جميعاً، مما زاد من حنق صديق فرانك عليه، واتهمه بتحريض الطلاب، وطرده من الحزب، كان عليه أن يحمد ربه على هذا العقاب، كان يمكن أن يكون العقاب أسوأ. غاب بالتدريج من نظر فرانك، ومن ثم غاب عن تفكيره، ثم فكر فرانك كيف رآه اليوم بعد هذه المدة، وتعرف على أفكاره، وموقفه.

ـ لقد كنت أحبه. قاطعت ليتسكا تفكير فرانك.

ـ من.. فوندا؟ لم يفهم قصدها.

ـ لا.. ذاك الذي مات، لقد تحدثتم عنه أليس كذلك؟ لقد كنت أحبه.

ـ ولكنك لم تعترفي لي بهذا الحب.

ـ لقد ذكرته أمامك، لقد أخبرتك عن أحد الرجال الذين أحببتهم كثيراً. لقد كنت أعنيه هو، ذلك الميت.

ـ هل كنت تعرفينه؟ وهل كنت تعرفين من كان بالضبط، وما هو مركزه؟

ـ نعم سمعت عنه الكثير، وخاصة الأخبار السيئة، ولكنني أحببتُه، ولقد قام بمساعدتي في أحد الأيام.

نظر فرانك إلى ليتسكا وأراد أن يقول لها إنك مخطئة، ولا يمكنك معرفته. لم تكوني تعرفين ذلك الميت.

ـ لقد فاجأتك. أليس كذلك؟ ولكنه ساعدني حقاً في الأوقات العصيبة التي مررت فيها. إنني لم أحدثك عن أمور عديدة، ولم أكن أستطيع. كان محظوراً علي الكلام في هذا الأمر، والآن أصبح سيان بالنسبة لي، لقد مات. إنك تعرفني تحت اسمي قبل الزواج، كنت في يوم من الأيام متزوّجة وكنت أدعى ستاندلروفا.

ـ ستاندلروفا.. ستاندلر.. ستاندلر.

ـ نعم بالضبط كان ستاندلر زوجي، الشيوعي القديم، هل تتذكره؟ لقد نظم هروباً جماعياً لرؤساء المعامل، هربوا في خمس سيارات جديدة، كانوا قد سرقوها من المعرض، وقاموا برشوة ضباط الحدود، الذين هربوا معهم.

ـ وماذا حل بكم؟ إذا كنت أتذكر فقد هربوا مع زوجاتهم.

ـ أنا رفضت، ولم أهرب.

ـ لماذا؟

ـ لم تكن لدي رغبة في الهرب، إلى أين أهرب معهم؟ ولماذا؟ مع ذلك السخيف الذي كان زوجي؟

ـ لنفترض أنه كان سخيفاً، ولكنه يعمل هناك الآن في منصب رفيع، إنه مدير أكبر البنوك العالمية.

ـ بالنسبة لي كان سخيفاً. ولقد رجوت ربي أن ينجحوا في هروبهم، لكي أتخلص منه. لم أكن أشعر نحوه بأي حب. لقد اشتراني كما يشتري أي إنسان قطة جميلة. لقد كان أبي في قبضته، ولا أدري

السبب الحقيقي، ولذلك تزوجته، كنت أشمئز منه، وكان مملاً، وفي النهاية كنا ننام مفترقين.

ـ بجمالك، ورقتك، كان بإمكانك في الغرب أن تحصلي على مكاسب غير محدودة.

ـ نعم كان ذلك ممكناً، ولكن أي نوع من المكاسب؟ ما هي المكاسب التي تقصدها؟ المال؟ الصالونات؟ لقد خبرت هذا النوع من الحياة، وهي مملة، ولا أحبها. كان الهروب بالنسبة لي شيئاً مقيتاً. اليوم هنا، وغداً ربك أعلم. أين الاستقرار في العالم؟ استقرار امرأة من نوعي، ضمانات، استيقاظ مرتب، دائماً نفس الوجوه، ونفس الكلام... سوف أذهب في الصيف القادم إلى البحر، هل يمكن أن تتصور هذه المتعة، والمغامرة هناك، وكيف أنني أنتظر ذلك بفارغ الصبر؟ وكم هي سعادة بالنسبة لي؟ ماذا علي أن أفعل هناك في الغرب معهم؟ سوف أفقد نفسي.

ـ هل تريدين إقناعي أنك لا تضجرين هنا؟ هنا أيضاً نفس الوجوه، نفس الكلام، استيقاظ مرتب...

ـ أنت مخطئ، لا يمكنك أن تتصور كم هي الحياة هنا غنية ومتنوعة. كم تتبدل أمامي الوجوه والأقدار، وكم تسمع الحكايات المسلّية التي تشدك، لم أقض أمسية واحدة تشبه الثانية، وأتحمل كل مساء العيون الفضولية، وأسمع كلمات مضحكة أو مملة، رذيلة أحياناً تدعوني للذهاب إلى السرير، وحتى تلك المداعبات تبقى لطيفة. الرجال يا فرانك خليط مضحك من البشرية. إنني أشعر هنا، وكأنني في المسرح، في مسرحي الخاص المليء بالدراما، والتراجيديا، والكوميديا، ويمكن أن أقول بالشعر. نعم الشعر بالدرجة الأولى.

تصور أننا نغلق الحانة في بعض الأحيان مبكرين، ويبقى هناك لايوش، والمدير، والطباخ، والبواب، نجلس في الزاوية، ويبدأ لايوش بالعزف على السيمبال يعزف لنفسه ولنا فقط، وهكذا جلسة عائليّة، إن

ما يعزفه لا يمكنك أن تسمعه في أي مكان، أين لي أن أجد في الدنيا مكاناً كهذا ومجموعة كتلك؟ لا يمكن لأي شيء في الدنيا أن يعوضني عن هذه الجلسات الرائعة. لقد كان بإمكاني أن أصل إلى مراكز عالية. لقد كان يلاحقني ولثلاث سنوات متتالية مليونيرٌ إنكليزيٌ، أراد أن يتزوجني، وأغراني بالمال، والذهب، لكني رفضته، لأني كنت في حينها أحب إنساناً آخر يملأ على حياتي.

أنا لم أخلق لمكان آخر، خلقت لأبقى هنا، هنا أستطيع أن أجد نفسي، وأحقق ذاتي.

نعم، لوتسكا خلقت لهذا المكان. فكر فرانك بكلامها.

ـ الحانة تشيخ، وأنا كذلك، ولابد أنكَ تتذكر كم كان لايوش جميلاً قبل سنين، لكنه تغير مع الزمن، لقد تغيرت نوعية المعجبين بي وأصبحوا مختلفين، وأنا أيضاً لست كما كنت. يحضر الآن للحانة الكثير من البحارة، يجلسون، ويشربون، يحلمون بقضاء وقت طيب، يريدون نسيان همومهم كما كنت تريد أنت يا فرانك، وكما أراد الكثير من الزوار. أنا لا أعرف إنساناً يستطيع الانتظار ساعة واحدة ليبدأ بالحديث عن نفسه وهمومه، وأفراحه، وأتراحه. وربما لا يوجد كاهنٌ في العالم سمع اعترافات تضاهي ما سمعته هنا خلف البار.. إنني أحبهم.

ـ ربما كنت محقةً.

ـ أحببته كثيراً، لقد كان رجلاً، وكان الرجل الوحيد الذي أحببته كثيراً في حياتي. أحببته من النظرة الأولى.

ـ أدري.... لقد أحبته الكثيرات.

ـ لقد سمعت عنه الكثير يا فرانك، وهنا تسمع عن الناس كل شيء، إنهم لم يذكروه بأحسن وجه، ولكنني أحببته، يقال أنه لم يكن سعيداً مع زوجته. هل تعرفها؟

ـ كانت تشبهك، إنك صورة منها، ولكن كل ما عليك أسود كان عليها أبيض، هل لمحتها؟

ـ حضرا معاً في أحد الأيام إلى الحانة، كانت هناك مناسبة، اقترب مني وصافحني، وسألني كيف أعيش، ولم يكترث لما سوف يقول عنه الغرباء.

ـ أين تعرفت عليه؟

ـ لقد أخبرتك، هل نسيت من كان زوجي؟ عندما هرب من البلاد وضعوني في السجن. إنه أمر سخيف، استجوبوني لمدة أسبوعين، سألوني عن أمور لم أكن أعلم عنها شيئاً، كان المحقق بغاية البلادة، وكان صديقك مديراً في الأمن.

ـ نعم.. ولقد أرسلوه بعد ذلك إلى محافظة أخرى ولولا ذلك ما كنت لأتركه يفلت من يدي.

ـ وهل أخلى سبيلك؟

ـ نعم. لقد أحضرني في أحد الأيام للتحقيق، وقف المحقق أمامه كالمسخ.

ـ تقول استخبارات أجنبية... بدأ يصرخ بوجهه، المخابرات الأجنبية تسرح وتمرح هنا في البلد، وبدلاً من كشفها تتهمون الأبرياء. ردي علي.. ووجه كلامه إلي: لماذا لم تهربي مع زوجك عندما سنحت لك الفرصة؟ لماذا فضلت البقاء هنا؟

ـ لم أكن أرغب بالهروب، إلى أين؟ إنه أمر سخيف.

أخرج من الدرج ورقة، كتب عليها بعض الكلمات ووقعها، وكانت أمراً بإخلاء سبيلي.

ـ يمكنك الذهاب، لن يزعجك أحد بعد هذا اليوم، يجب عليك أن تعرفي بأن الفيلا التي كنتم تسكنونها لم تعد لكم، عليك أن تبحثي عن بيت آخر، وعمل تعيشين منه، بدون عمل لا يمكنك البقاء، وإلا سوف

يحضرونك مرة ثانية، يمكنك أن تأخذي من الفيلا أشياءك الشخصية... الشخصية فقط، وسوف نراقب ذلك، بدون مجوهرات. خاتم، وساعة وصورة واحدة ولا شيء أكثر، ومن الأثاث المنزلي ما يحتاجه شخص واحد، تصرفي بشكل عقلاني وبدون ضجة، والرسائل من البلاد الأجنبية تحضرينها إلى المكتب، ولا أنصحك بمراسلة أحد في البلاد الأجنبية.

ماذا أقول لك يا فرانك.. لقد كان رائعاً، كان مدهشاً، شخصية فريدة.

ـ ربما لو عَرَفْتِهِ بعد ذلك لما كان يبدو رائعاً.

ـ ربما.. لا أدري.. لقد شاهدته بعدها مرة واحدة، في المساء عندما حضر مع أصدقائه وزوجته.

ـ ألم يطلب منك شيئاً أو أشار إلى أي شيء؟

ـ لا.. كنت أظن أنني أغويته، وربما سيتصل بي لاحقاً أو يحاول، لقد أعجبته، وكان ذلك ظاهراً من نظراته. كنت أتمنى أن يتصل أو يحضر... ولكن لا شيء... فقط توقيع، وانتهى الأمر، لكني طلبت منه المساعدة مرة أخرى عندما بدأت العمل، لقد أرادوا مني أن أتعاون مع الأمن، وعندما رفضت أرادوا أن يرعبوني، وأخبروني عن رفضهم تشغيلي في هذا المحل، وعرفت لاحقاً بأنه تدخل شخصياً، ولولاه لما تمكنت من العمل.

خرج فرانك، ورأسه مليء بذكريات هذا الميت، وعاد للتفكير به، لم يكن هناك سبب لعدم تصديق فوندا، وليتسكا في كل ما ذكراه، لقد فوجئ بكلامهما، ويبدو أن هذا الميت لم يكن وحيداً عندما كان الناس يمرون بجانب نعشه، وهناك من يفكر به ويتأسف لموته، وهنالك من يحترمه، ومن يعتبره إنساناً عظيماً.

لقد قال فوندا إنه مات في الوقت المناسب، ربما كان كلامه صحيحاً، تصور فرانك كيف سيكون الحال لو أنه مات بعد سنة، بعد سقوطه الأكيد، والمتوقع من الجميع، حينها على الأكثر سيكون وحيداً، وسيمر موته بدون حفل وداع أو حزن رسمي، وبدون موسيقا، قبر متواضع في طرف المدفن، يقف فوقه فوندا، ليتسكا، وفرانك، وبعض الناس، حقيقة أنه مات في الوقت المناسب.

ـ 14 ـ

استيقظ فرانك في الصباح على صداع شديد، وألم شديد في معدته، لم يمد يده للفطور الجاهز على الطاولة، احتسى قهوة الصباح فقط، ومع ذلك لم يتخلص من ألمه. لابد أن بافلا تظن أنه شرب كثيراً في الليلة السابقة، دعها تظن، فهي دائماً هكذا... حدث فرانك نفسه.

كان الطريق إلى صالة الحزن مليئاً بالوحل الأسود، وعندما دخل الصالة شعر برغبة جامحة بالعودة للبيت والبقاء بعيداً عن الناس، لم تكن لديه الرُغبة بالحديث مع أحد أو ملاقاة أحد، فليطردوه من العمل.. وماذا سيحدث إن طردوه؟ إن بافلا محقّة، زملاؤه يعيشون حياة رخاء، وغير ملتزمين بمثل ذلك العمل، ويربحون الكثير من عملهم، وينشرون الكتب الباهظة الثمن، ويملكون بيوتاً ريفيّة، وسيارات حقيقية. ابتسم من هذه الفكرة، إنسان ثوري، ومناضل، بيت ريفي، وسيارة فاخرة. وقف في مكانه، لقد تبرجز الناس. الملايين يفكرون بالطريقة نفسها، مال، سيارة، بيت ريفي، مركز وشهرة، هؤلاء هم الاموات. إن فوندا يرى الأمور على حقيقتها. لم نكن نريد أن تصل الأمور إلى ما آلت إليه.. فكر فرانك. وما يزال يوجد حتى الآن أناس صالحون، فوندا مثلاً لا يغريه المال، ولا يريد بيتاً ريفياً أو

سيارة، إنه يكتفي بما لديه، وليتسكا؟ ماذا تريد ليتسكا؟ إنها تتمنى أن تغلق الحانة قبل الوقت المحدد، لكي تسمع لايوش يعزف على السيمبال، وماذا تريد ماركيتا؟ تريد أن تعيش بدون أن تحتاج أحد، وماذا تريد الأرملة؟ تريد أن تختفي عنها العيون الفضولية، أن تعيش بحريّة، ومارتين يريد أن يصبح عاملاً مهماً لا أكثر ولا أقل. لقد أحسوا جميعاً، وتذوقوا معنى السلطة، ووصلوا في النهاية إلى قناعات بأن هناك شيئاً آخر في الحياة، وربما أكثر قيمة.

لقد كان بإمكان هذا الميت أن يعيش...

وذهب فرانك إلى العمل وقال لنفسه:

هناك شيء يدعى الواجب. قد يبدو هذا التفكير مضحكاً، لكنه هو الذي اختار في النهاية هذا العمل.، جميل أن يذهب الإنسان إلى العمل في الوقت الذي لا يرغب فيه بالعمل، عندما يكون كلِ شيء في داخله يمنعه من الذهاب. لا تذهب يا مجنون... ومع ذلك فإنه يذهب.

كان طابور المودعين أقل من البارحة، لقد اقتصدوا قليلاً بالناس على أغلب الظن، ولكنه عندما وقف هناك شعر بالرضى من حضوره. لقد استطاع أن يصور المرأة المسنّة، وهي تجفف دموعها بجانب النعش بمنديل أبيض. امرأة مسنة صغيرة الحجم، يكسو رأسها شعر أبيض، ربما قاربت السبعين من عمرها، لم ينتبه أحد لوجودها في القاعة، جاءت لتودع، وتلقي النظرة الأخيرة على رجل السلطة، إنها ولابد تحترم الرجال الذين يعملون في مراكز السلطة، ومن الواجب على الإنسان أن يقوم بمثل تلك الأعمال الخيرة، ويقدم التعازي، والاحترام، وفي شتى الأحوال كانت الموسيقى تعزف ألحاناً تجبر الإنسان في مثل تلك المواقف على البكاء.

عندما وصل جالوفيتش إلى رئاسة الأمن العام، تغيرت أنماط العمل. وازداد البحث عن الأعداء الطبقيين، وملاحقتهم، وتصفيتهم. لقد كان

جالوفيتش متخصصاً في حماية النظام من الأعداء السياسيين، والطبقيين، وجلب معه لهذه المهمة من إحدى المحافظات التي كان يعمل فيها، صديقه الذي كان يده الطولى، رجلاً مريضاً مشكوكاً به يدعى يانتشوشكا.

لقد لاحق يانتشوشكا ليلاً ونهاراً المخربين، والمنشقين، والعملاء وأعداء الجمهورية، نهاراً في مكتبه، وليلاً في أحلامه، واستعمل في عمله أساليب غريبة وقاسية. كل إنسان عدو... وكل إنسان مشكوك في ولائه. يولد الإنسان سيئاً، ومهمتنا كشفه متلبساً في مكان الجريمة، لا تثقوا بأحد، لا تثقوا بالأصدقاء ولا بالأقربين. تحروا دائماً كل فكرة في رؤوسكم وكل تغيير في حياتنا خيانة!

هكذا كان يدرّس موظفيه، علينا استئصال الخيانة من جذورها.

إن العملاء ينفذون مخططاتهم بطرق علمّية وبوسائل حديثة، ويعملون بمنتهى السّريّة ولا يثيرون الشبهات، علينا أن نبحث عنهم بطرق علمية وعلى تكنولوجيتنا أن تسبق تكنولوجية العملاء. لاحظوا كل شيء، وأي شيء، راقبوا الجميع، وأهم شيء أن تراقبوا الذين لا يثيرون الشبهات، الأعمى مثلاً لا يثير الانتباه، لكنه ليس بالضرورة أعمى، كل إنسان تلتقونه يمكن أن يكون محرّفاً، ومخرباً، ومهمتكم كشفه، والإجهاز عليه.

هكذا بقي يانتشوشكا إلى الوقت الذي كان فيه موجوداً في إحدى الحفلات الرسمية و صرخ بأعلى صوته.

ـ لا تشربوا هذه القهوة، إنها مسمومة!

اصفرت وجوه الجميع، تسمروا في أماكنهم من الفزع تاركين الكؤوس، وطبعاً أجري مباشرة تحليل كيميائي للقهوة، ووجد أن السم الوحيد الذي كان موجوداً فيها هو الكوفائين. انتهت الحفلة، وانتهى معها يانتشوشكا في مصح الأمراض العقلية، وشخصوا مرضه: حالة

متقدّمة من جنون الشك، وبذلك فقد جالوفيتش أفضل معاونيه. لكنه لم يَنْس هذه الحادثة، إنه لا ينسى أبداً، إن عدم النسيان هو من أهم خصاله. لا ينسى شيئاً أبداً.

تبخترت إحدى السيدات في قاعة الوداع ولم تكن تعلم مقدار الاهتمام الذي حظيت به من الميت من جهة، ومن جالوفيتش ويانتشوشكا من جهة أخرى.

لقد تنبه إليها يانتشوشكا بالمصادفة مع أنه لم يعترف بتلك المصادفة، كان ذلك في إحدى نزهاته الروتينيّة، علما بأن يانتشوشكا كان يعتبر نفسه في الوظيفة حتى إذا كان في نزهة.

عرف فرانك هذه الواقعة في إحدى سفراته بالقطار، وكان يشاركه القُمرة أحد ضباط الأمن، بدأ ذلك الضابط بالحديث عن الميت، وكان في حينها رئيساً للمكتب.

ـ لماذا تسألني عنه؟ إنك تعرفه مثلي.

ـ آه.. طبعاً ولكنك تقابله دائماً.

ـ لم أره منذ مدة طويلة.

ـ لكنك بلا شك يمكن أن تفيدني. هل يمكن التفاهم معه في هذه الأيام؟

كان يتحدث بصوت خافت وينظر حوله، ويراقب ما إن كان أحدٌ يسمعه وبعدها فقد تماسكه.

ـ لقد ضجرت من هذا العمل، إنني أتتبع الخيالات في وظيفتي، والحقيقة أن المخربين الحقيقيين موجودون في مكان آخر.

لم يعقب فرانك، وهو يعرف أن مجرد سماع هؤلاء الناس بدون مشاركتهم بالحديث يعتبر مخاطرة، وبالرغم من أن هذا الضابط كان من مجموعتهم القديمة في الجبال، و كان صديقاً جيداً، ولكن من يدري ماهو عليه اليوم؟ وماذا يريد منه؟

ضبط نفسه مرة ثانية.

ـ عندي الآن حالة غريبة للتحقيق. قال بصوت منخفض.

ـ أنت تعرف وظيفتي ولا شك. أنا رئيس المجموعة الخاصة، ومهمتي الحالية مراقبة إحدى المدرسات وهي الآن في التقاعد، أنا الآن مسافر للتحقيق مع إحدى السيدات التي كانت قد أرسلت لها بطاقة. ربما تكون أختها، أو قريبتها أو أي شيء من هذا القبيل، أنت تعرف جيداً يانتشوشكا؟

هز فرانك رأسه.. أعرفه.

ـ يانتشوشكا إنسان مجنون، ومكانه الحقيقي مصح للأمراض العقليّة. حضر إلى مكتبي في الأسبوع الماضي وكان يرتجف، وقال لي: إسمها هاتالوفا... فيرونيكا هاتالوفا، وفي سجلها لا نملك أشياء مريبة، لقد وقفت في الليلة السابقة أمام نافذتها وبيدها غطاء أبيض، و نفضته ثلاث مرات، ونافذتها باتجاه الحدود.

ـ وماذا...

ـ لقد أمرني بأن أتبيّن بسرعة بمن تتصل، وطريقة الاتصال، والآن نعرف عنها كل شيء. لقد ثبتنا في منزلها أجهزة تنصّت، ولزيادة الحذر وضعنا في غرفة التواليت ميكروفوناً صغيراً، وقمنا بتفتيش منزلها ثلاث مرات.

ـ ولماذا لم ترفض هذه المهمّة؟

ـ أرفض.؟ نظر إلى فرانك نظرة استغراب... أرفض؟ لو كنت رفضت لكنت الآن في طريقي إلى المحكمة، ولماذا أرفض؟ إن رفضت سيستلم المهمة شخص آخر من الذين يريدون إظهار نشاطهم أمام يانتشوشكا... أنا أعرف الآن جميع تحركاتها، ماذا تشتري؟ مقدار دخلها، ماذا أكلت على الفطور؟ متى، وأين تتنزه؟ ويتحرك حولها ويتقفى أثرها عشرة رجال. هذه البطاقة البريديّة أول بطاقة تتسلمها.

يانتشوشكا يهتم بمن يستلم رسائل، وهذا بالنسبة إليه إنسانٌ خطرٌ، وكذلك من لا يستلم بطاقات وهذا أخطر. لقد أرسلني لتقصي أمر المرسلة، وعندما أبلغته بأن علاقة المدرسة محصورة بصديقاتها الأرامل، تأكد من صحة آرائه ونظريته.... هذه المهزلة. من نافذتها التي حركت منها الغطاء قمنا بتصوير المنطقة بكاملها، قمنا أيضاً برصد المنطقة بواسطة المناظير المكبِّرة، ثبتنا تحت نافذتها كاميرا خاصّة تبدأ بالتصوير بمجرد فتحها النّافذة. أسأل نفسي أحياناً هل يوجد بيننا إنسانٌ عاقلٌ؟

ـ لماذا لم تترك العمل؟

ـ أترك؟ هنا في هذه الأوضاع؟ إن ترك العمل بالنسبة ليانتشوشكا خيانة. من وظيفتنا يخرج الإنسان بجلطة، أو رصاصة، أو بطرد أو بسجن. إنني لم أعد أملك القوّة، لقد اعتقلنا قبل عام مجموعة من منقبي الآثار، كانوا يقومون بدراسة بالقرب من القلعة، ولقد اتّهمهم يانتشوشكا بأنهم يريدون حفر نفق إلى الجهة الأخرى من الحدود. ما ذا تعتقد يا فرانك؟ هل من الممكن الحديث إلى صديقنا القديم، تنبيهه إلى ما يجري؟ هل تعتقد بأنه سيتصرف بعد كل هذا الوقت بشكل صائب؟

ـ يمكنك أن تحاول... رد عليه فرانك، ربما لن يفعل شيئاً، ولكنك يمكن أن تحاول، فلن تخسر شيئاً من المحاولة، إنه يكره جالوفيتش، ولهذا السبب لن يقوم بأي إجراء ضدك.

ـ إنها مخاطرةٌ، ولكني مع ذلك سأذهب إليه، في أسوأ الأحوال سوف يطردونني وهذا أفضل من أن أنتهي في مصح الأمراض العقليّة. تعالَ معي وسأريك هذه السّيدة العجوز، إنها تجتمع مع صديقاتها كل يوم جمعة لشرب القهوة في جراند أوتيل. وكان قد اصطحب فرانك يوماً إلى الفندق (معه).

ـ إنها تلك، ذات القبعة السوداء...

جلست إلى الطاولة المستديرة خمس سيدات مسنات، كن يتسامرن في شيء ما، وربما كان موضوع حوارهن يتعلق بالأيام الماضية ونظافتها، والإلفة، والمحبة التي كانت تحيط بالناس، وروح التعاون الصادق، ماذا نرى الآن سوى الكره؟ والخوف يعم المجتمع، وماذا حل بالشّبيبة المسكينة؟

بعد ما يقارب الثلاثة عشر يوماً كان هذا الضابط ينتظر فرانك أمام مركز عمله، فبادره قائلاً:

ـ لقد قمت بزيارته، إنه رجل شجاع، الصراع ضد جالوفيتش ليس بالأمر البسيط، إنه يحتاج لشجاعةٍ، لقد طردوا اليوم يانتشوشكا، وأبلغونا بانتهاء المهمّة التي كُلفنا بها، ومع ذلك فإنني سأستقيل يا فرانك، سوف أطلب نقلي إلى مصلحة النقل.

فوجئ فرانك بهذا الكلام، لم يكن يظن أن صديقه يمكن أن يقف ضد رجل جالوفيتش بهذه السّرعة. إن الإنسان لا يستطيع معرفة أعماق البشر بسهولة.

ـ وهل عرفت تلك المرأة المدرسة أن هناك أشخاصاً كانوا يراقبونها، ويحومون حولها؟ وكيف لها أن تعرف؟

إنها هنا الآن في الصّالة، حضرت لإلقاء النظرة الأخيرة على شخص كان مهماً، وقد مات، ولم تكن تعرفه.

ـ 15 ـ

حضرت يودكا لصالة الحزن في ذلك اليوم. بدت نحيلةً وعظام وجهها بارزةً بشكل واضح، وأنفها رفيع، وظهرت بعض الخصل البيضاء بين طيات شعرها، وكانت ترتدي معطفاً من الفرو الثمين،

فوجئ فرانك بها عندما دخلت القاعة، لم يكن وجهها خالياً من التعابير، وأسف فرانك لرؤيتها في هذا المكان، لم يكن من الواجب أن تحضر، إنه ميت، ولن يصلح حضورها شيئاً.

توقفت لبرهة إلى جانب النعش بدون حركة، ثم سارت مسرعة نحو الباب، فاعترض فرانك طريقها.

ـ ماذا تفعلين هنا؟ سألها.

ـ جئت... أجابت بصوت مسموع.

سمعا صوتا من خلفهما يدعوهما للتحدث خارج القاعة.

ـ حسناً... تعالي لنشرب القهوة في أي مكان قريب.

ـ مضى وقت طويل لم أركِ فيه.. تنهدت.. وعدّ فرانك السنين التي مضت، وقد قاربت العشر سنوات، لا.. لقد شاهدها في المرة الأخيره في ذلك المساء.

ـ لماذا حضرت اليوم؟

ـ لا أدري. حضرت وحسب

ـ أين تعيشين الآن؟

ـ دائماً في المكان نفسِهِ. لم يفهم فرانك قصدها

ـ في البيت الريفي؟

ـ وهل نسيت أنهم أخذوه منا في ذلك الوقت؟

ـ ماذا تعملين الآن؟ كيف تؤمنين قُوَتَكِ؟

ـ ماذا أرى؟ قال ذلك ومسد بيده معطفها الجميل، وابتعد قليلاً عنها ليرى كامل جسمها.

ـ أخ... إنني أعيش بشكل جيد. سوف تضحك إن أخبرتك. إنني أربي الكلاب.. الجميع يضحكون من هذا العمل.

توقف فرانك. ماذا تفعلين؟ تربين الكلاب؟ ما معنى ذلك؟

ـ ماذا بالله تربين؟

ـ الكلاب، ردت عليه لتؤكد له جوابها، عندي كلاب أصيلة نقية الدم، هل تفهم؟

لم يفهم فرانك قصدها.

ـ ما معنى ذلك، أعرف أن الناس تقتني كلاباً وقططاً، ولكن العمل في تربية الكلاب؟ هل هذا يوفر للإنسان دخلاً كافياً للحياة؟

ـ بالطبع يا فرانك، أربح من هذا العمل المال الوفير، وأملك مكاناً جميلاً لتربية الكلاب في الجبل.

ـ إنني لم أسمع بذلك من قبل.

ـ تسمعه مني الآن، ليس لديك فكرة كم هو عمل رائع ومربح.

ـ أي كلاب تربين؟ كلاب الصيد؟

ـ لا.... لا أربي كلاب صيد، كنت في بداية عملي أربيهم، وتعرف أن كلاب الصيد يحتاجها الجيش، وحراس الحدود، ولقد توقفت الآن عن تربيتها. لقد أنشأ الجيش مكاناً خاصاً به لتربية الكلاب، أنا أربي الآن كلاباً من نوع بوكسير، كلاباً منزلية صغيرة. تعال لزيارتي، وسترى بنفسك وسيعجبك العمل، الطقس هناك رائع في الربيع، ويمكنك أخذ جرو صغير، إلى جانب ذلك يمكنك أن تصور، وتكتب ريبورتاجاً ممتعاً. هل تدري أن الكلاب المنزلية الصغيرة تعتبر آخر موضة في هذه الأيام؟ وأن تربيتها عمل مربح، تعرف يا فرانك إنني أحياناً أخاف من التأميم.

حرك فرانك رأسه متعجباً من كلامها.

ـ هل كنت حقاً لا تدري بوجود مثل هذه الأعمال؟ هناك الكثير من الأعمال الخاصّة، فمثلاً يوجد مكان لتربية القمل من أجل سمك الأكفاريوم؟ وهو أفضل من العمل مع الكلاب، ويربح أكثر. هل يمكنك أن تقدر عدد الناس الذين يقتنون سمك الزّينة في جمهوريتنا؟ وهل فكرت يوماً بذلك؟ وبأيّ شيء تتغذى هذه الأسماك؟

ـ انظر. لقد كنت أعمل في جهاز الميليشيا، لكن راتبي هناك لا يمكن مقارنته مع ما أكسب اليوم، بالرغم من أنني أدفع نسبة عالية من الضرائب، ومع ذلك أعيش عيشة ملوك، عن كل كلب أصدره أحصل على قسم من ثمنه بالعملة الصعبة، ويزورني المربّون، والمقتنون من جميع أنحاء أوروبا، وأسافر كثيراً للخارج لزيارة المعارض الدولية للكلاب، وقد حصلت على ميداليتين ذهبيتين على كلابي.

ـ كفى بربك يا يوديتا.

ـ ماذا؟ ألم يعجبك كلامي، ماذا كان علي أن أفعل؟ لقد سحبوا مني شهادة الطب ولم يتركوني أعمل حتى في تقطيع الأشجار، والسّادة في المنطقة لم يتركوني بحالي، أنا الآن سعيدة بين الكلاب. الكلاب ذات طباع مختلفة، ولكنها مع كل هذا لا تخونك يا فرانك.

أحس فرانك من كلامها ببعض التلميحات النّقدية الموجهة إليه، ومع ذلك قال لنفسه إن عليه الانتظار، وعليه أولاً أن يعرف كل شيء عن موضوع الكلاب. وأراد أن يتأكد من أن يوديتا لا تمزح أو (تستغفله).

ـ وكيف وصلت إلى هذه المهنة؟

ـ لم أصل إليها بمفردي، وقد بدا لي هذا العمل في البداية شيئاً مستحيلاً، كنت مضطرّة، ولم يكن لدي دخل أعيش منه، لم يتركوني أعمل في أي وظيفة، كان بإمكاني مغادرة المحافظة، ولكني لم أكن راغبة بذلك، قلت لنفسي... أموتُ جوعاً ولا أتركُ هذه المدينة، كانوا يُشبعونني وعوداً، ويرحبون بي، وعندما يدرسون أوراقي، يعتذرون.. آسفين. لا يوجد لدينا الآن مكان شاغر، ولا اعتماد، أو لقد شغل هذا المكان منذ مدّة.. لقد كانوا يلاحقونني، وأرادوا أن أصل إلى مرحلة الجنون، وبالمصادفة التقيت بالسيد هورفات، إنك تذكره ولاشك.. أليس كذلك؟ كان معنا في الجبال، وعندما التقيته كان يرتدي بدلة

رسمية لضباط الحدود، وكان فرحاً بلقائي، وذهبنا معاً إلى المقهى. هناك شرحت له وضعي بالتفصيل، فرغب بمساعدتي ولم أنتظر طويلاً حتى سمعته يقول:

ـ يودكو.. إننا بحاجة ماسّة للكلاب في هذه المنطقة وخاصة من نوع الفلتشاك، مركزنا لا يكفي لتغطية حاجاتنا، يمكنني أن أزودك بزوج كلاب نقية الدم. نظرت إليه في البداية كما نظرت أنت إلي قبل لحظات، وشعرت أنه (يستغفلني)، لكنه كان جدياً في كلامه، وقال لي أيضاً إنه بإمكاني أن أبني بجانب بيته الريفي مزرعة كلاب مثالية، لا تهتمي بالتصريف، هذا العمل اتركيه لي، لقد بدأت الفكرة تختمر برأسي، وشعرت أنها حلٌ مثاليٌ لوضعي، بعدها أمضى هورفات وقتاً طويلاً يقنعني، ويشرح لي كل شيء عن الكلاب ورعايتها، وعرض علي قرضاً كبدايةٍ للعمل.

كما ترى إنها منطقة خالية من الناس، وينبح فيها الكلاب طوال اليوم.

أنا عضوٌ في الجمعية الدولية لرعاية الكلاب، وأسافر لحضور المؤتمرات الدولية، ويزورني رجال الأعمال، والبنوك، وكذلك الأمراء، هؤلاء الذين لا يعني لهم شيئاً السفر من باريس إلى منطقة حدوديّة مهجورة في سلوفاكيا ليشتروا كلباً، أو ليحصلوا على النصيحة بشأن كلابهم أو في بعض الأحيان لتلقيح كلباتهم. وبدأت موضة الكلاب بالانتعاش في بلادنا. إن حديثي النِّعمة يشترون البينتشي (نوع من الكلاب المنزلية الباهظة الثمن).

ـ هل تعترفين بالربح، وتدفعين الضرائب؟ تكتبين فواتير، وتستعملين دفاتر نظاميّة، وتسجلين فيها كل شيء، من شراء ومبيع؟

ـ بالضبط، وحسب قواعد العمل الحر، لكن المشكل ليس هنا، المشكل أن هذا العمل يفرحني، ويمتعني، الكلاب جيدة، وتتمتع

بخصائص مختلفة، مثل البشر، تحسد وتجنُّ، بعضها كلاب، يخافون الصواعق، وبعضها يخاف الظلام والعتمة، وبعضها ذو شخصية قوية، ولحين الوصول بها إلى التدريب الكامل تمر بالكثير من المفاجآت والمرح، وهل تصدق أنني أبكي حين أضطر لبيع واحد منها ممن التصق بقلبي، كأنني فقدت إنساناً غالياً؟ ما زلت أحتفظ بكلبين من نوع بوكسير، ولا يمكن أن أتخلى عنهما بأي ثمن. لقد ربحت معهما مسابقة دولية، ولقد عرض علي الكثير من المال، ولكني لم أتخلَّ عنهما.

• وماذا حل بزوجك يا يودكو؟

ـ لم يعد عندي زوج، لقد أطلقوا سراحه قبلي، وطلقني وأنا في السجن، لكن هورفات كان رجلاً رائعاً، نصحني وساعدني، لم يبتعد عني ولم يُدِرْ لي ظهره، ولم يحاول التهرب مني كما فعل غيره.

قالت هذا الكلام بدون خجل، وشعر فرانك بأنها تقصده أيضاً، وكان ذلك واضحاً من نظرتها إليه.

ـ لقد علمت بما حصل في وقت متأخر.

ـ لا بأس، دعك من هذا.. ردت عليه، أصبح ذلك من الماضي، ولقد نسيته.

ولكن من الصعب عليه هو أن ينسى، لا يمكن أن ينسى تصرف الميت في ذلك اليوم، وفي تلك الليلة. تذكر فرانك بمرارة ذلك اليوم الذي وضع فيه ذلك الميت حجر الأساس للمعمل الجديد في إحدى القرى النائية، وكان حينئذٍ جديداً في مركزه، كان الجميع يتوقعون منه الكثير. لقد حضر السكان من المناطق البعيدة إلى هذا الاحتفال، ولسماع الخطبة التي سيلقيها، وبعد الاحتفال الخطابي جرت حفلة كبيرة، اضطروا لإنهائها بسرعة جراء المطر الغزير الذي هطل في ذلك اليوم. هرب الجميع، وركب المسؤولون سياراتهم الفخمة، وكان فرانك ينتظر

أحداً يأخذه معه، حين سمع صوتاً يناديه، اصعد معي، وكان ذلك صوت صديقه المسؤول.

صعد إلى السيَّارة وانتقلت الوليمة إلى أحد المطاعم القريبة، وعندما دخل فرانك أوقفه مدير المطعم ومنعه من الدخول، لكن ذلك الميت أمره:

ـ اتركه. لقد جاء معي.

كانت الطاولات ممدودةً ومليئة. أدار هذا الميت وجهه إلى فرانك قائلاً:

ـ عليك الآن أن تصور الوليمة...

أحس فرانك نبرة جديدة في صوته، نبرة غريبة، من الحق أنهما كانا في ذلك الوقت متباعدين، وكانا يشعران بالغربة، كانا يتقابلان في مثل تلك المناسبات، ولكن كانت النبرة مختلفة، نبرة آمرة. لقد أراد فرانك في حينها أن يدير له ظهره ويغادر.

بدأت الوليمة بسمك السلمون، و تعجب فرانك من وجوده في تلك الأوقات من السنة، إنه وقت التفريخ، وكان محظوراً صيده، ولكن على ما يبدو لا تطبق القوانين على بعض الناس وعلى بعض الأماكن، وبخاصة على هؤلاء الذين وضعوها.

جلس فرانك في نهاية الطَّاولة، لم يكن يحب مثل تلك الموائد الرسميَّة التي ربما تحتوي على السلمون، ولكنها تحتوي إضافة لذلك على الكثير من السخافات والمجاملات المملَّة التي يتصارع فيها الكثيرون للتقرب من رجال السُّلطة، والحديث معهم، وربما الحصول منهم على موافقة على بناء مخالف، أو رخصة بشيء ممنوع. لم يكن فرانك يحسد صديقه على مثل تلك الجلسات التي يضطر فيها إلى أن يسمع الكثير من الأمور السَّخيفة، وإلى توزيع الابتسامات، وتمثيل الاهتمام بكل ما يقال، وكذلك تقديم الوعود الكاذبة التي كان ينساها

فور خروجه من الوليمة. كان يبدو ضجراً. وكان الشيء الوحيد الذي يدعو فرانك للبقاء إلى نهاية الحفلة هو تمتعه بمراقبة الحضور وحديثهم، وتراشقهم بالكلام. لا أحد منهم يسمع الآخر، ومع ذلك يتصنع الميت الاهتمام بالحديث، وينتهي الحفل عادة بالنكات السخيفة القديمة. وقد شعر فرانك في تلك الليلة برغبة كبيرة بالذهاب الباكر ليلحق بالقطار، وعندما وصل إلى الباب ناداه صديقه.

- إلى أين؟

رفع فرانك كتفيه.

- لا تكن سخيفاً، انتظر، سوف نذهب معاً بعد لحظات. وخاطب الحضور قائلاً: أعتذر يا رفاق.. أنتم تعرفون.. مسؤوليات، علي أن أكون باكراً في المكتب.

انتظر فرانك، إن السفر بالسيارة سوف يكون أسرع من القطار، وما كان يعلم إن كان يوجد قطار في ذلك الوقت.

لم يستطع فرانك في السيارة أن يصمت، وألاّ ينتقد الوليمة، والأكل الذي حضر فيها:

- في مثل هذا الوقت من السنة، وكما أعلم فإن السلمون محمي، ويمنع صيده.

- دعهم.. لقد كان هذا اليوم بالنسبة إليهم عيداً كبيراً، وكان السلمون رائعاً.

قبل خروجهم من المدينة أعطى أمره للسائق بالانعطاف إلى اليمين. سوف نتوقف في مكان آخر، وسوف تفاجأ... لم يكن فرانك يرغب في التوقف، ولكن ماذا كان عليه أن يفعل. توقفت السيّارة أمام فيلا كبيرة محاطة من جميع الاتجاهات بحديقة كبيرة، كان مدخل الفيلا يشع بالضوء. ونزلا من السيارة.

ـ احضر بعد ساعتين.. قال صديقه للسائق، ولم يعط أي أمر لحارسه الشخصي الذي عرف ما عليه أن يفعل، وصلوا إلى الباب الحديدي، كبس صديقه الجرس، فتح الباب ووقفت خلفه يودكا.

ـ فرانك.. فرانك.. كم أنا سعيدة بحضورك، وقفزت عليه تعانقه، وشعر فرانك بأنها رحبت بصديقه بوجه ناشف، وبدون حرارة، بعد ذلك ظهرت امرأة بيضاء الشعر، ورجل كهل بنظارتين كبيرتين، وشاب يافع.

رحبوا بالمسؤول كما بالولد الضائع. لقد كان ذلك الشاب زوج يوديتا، والمرأة ذات الشعر الأبيض والدتها، رحبت برجل الدولة قائلة:

ـ أي شرف حصل لنا.. أما الرجل الكهل فقد هنأ المسؤول باستلامه المنصب الجديد.

ـ لا داعي لهذا الكلام.. سنظل كما كنا في السابق.

التفت إلى فرانك قائلاً:

ـ هل تعرف أنني كنت أتخفى في هذا البيت في الأيام العصيبة، ولو لم يكن فويتخ (اسم الطبيب) هذا الطبيب، لكنت الآن من بين الأموات.

لم يكن فرانك يعلم شيئاً عن هذا الموضوع، ولكنه كان يعلم أن صديقه قد اختبأ عند أحد الأطباء في هذه المدينة، ولم يكن يظن ولا بالحلم بأن ذلك الطبيب كان والد يوديتا.

قادوهما إلى صالون كبير ينتهي بسلم خشبي إلى الطابق الثاني، لقد كانوا بانتظارهما، عرف ذلك فرانك من الطاولة المحضّرة، المليئة بالطعام.

ـ لقد أكلنا.. اعترض المسؤول على الطّاوله المليئة.

ـ لابد أن تتذوقوا شيئاً، لقد قامت يوديتا بتحضيرها.

جلسوا حول الطاولة، وقامت يوديتا بتوزيع الطعام. فرح فرانك برؤية يوديتا بعد هذا الوقت الطويل، لم يكن قد التقى بها منذ نهاية الحرب، ولكنه سمع بأنها انتهت من دراسة الطب في براغ، كانت جلسة لطيفة، وكان فرانك قد شعر ببعض التوتر الذي كان سببه، ربما الصمت الذي بدا على زوج يوديتا، لقد كان هو الآخر طبيباً. كان وجه الطبيب الكهل يشع فرحاً، وكذلك وجه زوجته. بعد برهة خرج الطبيب الكهل من الغرفة، وغاب مدة قصيرة، ثم عاد وبيده زجاجة نبيذ معتّقة يغطيها الغبار.

قام بمسحها، وصب النبيذ في الكؤوس.

ـ إنه نبيذ رائع، لا يمكنك الحصول عليه في هذه الجمهوريّة. هل تتذكر؟ كان يوجه حديثه إلى المسؤول.... لقد شربناه معاً في ذلك الوقت، وكان في حينها جديداً، الآن صار له العمر اللازم للتعتيق.

ـ وهل لديك منه الكثير؟

ـ كثير، ولكن لضيوف أعزاء لم نرهم منذ سنين... لدينا منه الكثير.

كان مشهداً رائعاً أن تنظر إلى ذلك الطبيب الكهل وهو يتفحص الزجاجة، ويشرب الخمر من الكأس الكريستالي، كان منتشياً، يرفع الكأس ويضعه أمام الضوء وينظر إليه بكثير من الفرح ثم يرشف منه قليلاً، ويتذوقه بطرف لسانِهِ.

ـ لقد جهزت في القبو تبريداً خاصاً، يجب أن يبقى النبيذ في حرارة مستقرة.

تذكروا الأيام الماضية، وبعدها شرح لهم الطبيب الكهل ضرورة بناء المستشفيات الحديثة التي كان هو بالذات مديرها، ولم يشعروا بالوقت، وفتح الطبيب الزجاجة الرّابعة من النبيذ المعتق. وتوقف الحديث لبرهة بدا منها أنهم قد تأثروا بالنبيذ، وشرب المسؤول أكثر من الباقين، ووقع

في حالة صمت، وبدا كأنه لم يعد موجوداً بين الحاضرين، لقد كانت عيناه تلمعان بشكل مخيف ويبس فكّهُ، كان يشرب بدون توقف، كان يفرغ الكأس بجرعة واحدة على طريقة الثوار. بعدها انتصب وسار باتجاه الدرج المودي إلى الطابق الثاني، وأراد الطبيب مساعدته في سيره إلى مكان آخر، لكنه على الأكثر لم يسمع. صعد السلم الخشبي، ودخل إلى إحدى الغرف.

كانت تلك غرفة نوم يوديتا.. ركض خلفه الطبيب، وهو يصرخ، ولم يجدوا شرحا لتصرفه، كانوا ينظرون بعضهم إلى الآخر ولا يعرفون سبباً.

ـ لقد شرب كثيراً. قال فرانك.

انتصبت يوديتا وركضت. وصعدت الدرج الخشبي.

حاول الطبيب الكهل شرح تصرفه.

ـ لقد كانت غرفته في ذلك الوقت..

بعد قليل تفجر الصمت بصرخة قوية من يوديتا، ركض فرانك بسرعة، وفتح باب الغرفة، وتجمد في مكانه، لقد كان صديقه عارياً ومرتمياً على يوديتا في السرير، وكانت تقاومه بشدّة وثيابها ممزقة إلى جانب السرير، صحا فرانك من الصدمة وهرع إليه وسحبه من كتفيه وصرخ به.

ـ ماذا تفعل أيها الخنزير؟

استغلت يوديتا ذلك الظرف، وهربت مسرعة من الغرفة. دفع المسؤول فرانك، وركض عارياً خلفها وهبط الدرج، بينما كانت مستمرة بالصراخ.

وقف الجميع يرقبون هذه المسرحية، دخلت يوديتا إلى الحمام، وأقفلت الباب خلفها، هجم صديقه وتعثر وضرب الباب بقدمه حتى ظن الجميع بأنه قد كسره.

كان الطبيب الكهل أول من صحا من الحلم.

ـ كونياك.. أعطوه دفعة كبيرة من الكونياك. أجبروه على شرب كمية قاتلة من الكونياك، بعدها بدأ بالسعال، وخمد في مكانه. وبلحظة أصبح كالخروف، وسمح لفرانك أن يأخذه إلى الطابق السفلي، وفي أثناء هبوطه، تغوط على الدرج وترك فرانك يفعل به ما يريد.

ـ ارتدِ ثيابك... لقد قام فرانك بمساعدته في ارتداء اللباس، فقد كان من المتعذر أن يقوم بذلك بمفرده.

ـ تراوما... قال الطبيب.. إنها حالة من الجنون.. من حب التّعرّي.. لقد شرب كثيراً، إنه نبيذ ثقيل.. لا شيء، ومثل هذه الأمور يمكن أن تحدث.

هبط به فرانك السلم. ولم تكن هنك يودكا، وزوجها، وأمها.

ـ لا تؤاخذونا. قال فرانك.. سنذهب.

في تلك اللحظة انتابت المسؤول رجفة شديدة، تقيأ على أثرها كل ما بجوفه على السجادة، حمله فرانك مع الطبيب الكهل إلى الحمام، ومسحا وجهه، وثيابه الملطخة بالوسخ.

لم ينطق أحد بعد ذلك بكلمة واحدة.

وقفت السيارة أمام الباب الرئيسيّ.

قام الحارس الخاص بمساعدة فرانك في وضع المسؤول في المقعد الخلفي، وبلحظة غرق في النوم، عاد فرانك إلى المدخل المضاء.

ـ إنني شديد الأسف لما حدث، اعتذر فرانك للطبيب.

ـ أصيب بتراوما، ولم يكن يدري ما يفعل، رد عليه الطبيب. مد فرانك يده إليه مودعاً، وسمعه يقول:

ـ لا تنسوا أن تزورونا مرة ثانية، وفي أي وقت، أحس فرانك أن دعوته كانت من باب المجاملة، ولم تكن من القلب، وله الحق بأنْ يتصرف بتلك الطريقة.

جلس فرانك بجانب صديقه الغارق بالنوم، وبدأ يفكر بالذي حدث، لابد أن ذلك الطبيب محقٌ. إنها حالة تراوما، نوبة تعر، لقد قضى في تلك الغرفة ما يقارب الشهرين، وكانت يودكا تحملُ إليه الطعام، والشراب، وفي أحد الأيام وضعها على السرير، وقبلت في حينها، لقد كان الرجل الأول في حياتها الجنسيّة، وَلِمَ لا، لقد كان محبوباً من النساء، وبالنسبة ليودكا، كان بطلاً سرياً رومانسياً، تبحث عنه الشرطة السرية، والغستابو، وكانت عائلتها تعرف ذلك، وتحملته، وبعد سنين عادت إليه هذه الصور القديمة في حالة السكر الشديد، وانتعشت تلك الصور الرومانسيّة في مخيلته بتأثير الكحول، كان لا يدري حقاً ما يفعل، لن يقوم فرانك بتذكيره بالموضوع، ولا يظن أن أحداً سوف يذكره به. ومع ذلك كان موقفاً مؤلماً، ومزعجاً، لم يكن عليه أن يشرب، إنه لا يعرف حدود الشراب، ومن حسن حظه أن هذا الطبيب الكهل كان رجلاً حكيماً، وقد فهم تصرفه الأحمق.

قام السائق بتوصيل فرانك إلى منزله، وحين نزل من السّيارة كان صديقه لا يزال يغط في نوم عميق. نزل الرجل السري خلف فرانك من المقعد الأمامي، وسأله.

ـ ماذا حدث؟

ـ لا شيء، لقد أفرط في الشرب...

هل كان لابد من السؤال؟ فكر فرانك، هل عليه أن يقدم تقريراً؟

في مناسبة قريبة، حدق فرانك في عينَيْ صديقه، وشعر بأنه قد نسي تلك الواقعة، لكنه لم ينس كل شيء.

بعد عامين، وحين مر فرانك من تلك المنطقة، وشاهد في أعلى التلة مشفى جديداً مطلياً باللون الأبيض، شعر بسعادة كبيرة، لأن صديقه قد وفى بوعده، واشتاق كذلك للحديث مع يوديتا، فانحدر من الطريق الرئيسي، وسار في الطريق الفرعي الذي كان يلي التقاطع إلى اليمين،

كان الوقت ظهراً، اقترب من الفيلا واستغرب حين وجد أمامها أطفالاً صغاراً، وللحظة شعر بأنه أخطأ المكان، حاول أن يبحث بعينيه عن فيلا أخرى، لكنه كان متأكداً بأنها هي الفيلا التي زارها في تلك الليلة مع صديقه، وعندما خرجت منها مجموعة من الأطفال مع مدرستهم، عرف أنه لم يخطئ، صعد إلى سيارته، وتوقف أمام مخزن صغير لبيع الدخان، والجرائد، وسأل البائعة:

ـ أين يسكن الدكتور بولونك؟

كانت البائعة تشكو من نقص في السمع، فأعاد عليها السؤال كرة ثانية بصوت مرتفع.

ـ لا أعرف شيئاً، اتركني وشأني. ردت عليه بصوت غليظ.

يا لها من عجوز شمطاء، لا تريد المساعدة، كان الأولاد قد اقتربوا مع مدرستهم من المخزن، التفت فرانك إليها، وسألها.

ـ من فضلك.. هل تعرفين مكان سكن الدكتور بولونك؟

ـ دكتور بولونك؟ أجابت، لابد، وأنك صديقه.. هز فرانك رأسه بالإيجاب.

ـ أنت في المكان الصحيح، ولكن الدكتور لا يسكن هنا منذ سنتين.

ـ هذا غير ممكن. أجابها فرانك!

ـ كل شيء ممكن. ردت عليه.

ـ لقد كانت فيلاتهم.

ـ كما ترى الآن.. إنها ملك الدّولة.

بدأ فرانك يفهم، وفهم شيئاً لا يريد أن يفكر به، ولا يريد تصديقه.

ـ ألم ينتقلوا إلى المستشفى الجديد؟

ـ إلى مستشفى؟ أكيد.. ولكن إلى مستشفى من النوع الحصين.

ـ ولماذا؟ هل تعرفين؟

ـ لا أعرف شيئاً عن هذا الموضوع، عليك أن تسأل غيري.

تركته، وتابعت سيرها مع الأطفال..

التادل في الحانة الذي تعب فرانك من محاولة استجراره والاستفسار منه عن الدكتور.. ظن أنه مُخبرٌ، وتخلص منه بسهولة. كانت المدينة تعيش حالة من الخوف.

تذكر فرانك أحد المحامين الذين يعملون في هذه المدينة، وكان يعرفه، بحث عنه، وعندما جلسا معاً في مكتبه، سأله المحامي.

ـ لماذا أنت مهتم بهذا الموضوع؟

ـ بشأن يوديتا الشَابّة، لقد كانت معنا في الجبال، لا أظن أنها كانت لتقوم بأي عمل تخريبي، مُعَادٍ، وكذلك والدها الدكتور.

كان الخوف بادياً على وجه المحامي، هل عليه أن يتكلم، أم لا؟ ولكنه في النهاية انفجر.

ـ إنه عمل مُزْرٍ، كان الجميع في المنطقة يحبون الدكتور بولونك.

ـ ومتى ألقوا عليه القبض؟

ـ لا أتذكر التاريخ بالضبط، ولكن يمكنني أن أجده، لقد كان يدافع عنه أحد أصدقائي، إذا كنت تريد بعض التفاصيل.

ـ لا داعي للتفاصيل، أريد فقط التُهمة التي وجهت إليهم..

ـ تهمة ملفقة.. التعامل مع مخابرات أجنبيَة.

لم يندهش فرانك كثيراً من هذا الجواب، لقد كان يتوقعه.

لقد كان الدكتور بولونك يراسل أصدقاءه الذين هاجروا إلى الغرب، وكان لا يخاف، ويقوم بإخبارهم عن كل جديد، وكان من السذاجة، بحيث أنه لم يكن يفكر بوجود مراقبة على الرسائل، لقد قاموا بتجميع رسائله التي كتبها، وكذلك الرسائل التي تسلمها، لم يكن بإمكان الدكتور أن ينكر شيئاً في المحكمة، لقد حاول المقاومة، شرح لهم الأهداف الحقيقية من الكتابة، ومن الأفكار المكتوبة، ولكن بدون فائدة، كانوا يصرخون بوجهه:

ـ هل كتبت هذه الرسائل، أم لا؟ هل تعترف بأنك كتبتها؟ كان ذلك كافياً.

ـ لا بأس لقد كتب الطبيب الرسائل، ولكن يوديتا، وزوجها، لم يكتبا رسائل، كان بإمكانهما نفي معرفتهما بمضمون رسائل الدكتور.

ـ إنهما حتى لم يحالا إلى المحكمة، لقد بقيا رهن الاعتقال على ذمة التحقيق، وأطلقوا سراح الطبيب الشاب بعد مدة وجيزة، يوديتا ما تزال في السجن، لقد كانت هناك خلفية أخرى لسبب إبقائها في الحجز، وهذا شيء لا أعرفه.

ـ وماذا حصل لوالدتها؟

ـ أصيبت بجلطة دماغية على أثر تلك المحاكمة.

ـ شيء فظيع.. قال فرانك.

ـ هل بإمكانك.. من فضلك أن تتذكر متى جرى اعتقالهم بالضبط؟

ـ لا.. لا أتذكر بالضبط، لقد حدث ذلك في نهاية الصيف.

ـ سوف أساعدك.. في نهاية الصيف جرى احتفال بهذه المنطقة، وضع حجر أساس لأحد معامل النسيج.

فكر المحامي ملياً، يمكن أن يكون في ذلك الوقت.. انتظر.. أظن أنني تذكرت، نعم لقد تذكرت، لقد جرى الاحتفال في يوم الأحد، وبعد أسبوع تقريباً جرى اعتقالهم، ولماذا يهمك الوقت بالذات؟

ـ هل تتابع موضوعاً معيناً؟

ـ هل تعتقد بأن معرفتي لتاريخ الاعتقال سيساعد في كشف سر اعتقالهم؟

ـ لا أظن أن ذلك سينفعهم في الوقت الحاضر. ولكنْ هناك شيءٌ لا أفهمه، لقد كان لهم صديق مسؤول كبير، ويدين لهم بحياته، كيف تركهم في هذه اللحظة الحرجة؟ ولكنك ربما تعرف عن العلاقة بينهم أكثر من أي شخص آخر.

ـ هل يمكن التفكير بإعادة المحاكمة؟

ـ لا.. لا أظن، لقد وقع الدكتور على محضر اعترافاته، وثبت أنه تصرف من الناحية القانونية ضد الدولة، وهذا القانون ما يزال ساري المفعول، يمكنك أن تفكر كما ترغب، ولكن هناك القانون.

ـ لقد ضجت المدينة بكاملها، ولكنك في النهاية تعرف الناس، لقد بدأوا بعد ذلك بمدة بسيطةٍ ببناء مشفى جديد، وحولوا فيلاّ الدكتور إلى مدرسة للأطفال، على ما يبدو لقد تعودنا جميعاً على الظلم، ولم نعد نقف طويلاً عند هذه الأمور.

فكر فرانك.. هل عليه مصارحة المحامي بما يعرف؟

ـ إن ظهرت حقائق جديدة... لنفترض مثلاً أنه أمكن إثبات كون هذه القضيه لها خلفية سياسية مقرفة، ولنقل إنهم تخلصوا منهم لأنهم كانوا على دراية ببعض الأمور، واعتقلوهم، ولفقوا لهم التهم ليتخلصوا منهم، وبالتالي لكي لا تتكشف أمورهم، ولنقلْ أمر بعض المسؤولين في السلطة، هل يمكن أن نفعل شيئاً في هذا الاتجاه؟

نظر المحامي بوجه فرانك المتعب، وقال له.

ـ هل تعرف شيئاً؟

ـ ربما، أعرف شيئاً، ولكنك لم تجبني على سؤالي، هل يمكن أن نفعل شيئاً؟

ـ ليس الجواب على هذا السؤال بهذه البساطة: أنت تتحدث عن مسؤول رفيع المستوى، وهذا يتطلب معرفة مركّزة، كذلك أشياء أخرى عن وضعه في السُلطه ومركزه.

ـ وأنت شخصياً.. ألم تسمع شيئاً؟ ألم يتحدث الناس عن أمور كانت تجري في الفيلا؟

ـ لم أفهم قصدك. لقد قيل في المدينة، إن الدكتور بولونك كان يقتني كميات كبيرة من النبيذ. وكان منزله مليئاً بالزوار دائماً.

قرر فرانك.

ـ أنت مُحامٍ، و مسؤول عن سرية اعترافات موكليك.

ـ لا يمكنك في هذه الأيام الاعتماد على هذه الفرضيات، لقد تغيرت الأمور، تغير الناس، وتغيرت معها المفاهيم، وأعتبر مسؤولاً كمحامٍ عن الكشف والمساعدة في كل ما يلزم للوصول إلى العدو، وتجريمه.

لقد كانت كلمات صريحة أعجبت فرانك.

ـ سوف أخاطر أيها الدكتور، سوف يكون شيئاً رائعاً إن علم الناس الحقيقة.

وحكى له فرانك كل ما يتذكره عن تلك الليلة في الفيلا.

تنهد المحامي بعد أن سمع حديث فرانك، ووصفه لتلك الليلة، لقد كنا جميعاً نشعر بأن هناك شيئاً من الغموض في تلك القضية، وأن هناك سراً يكتنف تلك القضية، لكننا قمنا بتفسير كل شيء بشكل خاطئ، كنا نعتقد بأن تلك القذارة كانت موجهة ضد أصدقاء الدكتور بولونك، لقد حدث صراعٌ شديدٌ حول من سيتولى رئاسة المشفى، وكان يقف في وجه بولونك خصمٌ قويٌّ، لم يكن طبيباً. هل علي أن أصرح باسمه أو أنك تستطيع تخمينه؟

ـ لست بحاجة لمعرفة الاسم.

ـ كنا نظن أن كل شيء حصل من أجل الوصول إلى إدارة المشفى، أما بعد أن سمعت منك ذلك الحديث فقد وضح الأمر بشكل جيد، وإذا كان تخميني صحيحاً فإنك كنت موجوداً في تلك الليلة.

ـ نعم كنت موجوداً، وأنا من أعطاه الكونياك ليخمد. ما رأيك إن وضعنا الأمور في هذا السياق، وتقدمنا باعتراض، وقمنا بفضح هذه العملية القذرة؟

أدار المحامي رأسه.

ـ لن تستطيع إثبات شيء. لمن تريد أن تقول هذا الكلام؟ للقضاة الذين يخافون على مناصبهم، أم لجالوفيتش ينتظر مثل تلك الأخبار؟ لن يتغير شيء، ولن تتغير سوى الكراسي لا أكثر ولا أقل، لن تساعد بولونك في شيء، وربما أنت من سيدفع الثمن، لن يساعد بولونك سوى العفو العام، أما بالنسبة ليوديتا فإنهم حتماً سيطلقون سراحها قريباً، لأنهم لا يملكون ضدها أدلّة. اسمع نصيحتي ولا تتحدث بهذا الموضوع مع أحد. اتركه لنفسك، وأنا من ناحيتي سأسكت أيضاً! أنا لا أزال من المحامين القدامى، ولا أزال أتمتع ببعض المزايا القديمة للمحامين، ولكن ما حيلتنا في هذا الزمن؟

أفضل ما تفعله يا فرانك هو نسيان الموضوع من أساسه، وحسب معلوماتي لا يوجد من يتولى في الوقت الحاضر مثل هذه القضايا، هل أستطيع أن أكون معك صريحاً؟

ـ تفضل.. يمكنك طبعاً.

ـ كيف حصل أنك ما تزال طليقاً حتى الآن؟

لقد فوجئ فرانك بهذا السؤال، ولم يكن يتوقعه.

ـ معك حق.

ـ ألا تظن أن خلف هذه القضية أموراً أخرى؟ ويمكن أن يكون توافق الوقت عبارة عن مصادفة، أو ربما كان يعلم شخص آخر بالموضوع، وربما كانوا يريدون سحب بعض الاعترافات ضد صديقك بما يتعلق بتلك الليلة.

تذكر فرانك كيف سأله في تلك الليلة الحرس الشخصي لصديقه عما جرى، عندما وضعه مع فرانك بالسيارة، وماذا كان يفعل طوال الوقت خارج الفيلا، ألم يكن بإمكانه سماع ورؤية ماحصل في الداخل؟

ـ لا أظن أن هذه الفرضية صحيحة. رد فرانك، لأنهم لو كانوا عرفوا ماجرى لكانوا استدعوني، وفي هذه الحالة كان من المفروض أن أكون معهم في السجن.

ـ إنها مشكله معقدة أضاف المحامي، وهكذا انتهى الحديث.

ـ هل تعيشين بين تلك الكلاب وحيدة؟ عندما جلس فرانك ويوديتا في المقهى سألها:

ـ والدي في كندا.

ـ هل منحوه جواز سفر؟

ـ أعطوه الجواز بعد أن أطلقوا سراحه، ولربّما كانوا أعطوني أيضاً إن طلبت، ماذا علي أن أفعل في كندا؟ لقد كنت سعيدة مع كلابي.

ـ وزوجك؟

ـ آه.. لقد كان فقط... أنت تعلم، كيف علي أن أشرح لك؟

فهم فرانك قصدها.

ـ لماذا تخليت عنه بهذه السرعة بعد التحرير؟

ـ لم أكن أريد أن أكون عقبة في طريقه. كان متزوجاً، وكان له ولد، في الجبال كان الأمر مختلفاً، وكان يحب زوجته، وكنت أشعر بذلك.

ـ والآن تربين الكلاب.

ـ لا تكن سخيفاً، ولم لا؟ إنني أعرف هوايات أسوأ، ما هو المضحك في ذلك.

ـ لماذا حضرت للوداع؟ سألها فرانك.

ـ لماذا؟ إنه ميت، وكنت أريد أن أراه، لقد تركتموه جميعاً، وحزنت من تصرفاتكم نحوه، تقول إنه تغير، ولكنه بالنسبة لي لم يتغير، بالنسبة لي بقي كما كنت أعرفه، قويّاً، وصريحاً، لقد تأسفت عليه، ولا يمكن تحميله كل الأخطاء، لم يكن باستطاعته مساعدتنا، وإن كان فعل، فإنهم سيستغلون ذلك ضده، لقد كتب له والدي رسالة

من السجن، وعلى الأغلب لم يستلمها، أنا على ثقة بأنه كان لن يتركنا لو كانت الأمور بيده.

يا ربي.. إنها بهذه السذاجة لتفسر الأمور على هذا الشكل؟ قال فرانك لنفسه.

ـ يودكو.. ألا تظنين أنّ الأمر كان يمكن أن يكون مختلفاً؟

ـ لا أظن، وماذا تريد أن تقول؟

ـ تعرفين جيداً ما أريد قوله.

ـ إنها ليست حقيقة، وبدت غاضبة من كلامه ومن تفكيره، لم يكن ليفعل ذلك، كيف تستطيع أن تظن به بذلك السوء؟ أنت بالذات.

إنها تحبه. لقد كان الرجل الأول في حياتها، وربما الحب الوحيد، لقد عرفته قوياً، شجاعاً، وبقي في مخيلتها على هذا الشكل بغض النظر عما حدث معهم بعد ذلك. إنهم مخطئون..

أليس عجيباً أن يفكر به أولئك الناس الذين كان سبباً في تشردهم وتعاستهم؟ لقد أضر بيودكا، وأضر بفوندا ومارتين، وماركيتا، وهل أزعج فرانك أيضاً؟ لم يزعج فرانك، ولم يتسبّبْ في تعاسته، وتذكر فرانك سؤال المحامي عندما كانوا يتحدثون في قضية الدكتور بولونك...

ـ لماذا أنت طليق حتى الآن؟ ربما يوديتا محقّة في كلامها، ربما كانوا يريدون استغلال موضوع الدكتور بولونك ضده.. من يعلم لا أحد سوف يعلم.

لكن فرانك لم تعجبه فكرة ترك الطبيب في السجن، ذلك الطبيب الذي عرض حياته للخطر في سبيله، كذلك ترك يوديتا، الفتاة التي أحبته، ومهما كانت تظن يوديتا، فان مافعله صديقه لا يدل إلا على نكران الجميل، والتهرب من الواجب، ورفس الناس الذين أحبوه

وخدموه، وبهذا الشكل فإنّه قد نضج للسقوط النهائي، وكان الموت السبيل الوحيد لإنقاذه.

ـ هل تعرفين ماذا يفعل الآن تسيكل؟ سألها فرانك.

ـ ذلك المصاب الذي كان معنا في الجبال، الذي حملناه إلى بيت المختار.

ـ نعم، هو بالذات.

ـ ماذا يفعل؟

ـ إنه يعمل طيّاناً.

ـ وما الخطب في ذلك؟ لماذا تذكرته في هذه اللحظة؟

ـ لأنني أحب أن أخبرك، أنه لم يعمل طياناً في حياته، لقد كان مديراً لأوتيل كبير في إحدى المناطق.

ـ حتى الآن لا أفهم قصدك. ردت عليه يوديتا. أعرف الكثيرين من الشباب الذين كانوا معنا في الجبال وقد تسلموا مناصب إداريّة بعد الثورة.

ـ ولكن تسيكل لم يعد يعمل مديراً، لقد انتهت إدارته، ولابد أن الرفاق من مجموعته يهزؤون منه الآن ويسألونه عن صديقه الذي كان يظن أنه سيكون داعماً له في قضيته: أين صديقك يا تسيكل؟ ولماذا لم يساعدك عندما وقعت؟، وهو يرد عليهم بالجواب نفسه الذي سمعته منك، ـ إنه لا يساعد أصدقاءه عندما يسقطون أو يتعرضون للمشاكل، وكما تقولين أنت، لم يكن يستطيع فعل أي شيء، لقد تجادلت معه حول هذا الموضوع، ووصلنا إلى حدّ المشاحنة.

ـ إنني لا أفهم، وما علاقة ذلك بمشكلتنا؟

ـ هناك علاقة كبيرة. اسمعي: لقد كانت تقام في المنطقة التي يعمل فيها تسيكل الكثير من المؤتمرات والمناسبات، وكانوا بعد الانتهاء من الاجتماع يذهبون لزيارة تسيكل في الأوتيل. يا تسيكل إننا بحاجةٍ إلى

حفله لمائتي شخص، نحتاج للمطعم ليومين، قدم تسيكل الخدمات، وكنت هناك يوماً حين سألهم تسيكل: ومن سيدفع الفاتورة؟ هل تعرفين الجواب الذي قاله له صديقنا المتوفى... إنك شيوعي، أليس كذلك؟ ولماذا تسأل؟

لقد كان تسيكل شيوعياً ولم يعد يسأل عن الفواتير. وبعد مدة حضرت لجنة المراقبة، ضحك منهم تسيكل، وتركهم يفتشون كما يحلو لهم، وقاموا بالتفتيش، ووجدوا عجزاً بالملايين، وبما أنه كان شيوعياً كانت المصيبة أكبر، شيوعي ومهمل؟ لقد سود صورة الإنسان الشيوعي، وكانت النتيجة أنه حكم عليه بالسجن سبعة عشر عاماً، قضى منها الثلثين، ألم يكن يستطيع صديقه فعل شيء؟ هل كانوا سيستغلون ذلك ضده. إن فعل؟ الجواب نفسه. لو كان تدخل في هذه الحالة، لكانوا استغلوها ضده بالطبع، وماذا كان عليه أن يفعل؟

ـ كان بإمكانه الوقوف أمام المحكمة كشاهد، لقد كانت المحاكم في ذلك الوقت تحت سلطته، وكان بإمكانه شرح الموضوع، وتبرير العجز الحاصل، كان من صلاحياته إيقاف هذه الدعوى ضد تسيكل، كان يستطيع فعل الكثير من أجله، لكنه تركه، كما ترك والدك، وترك الآخرين..

ـ وأنت لماذا لم تفعل شيئاً، ولم تحرك ساكناً بالرغم من معرفتك للقصة من بدايتها؟

ـ لم أكن في حينها موجوداً في المنطقة، وعلى كل حال لم يكن بإمكاني شرح سبب ضياع الملايين، كان هو الوحيد الذي بإمكانه تبرير هذا الضياع. لقد ذهبت إلى المحكمة عندما علمت بالحادثة، لم يتركه القاضي يدافع عن نفسه، كان يصرخ بوجهه مستنكراً فعلته، وتبذيره لأموال الشعب، والدّولة، ولم أحتمل هذا الوضع السخيف وصرخت بأعلى صوتي في المحكمة مستنكراً هذه الفضيحة. عندها أمسكوا بي

وأخرجوني من المحكمة، وأوقعت نفسي بمشاكل كبيرة نتيجة لكلامي. لم يساعد أحداً يا يودكو.

شعر فرانك بأنه ضرب على الوتر الحساس، وشعر أن يودكا تململت وبدأت تفكر بعمق.

عندما وقفا، واستعدا للمغادرة، كسرت يودكا الصمت وقالت:

ـ أنا سعيدة مع الكلاب، وأشعر معها بالأمان والرّاحة.

ووعدها بزيارة في أقرب وقت، ولم يشعر بأن حديثه قد أفرحها، قام بتوصيلها إلى المطار.. إنها على عجلة.. تريد العودة إلى كلابها.

لم يعد فرانك إلى صالة الحزن. ولِمَ عليه أن يعود؟

ـ 16 ـ

قام فرانك في المساء بتجفيف الصور التي أنجز بتظهيرها. الصور يمكن أن تصنع المعجزات عندما يعرف المصور قوانين التصوير، ولقد وجد صورة وحيدة ناجحة لموكليك، وهو يقف بجانب التابوت، إن فرانك يعرف آلته، ويعرف كيف يتصرف معها باحترام.

عندما وضع الصّورة في ألبومه الخاص انتابته رغبة كبيرة بالضحك من هوايته، لماذا كل هذا التعب؟ ولماذا يقوم بهذا العمل؟ إن أحداً لن يفهم هذه الصُّورة، وهي لا تعني شيئاً بالنسبة للآخرين، من هو موكليك العملاق؟ لا أحد يعرفه، بعد مدة لن يعود أحد يتذكر هذا الميت الصغير، لكن فرانك يعرف، ويعرف أيضاً لماذا قام بهذا العمل، وبالنسبة لفرانك يبقى هذا العمل ذا فائدة كبيرة.

بدأ يقلب الألبوم. وشاهد صورة الميت، وهو في ريعان شبابه. صورة ماركيتا، والأصدقاء من الجبال، السباحة، رحلات إلى الجبال، المسرح الذي كانوا يقدّمونه، التدريب سنة بعد سنة على التمثيل حيث كان

صديقه يلعب دائماً دور البطل، المعارك اليوميّة، الإضرابات، الانتخابات، صديق فرانك أصبح ضابطاً في الجيش، الاجتماع الأخير.. الجبال، مجموعتهم.. نظر فرانك إلى بعض الصور وسرح في خياله.. وتذكر صديقه عندما أصبح المسؤول الأول عن النقل، صورته وهو في العربة التي عبرت أول نفق في الجبال، صورة أخرى له عندما كان ماراً فوق الجسر الجديد، وفي صورة بدا عارياً وبيده الكرباج وهو يعمل مع العمال على بناء جسر جديد، وهذا هو في صورة معبرة حين طرد من الكرسي الحكومي أحد السياسيين الخونة. وصورة أخرى له وهو يقف في مقدمة الميليشيا.

ويتبع ذلك صور أخرى، وهو يضرب فلاحة على مؤخرتها، وكان في حينها حديثاً في مركزه، ولم يكن قد دفأ مجلسه بعد في ذلك الكرسي، و... العمل والعمل طوال اليوم، مئات المشاكل والصعوبات في اليوم الواحد، نقص في المواد الغذائية، تأخر القطارات، الفلاحون لم ينجزوا الخطة، وقفوا ضد الجمعيات التعاونية، اجتماعات طويلة، سفر إلى الريف والمدن البعيدة، إلى الأماكن الساخنة، قرارات سريعة، التوقيع على أوامر الصرف للايين الكورونات المخصصة للتنمية، مشاكل من نقص العمال، وبالإضافة لذلك بدأ الكاثوليك بافتعال المشاكل، وانتفاضات في الريف، إجبار الكنيسة على الاعتراف بالحكم، وقطع صلتها بالخارج.. وبالبابا.. عليكم التوقيع.. لم يوقع الرهبان بأكملهم، وقام الفلاحون بالعصيان، حملوا فؤوسهم وعصيهم وحرسوا الكنائس وبيوت الرب، لقد كان الوضع سيئاً جداً في المنطقة التي كانت تحت إمرته، وكانت تصل الأخبار إلى مكتبه عن تعرض الشاحنات للنهب، وتزايد حوادث القتل، وفي إحدى المناسبات قُتِلَ أحد المسؤولين الذين كانوا يعملون معه، لقد تركوا حل كل هذه

المهمات عليه، إنها منطقته، عليه أن يعيد إليها النظام، وعليه أن يثبت كفاءته...

كان فرانك حاضراً في مكتبه حين وصله خبر قطع الطريق في منطقته لمنع وصول المساعدات والمؤن الغذائية إلى المدينة. وشاهد فرانك وجهه الأحمر الغاضب حين طلب حضور قائد المليشيا فوراً إلى مكتبه.

ـ مئة رجل في الحال. صرخ بوجهه.

أخرج من درج مكتبه مسدساً.

ـ لنذهبْ. قال لفرانك.

مئة رجل صعدوا إلى سيارات النقل، حضروا من المعامل، وبدأت الرحلة إلى منطقة العصيان.

شاهدوا من بعيد التحصينات التي وضعها سكان القرية على الطريق. بدأ فرانك بالتصوير. وقف على أحد المتاريس عجوز، يلوح بجهد كبير إلى قائد السيارة الأولى، وكانت تقف خلفه بعض النساء المسلحات بالعصي، والشوك، والحجارة، أعطى صديق فرانك الأمر لسائق السيارة بالتوقف أمام الحاجز.

قفز من السيارة واتجه إلى الرجل الكهل الذي كان يمسك بيده بندقيّة، ودفعه بيده وأخذ من يده السلاح، وصرخ بوجهه، وبالنساء الواقفات من خلفه.

أخلوا حالاً هذه التحصينات. قفزت إحدى النساء على الأحجار المتراكمة، وبدأت بالصراخ، هجم رجال المليشيا على النسوة اللاتي هربن مسرعات أمامهم حتى وصلن إلى الطرف الثاني من القرية. كنَ يتلقين الضرب بالعصي التي أحضرها رجال الميليشيا معهم في السيارات. أعطى القائد الأوامر لإحضار الرجال من المنازل.

ـ تنظيف الطريق. معكم ساعة واحدة، أريد أن يكون الطريق سالكاً خلال ساعة واحدة.

بعد ذلك أخرجوا الخوري من الكنيسة، ودفعوه أمامهم حين أظهر بعض المقاومة، وكان من الذين وقعوا على البيان.

ـ كنت أظن أنك ذكي. بادره القائد.. إننا لسنا ضدكم، أريدك غداً في المدينة، ولن يجري أي قداس هنا.

وأمر باجتماع مجلس القرية.

ـ مطرودون، ستجري انتخابات جديدة، منذُ الآن سيحكم في القرية الشخص الذي سوف أقوم بتسميته، ومن الصباح عليكم البدء بإرسال المواد الغذائية للمدينة.

انفجر فرانك بالضحك حين نظر إلى صورة المرأة التي أدارت لهم مؤخرتها، وأحد رجال الميليشيا يضربها على مؤخرتها، وكيف سقطت على الأرض، وهو يرفعها ويتابع ضربها.

ـ لا توجد طريقة أخرى لعقابهنُ. الدم لا يمكن نسيانه، أما الازرقاق على جلودهنّ فإنه يتلاشى بسرعة ولا يترك أثراً. قال لفرانك حين عادوا إلى المكتب.

لا.. لم يكن بالإمكان حل هذه المشكلة بطريقة أخرى.. تابع فرانك مشاهدة الصور في الألبوم.

مجموعة من الفلاحين في غرفة السكرتيرة هورفاتوفا، يمسكون قبعاتهم بأيديهم، ويقفون بكل أدب منتظرين السماح لهم بمقابلته. تركهم ساعة كاملة ينتظرون ثم سمح لهم بالدخول بعد أن أعطى الأمر لهورفاتوفا.

ـ ماذا يقلقكم يا رفاق؟ سألهم بصوت عطوف مليء بالسخرية

ـ إن كنتم تريدون مساعدة الخوري فلا تضيعوا وقتكم.

أحدهم قال بصوت مهذب:

ـ لم نحضر من أجل الخوري، إنما حضرنا من أجل الكهرباء.

تصنع الدهشة من حديثهم. من أجل الكهرباء؟ يوجد لديكم الكثير منها على حد علمي. أليس كذلك؟ لقد وصلتكم قبل ثلاث سنوات..

تحركوا في أماكنهم، وسعلوا بصوت منخفض، ثم خرج الكلام بصعوبة من أفواههم.

ـ طبعاً يوجد كهرباء في المنطقة، ولكن هذا الشاب السخيف، إنه السبب، ولو لم يكن في المستشفى لكان أخذ نصيبه.

استمر في لعبته معهم، وتركهم في حيرتهم.

ـ حتى الآن لا أفهم ما تريدون قوله. آن الأوان لأفهم قصدكم. أي شاب سخيف وما دخله بالكهرباء؟

ـ كل ما جرى في المنطقة كان بسبب الخوري، وخادم الكنيسة أيضاً، لقد حرضوا النساء، والنساء معتوهات كما تعلم، كانوا يحمون الكنيسة من الهجوم. فقد اقتربت في ذلك المساء من الكنيسة بعض السيارات، وصعد على أثرها خادم الكنيسة إلى البرج وبدأ يقرع الأجراس كالمجنون، وصعد أحد الأولاد إلى عمود الكهرباء وقطع أسلاك الكهرباء، ولم يكن في السيارات أحدٌ سوى عمال الغابة، لقد ذعر الناس وظنوا أن الميليشيا حضرت لتأديبهم.

شعر فرانك كيف كان وجه صديقه يرتجف، وهو يخفي رغبة كبيرة بالضحك، لكنه حاول أن يبدو جدياً.

ـ إنه أمر خطير يا رفاق، وأخطر مما يبدو للوهلة الأولى، أنّ الأسلاك من النحاس.

ـ بالطبع.. قالوا مؤكدين حديثه، إنهم أيضاً يعرفون أنها من النحاس.

ـ هل تعلمون أيها الرفاق أننا بصدد تنفيذ الخطة الخمسيّة؟

ـ طبعاً نعرف، وكيف لنا ألا نعرف؟

ـ وتعرفون أيضاً بأن النحاس أغلى من الذهب، ونحن نستورده من الدول الرأسمالية، وهم لا يريدون بيعه لنا إلا بالعملة الصعبة، ومن أين لنا بالعملة الصعبة؟ كيف نحصل عليها إذا لم نكن مسبقاً قد وضعنا هذا الموضوع في الخطة الخمسية؟

ـ ولكن أيها الرفيق قطعة صغيرة فقط من النحاس وتُحَلُّ المشكلة.

ـ هكذا تظنون، قطعة صغيرة، وهذه القطعة يمكن أن تلزمنا لمد الشبكة الكهربائية في مناطق أخرى، والتي هي أيضاً بحاجةٍ للكهرباء، ليس لدينا في الوقت الحاضر كهربائي، إنهم جميعاً يعملون في مناطق أخرى، لا أستطيع المساعدة أيها الرفاق، حقيقة لا أستطيع، قريتكم لم تكن في الخطّة، متأسف، عليكم أن تدبروا أموركم، لابد وأنكم تملكون في منازلكم مصابيح تعمل على الكاز.

ـ إنهم.. قال أحدهم: أيها الرفيق من قرية محترمة، ولكن السبب.. هؤلاء النسوة الشيطانات.

إننا لا نريد شيئاً بدون مقابل، ويمكن بالإرادة الحسنة الحصول على هذه القطعة النحاسية، يمكننا دفع أجور العمال بسخاء، لسنا بخلاء.

ـ ماذا؟ صرخ مظهراً غضبه مما سمع، تريدون رشوة العمال ورشوتي؟ كان ممكناً أن يحدث ذلك في النظام القديم، لا يمكنكم رشوتي. آسف، وقتي ضيق، وعندي اجتماع هام بعد لحظات أيها الرفاق، آسف لا يمكنني مساعدتكم، انتهى الاجتماع.

خرجوا بكل مظاهر الحزن، وعندما وصلوا إلى الباب، أوقفهم، وقال، لقد قلتم إنكم تحتاجون للكهرباء من أجل آلات التقطيع..

ـ نعم هذا ما كنا نريد قوله

ـ الدولة سوف تعطيكم الكهرباء لهذا الغرض. ما أخبار الحليب، والزّبدة؟ وهل نفذتم الخطة؟

ـ هذا هو السبب.. لم نستطع التنفيذ، لقد كان عاماً سيئاً.

ـ هكذا إذا.. كان عاماً سيئاً.. في القرية التي تبعد عنكم ثلاثة كيلو مترات لا يعرفون شيئاً عن العام السيء، وينفذون بصدق عقودهم مع الدّولة، ولا يخربون الملكيّة الجماعيّة، والنساء لا يركبهنّ الشيطان هناك، والآن تحضرون لتطلبوا قطعة نحاس. حتى هذه القطعة يجب على العمال إنتاجها في المعامل، وهم يحتاجون للطعام أيضاً، ماذا عليهم أن يأكلوا، إذا لم تنفذ كل قرية تعهداتها مع الدولة؟ أحضروا لي بسرعة كشفاً عن كمية إنتاجكم وتوريدكم إلى المدينة من الأغذية، ربما نجد لكم قطعة النحاس، وسنجد العمال الذين سوف يقومون بتركيبها.

بهذا الجواب تركهم يخرجون.

ـ لماذا كل هذه القسوة؟ قال له فرانك نصف مازح.

ـ لا تخف. سيحضرون ثانية وسأوقع معهم اتفاقاً. إن أنتجوا سوف يحصلون على الكهرباء، وإن لم ينتجوا سوف يبقون على العتم. من تعود على الكهرباء في منزله لا يمكن أن يعيش بدونها، ولا يمكنه أن يعيش على مصباح الكاز، علما بأن الكاز نادر في الوقت الحاضر.

بهذه الطّريقة كان يحكم، ولم تكن هناك وسيلة أخرى لحثّهم على العمل في تلك الأوقات.

في أحد الأيام وصلته رسالة مضحكة من منطقة جبليّة قام بتوقيعها السكان إضافة للمجلس البلدي:

لن ننفذ أية خطّة، ولا نحتاج الدّولة في شيء، ولا نخاف العسكر، ولدينا أسلحة للدفاع عن أنفسنا. وجده فرانك يضحك من الرسالة.

ـ اقرأ ماذا كتبوا للسلطان التركي.

لم يجد فرانك في كتابتهم شيئاً مضحكاً..

ـ إنه نداء للعصيان، وإذا لم نقم بتأديبهم، فسوف تعم الفوضى في الجمهورية، سوف تضيع هيبة الدّولة.

استمر بالضحك، ثم رفع سماعة الهاتف وطلب من عامل المقسم إيصاله مع مدير الاتصالات في المنطقة.

ـ أيها الرفيق: يوجد مركز بريد في المنطقة الجبليّة أليس كذلك؟ وتلفون أيضاً؟ متى قمتم بتوصيله؟

ـ قبل نصف سنة؟

ـ حسناً، اقطع الاتصال الهاتفي عن هذه المنطقة، والبريد أيضاً إلى إشعار آخر، أرسلوا موظف البريد إلى منطقة أخرى أو امنحوه إجازة بدون راتب.

ـ ماذا؟ من المسؤول عن الأمر؟

ـ أنا المسؤول، وسأرسل لك كتاباً بهذا الموضوع. لا تهتم بهذا الموضوع إنها مسؤوليتي لست غبياً، وأعرف ما أفعل.

كبس زر التلفون مرة أخرى، وطلب من المقسم.

ـ مدير النقل.

ـ كم عدد الحافلات الواصلة إلى المنطقة الجبلّية؟

ـ اثنتان في اليوم؟

ـ إلغاء من هذه الساعة إلى إشعار آخر، كل هذا على مسؤوليتي.. أريد أن يبقوا بدون اتصال، أعرف واجبي، وأعرف السبب.

كبس الزر مرة أخرى:

ـ معمل الكهرباء.

ـ أيها الرفيق.. حالاً.. تقطع الكهرباء عن المنطقة الجبلية إلى إشعار آخر، طبعاً على مسؤوليتي، وسوف أرسل لك هذا الأمر كتابة... متى؟ فوراً.

ـ كبس الزر... الميليشيا... الرئيس..

ـ مئة رجل... سوف تذهب معي... حالاً.. خلال نصف ساعة سوف ننطلق.. سوف أشرح لك في الطريق.. طبعاً مسلّحون، وخذوا معكم بعض البلطات أيضاً.

وهدأ للحظة.

نزلوا من السيارات أمام مركز البلدية، كانت القرية فارغة من الناس، وكأنها ميتة، لكن فرانك لاحظ بعض العيون خلف النوافذ تراقب ما سيجري، لم يحدث أي شيء، نظر فرانك إلى الصّورة التي كانت أمامه في الألبوم، والتي كان فيها صديقه ينزع بالبلطةِ الشاخصة الخشبية المكتوب عليها موقف باص وأرسله إلى الحافلة.

ـ إلى السيارات. لنعد إلى البلد.

انتهى كل شيء؟ سأله رجل الميليشيا مندهشاً.

ـ نعم.. انتهى كل شيء.. أمرهم في المدينة بالتوقف في محطة الباصات.. ثم قال لفرانك: تعال معي.. وذهبا إلى شباك التذاكر.

ـ متى يغادر الباص إلى الجبال.. سأل صديقه بائع التذاكر الجالس خلف النافذة والذي لم يعرفه.

ـ من اليوم لا توجد باصات إلى الجبال.

ـ لماذا؟ سأله.

ـ السادة في المركز فقدوا عقولهم، وأعطوا الأوامر..

لم يجب. خرجا ونظرا في بهو المحطة إلى برنامج الرحلات، وسمعا صوتاً مبحوحاً في الميكروفون يعلن إلغاء الرحلات إلى الجبال إلى أجل غير محدود.

ـ سوف يحضرون خلال أسبوع ليتوسلوا... قال لفرانك وهو يضحك.

وقد حضروا بعد ثلاثة أيام، وتركهم ينتظرون ثلاث ساعات في الممر، وعندما دعاهم إلى غرفته، لم يأمرهم بالجلوس، وكانت أمامه على الطاولة رسالتهم. حمل الرسالة بيده ولوح بها أمامهم:

ـ من منكم وقّع على هذه الرسالة؟

لم يجب أحد. على الأغلب وقعوا جميعهم.

ـ هل يوجد في القرية من لم يوقع؟ سألهم.

نظروا في وجوه بعضهم متسائلين. إنهم لا يعرفون.

ـ لا تعرفون.. أليس كذلك؟

ـ إذا وجدتم من لم يوقع أرسلوه إلى مكتبي بعد أسبوع.. بعد أسبوع، وليس قبل ذلك. اخرجوا الآن. لا يوجد ما نتحدث به.

بعد أسبوع حضر القس، والمدرس، ورئيس البلديّة وأربعة فلاحين، استقبلهم مباشرة.

ـ أنتم لم توقعوا؟

بدأ رئيس البلدية بالمناورة

ـ اغربْ عن وجهي، لن أتحدث معك. هل قرأت الرسالة أيها الرجل الحكيم؟ وجه كلامه إلى القس. اعترف القس الكهل: لقد قرأتها، وبدأ بالتوسط، وقال بأنه ومدير المدرسة قاموا بتنبيههم إلى أن هذا العمل عبارة عن تمرد على سلطة الدولة، ولا أحد يمكن أن يتوقع عاقبته.

ـ كان بإمكاننا إرسال الشرطة.. أيها الرفاق، إن أولئك الذين وقعوا على الرسالة يعتبرون خارجين على القانون. ادعوا لاجتماع في الغد، واجمعوا السلاح المخبأ في كومة واحدة، وسوف نقوم بتفتيش المنازل، إذا وجدنا بندقية واحدة سوف ننهي الحوار معكم، فسوف نرى كيف تستطيعون متابعة حياتكم بدون الدولة!

كان الاجتماع في اليوم التالي في المقهى، حمل رجال الميليشيا السلاح المتجمع في سيارة شاحنة، كان الاجتماع مختصرا، تحدث فيه القائد فقط، حمل الرسالة، وقرأها، وزمجر:

ـ الأمر يعود إليكم. إن كنتم ترغبون بقيادة من هذا النوع فلن نتدخل في شؤونكم، لن نطالبكم بأي شيء، وليس مطلوباً منكم أن تنفذوا تعهداتكم بالإمداد، يمكنكم العيش بدون الدولة، يمكنكم أن تجربوا، الباصات للدولة، والكهرباء، التلفون أيضاً.. الدولة تستطيع الاستمرار بدونكم، عليكم التفكير جيداً بمستقبلكم، معكم أسبوع للتفكير، بعدها يمكنكم إرسال وفد من الذين لم يوقعوا، وليكن بعلمكم: لا أريد رؤية أحد من الموقعين على الرسالة في الوفد. بعدها سنوقع اتفاقية خاصة نضيفها إلى الخطة الخمسيّة، وهذا كل شيء..

وخرج مسرعاً من الإجتماع، ودفع بيده بعض المدرسين الذين حاولوا إيقافه والحديث معه.

وركب السيارة وانطلق.

عندما حضروا رحب بهم ترحيباً احتفالياً، وصب لهم أقداحاً من الشراب، ولم يذكرهم بما جرى، ووافق معهم عندما اقترحوا إجراء انتخابات جديدة، وابتسم حين عرضوا عليه تقارير الإرساليات الغذائية للمدينة، وكبس الزر، وطلب معمل الكهرباء: أيها الرفيق، أعْطِ الإيعاز لتوصيل الكهرباء إلى الجبل، كبس الزر ثانية.. مركز النقل..

من هذا اليوم أعيدوا سير الباصات إلى الجبال، اطردوا من العمل الموظف الذي شرح للمراجعين بأن الرجال في المركز فقدوا عقولهم.

لقد كسب اعتباراً كبيراً وشعبية كبيرة في المعامل وفي القرى المجاورة، ووصلت أخباره إلى جميع المناطق، فقط جالوفيتش صرخ متذمراً: لماذا كل هذه المسرحيات؟

لم يكن بإمكانه في ذلك الوقت التصرف بطريقة أخرى.

ضحك فرانك وهو ينظر إلى صور البقرات السبع عشرة المربوطة إلى جدار البلدية في قرية هانوفا.

ـ تعال معي اليوم. ناداه صديقه. سوف نذهب للاجتماع العام في هانوفا.

ـ عقد الاجتماع في حانة القرية، لقد فوجئ الحضور بهذه الزيارة غير المتوقعة، وشعر فرانك بأنهم غير مسرورين من هذه المفاجأة، رحبوا به، وتجمعوا حول الطاولة.

تابعوا أيها الرفاق. تابعوا، وكأني غير موجود. ولكنهم لم يتابعوا.

إذا كنتم لا تريدون، فسأتابع بنفسي، إنكم وكما أعلم تنفذون اتفاق الإرساليات الغذائية بشكل مقبول، وخاصة فيما يتعلق باللحوم، وربما تكون إرساليات اللحم قد تخطت الخطّة الموضوعة. الجرائد تكتب عنكم الكثير، أنتم منطقة رائدة في إنتاج اللحوم. أما بالنسبة للبيض، والزبدة والخبز، فالأمر مختلف، وينتابني ظن بأنكم لا تحلبون أبقاركم، بهذا الموضوع أريد أن أتناقش معكم، لا أستطيع تفسير هذا التقصير، وأريد منكم سماع الشرح المقنع.

بدأ مدير الناحية الشرح بخوف واضح: هنالك عرف، ولا قانون، لكننا تعودنا على ذلك. اللحم يمكن أن يعوض البيض، والبيض اللحم، أما الحليب... وكما تعرف أيها الرفيق، لقد نفذوا خطة اللحوم بنسبة 360٪ عندما نقوم بالحساب نجد أنهم قدموا الكثير، وكما تعرف فإن اللحم أهم من كل شيء، والجرائد تمدحهم.

ـ قلت 360٪ أليس كذلك؟ وكم تساوي من اليالوفتس (البقره التي لا تنجب) أيها الرفيق؟

بدأ المدير بالشرح بشكل واسع.

ـ حسب الوزن، إنهم يعملون على تنفيذ الخطّة حسب الوزن.. كم بقرة عقيمة تعادل.. فكر قليلاً: حوالي 17 بقرة.

ـ إذا 17 بقرة عقيمة، أليس كذلك أيها الرفاق؟

شعر فرانك بالجو المتكهرب، اتضح الأمر.... إنهم يغشون ويرسلون البيض والحليب بدلاً من اللحم.

ـ والآن عليكم أيها الرفاق أن تشرحوا لي، كيف يمكن أن تنفذوا الخطة بنسبة 360٪ وتتركوا الجرائد تطري عليكم بالمديح، وفي الوقت ذاته لم توردوا كيلو غراماً واحداً من اللحم! لا يوجد لديكم جواب أيها الرفاق؟ أراكم لا تتكلمون؟ إذن علي أن أقدم لكم الشرح بنفسي.

ـ القانون واضح، والبقرة المباعة يجب أن تعادل كمية اللحم المورد، القانون جيد، ويأخذ بالحسبان مصلحة الفلاحين، تبيع البقرة، ولا يوجد عندك زيادة، ولا يوجد لديك ما تعطيه، ولكن القانون وضع ليمنع الغش، والذي يطبق على الفرد يطبق على الجميع، لقد وقعنا عقداً مع القرية، ولم نوقع مع أشخاص، وأنتم دفعتم لنا إنتاجكم بالنسبة المئوية، وليس باللحم.. أيها الرفاق.

وقف.

ـ إنكم مدينون لنا بسبع عشرة بقرة. قريتكم عليها أن تدفع للمنطقة سبع عشرة بقرة، أريدها غداً موجودة أمام المبنى، وهذا كل شيء أيها الرفاق، يمكنكم المتابعة، أنتم لا تحتاجونني.

غادرنا.

ـ هل تظن أنهم سيحضرون البقرات؟ سأله فرانك في الطريق.

ـ بالتأكيد. إنهم يعرفون ما وقع لجماعة الجبل.

في اليوم التالي كانت البقرات موجودةً في الصباح أمام المبنى، كانت بقرات جميلة، وممتلئة.

عاد فرانك بتفكيره إلى تلك الأوقات، عندما واجهوا في المنطقة الحدودية مجموعة مؤلفة من 60 مهرباً كانوا يحملون بضاعة ثقيلة بالقرب من الحدود، لقد قام المتوفى باعتقال مدير المنطقة، وبعد ساعة

قام بطرد جميع الموظفين، وبعد مدة بسيطة قام بتفجير معمل غير مرخص للكحول كان في الغابة.

كما ترك المنطقة لمدة شهر بدون كهرباء. لقد حكم المنطقة بقطع التيار الكهربائي، إنها طريقة أفضل من القتال.

إلى جانب ذلك ترأس الاجتماعات، والمؤتمرات، وكان عليه كتابة التقارير، وأن يسافر إلى مناطق العمل، يقف على قدميه ليلاً ونهاراً، لا ينام، دائم الحضور ومستعد ليكون في المناطق الصعبة، حيث الأمور لا تسير بشكل صحيح، كان يضع الحلول للمشاكل كافة.

في ذلك الوقت كان رجلاً آخر، وكان بإمكانه أن يعطي، كانت قوته وعقيدته تمنحانه إمكانية الاستمرار في العطاء والبذل، كان عليه أن يقرر بسرعة، وينظم، ويخاطر ولا يخاف أيضاً، كانت له شعبية كبيرة في المنطقة التي عمل بها، وكان محبوباً، كانوا يتحدثون عنه كالأسطورة. متى حدث هذا التبدل والانقلاب في شخصيته؟، وهل حصل ذلك بشكل مفاجئ، أو على مراحل؟ الجواب واضح بالنسبة لماركيتا. لقد حدث ذلك منذ اللحظة التي دخلت فيها حياته تلك الشقراء، وهي التي أوصلته إلى السقوط، في بعض الأوقات كان فرانك لديه الشعور نفسُهُ، لربما كان ذلك شعوره من اللحظة التي رأى فيها تلك الشقراء في مكتبه، ولكن ألم يكن هذا التحول نتيجة أشياء أخرى؟ ألم تكن تلك الشقراء نتيجة أكثر من كونها سبباً؟ ألم يكن السبب الحقيقي لتبدله هو وجود رجال من حوله كانوا يتفننون بتمجيده، وإظهاره بصورة الرجل الخارق، ذي المهارات المتعددة، رجل غير طبيعي، وحياته أكبر وأعظم وأهم من حياة الكثيرين، ومن حقّه أن يفعل ما يريد؟ من حقه أن يعيش حياة غير عادية ومختلفة عن حياة الجميع. وفرانك يتذكر حديث أحد رجال مكتبه والذي كان قد صادفه مرة بعد انتخابه لأحد المراكز القيادية في الدولة.

بادر فرانك متواضعاً بكلامه:

ـ لا تهنئني من فضلك على نجاحي، إنهم يريدون حرقي لا أستطيع القيام بمهمات هذا المركز، ومصيري الطرد حتماً. إنني أرى ذلك من البداية.

لقد راقب فرانك التغير الذي حصل في شخصية ذلك الرجل بعد استلامه ذلك المنصب الرفيع، بعد عدة أشهر من استلامه المنصب. وعندما أصبح القرار في يده، وأصبح يتحكم بصرف الملايين بجرة قلم، بدأ ينظر إلى أصدقائه بكثير من الشك والحذر، وكأنه يسأل: لماذا لم يكتشفوا مواهبي في وقت مبكر؟ من كان منهم يعرقل صعودي إلى هذا المركز، الذي كان علي استلامه منذ مدة طويلة؟ طبعاً لم يبق في هذا المنصب طويلاً. طردوه، وهو يتجول الآن في المدينة ويتحدث عن الظلم الذي وقع به، ويفسر سقوطه على أنه مؤامرة حيكت ضده، ولم يكف عن التصريح بكونه يعرف الكثير من أسرار المسؤولين، والدولة.

هنالك صورةٌ للميت في مسقط رأسه، وهو يتحدث إلى الناس في الساحة، في ذلك المكان الذي كان يلقي فيه الخطب اللاهبة، لكن المستمعين تغيروا، قام فرانك بقلب الألبوم إلى الصفحات السابقة، حيث توجد صور أصدقائه القدامى الذين تطوعوا في المقاومة معه، وذهبوا من أجله إلى القتال في الجبال، كانوا يحترمونه ويعتبرونه قائداً وصل إلى المركز الذي استحقه بشكل طبيعي.

لقد حضر اليوم إلى الصالة بعض سكان مسقط رأسه، كان عددهم يقارب الخمسين، وحاول فرانك جاهداً أن يجد بينهم أحداً من أصدقائه القدامى، لكن محاولته باءت بالفشل، ولم يحضروا أيضاً في ذلك اليوم لسماع خطبته في السّاحة، نظر فرانك إلى صورة المنصّة، كان هناك ما يقارب 200 شخص، لم يجد بينهم وجهاً يعرفه من أصدقائه القدامى، وبحث عن وجوههم بين الجمهور ولم يجد أحداً، لم يحضر

أولئك الرجال الشجعان الصلبون، المقاتلون في زمن المعارك الضارية التي كان يقودهم إليها، ولكنهم انتظروه في مكان آخر، وكان عليه الحضور، فرانك عرف أين يجدهم. إنهم يجلسون في الحانة التي كانوا يجتمعون فيها سابقاً، في حانتهم، كانوا هناك جميعاً ممن بقوا أحياء، وعندما دخل فرانك شعر بأنهم لاذوا بالصمت، إنهم ينتظرون شخصاً غيره، إنهم ربما انتظروا فرانك، لكنهم انتظروا أحداً غيره، وعندما ظهر فرانك وحده عرفوا أنه لن يحضر.

أحد الأصدقاء من زاوية الحانة صرخ:

ـ أنت أيضاً أصبحت طيراً بأرجل ذهبيّة.

كان رد فعل الجميع الضحك الهستيري، أدار فرانك ظهره وسار باتجاه الباب خارجاً من الحانة. تنشق الهواء البارد، وأحس أن عينيه امتلأتا بالدموع، دموع الغضب، ودموع الأسف... طير بأرجل ذهبية... لقد عرف فرانك قصدهم من هذا الكلام. عندما كانوا صغاراً كانوا يمسكون الغراب، ويدهنون أرجله باللون البرونزي ويسكرونه ثم يضعونه بالقرب من الطيور الأخرى التي ترتعب من منظره وتهرب، فرانك كان قد نسي هذه الحوادث، لكنهم لم ينسوا.

لقد فهم فرانك قصدهم، خرجوا خلفه، وطلبوا منه الدخول، اعتذروا منه، وأكدوا أنهم لم يكونوا يقصدونه من كلامهم. أولئك الرجال الذين أحبوا المتوفى، وفرحوا باستلامه المناصب، لم يعد يحب أن يراهم، لقد تخلى عنهم، وفضل الجلوس مع غيرهم على مائدة مليئة، وبين رجال كانوا يصبغون أقدامه بالذهب، لم يحضر، لم يعودوا يرغبون في رؤيته.

لقد انتهى، وسقوطه سوف يتطلب بعض الوقت، لقد نسي رجاله، وهم أيضاً لم يعودوا يعترفون به، ولا يريدون لقاءه.

غرق فرانك في سيرة حياته الغريبة، وقام بترتيب فصولها لعدة سنوات، صفحة بصفحة، وصورة بعد صورة. نظر إلى إحدى الصور، كان يقف بجانبهم أجانب، رجل وامرأة، كانوا ضيوفه، لقد حضروا

بزيارة رسمية، وقام مكتبه الرسمي بهذه المناسبة بتحضير برنامج غني على شرفهم، لقد كان صديقه برفقتهم، أخذهم إلى الأوبرا، وإلى زيارة جمعية تعاونية رائدة وجرهم لزيارة الأماكن الأثرية في المدينة، ونظم على شرفهم عشاءً فاخراً، وذهب معهم لزيارة أحد المعامل، وتحدثوا إلى العمال عن الصداقة، وضرورة التعاون، ورفع الحواجز، وزيادة التفاهم وضرورة التعايش السلمي بين الشعوب، وأهمية عقد لقاءات لتحسين التفاهم الذي كان يسود العلاقات.

ولكن لماذا يوم السبت؟ في السبت لا يعمل العمال في بلد ذلك الزائر الهام، وهنا وصل موكليك مسؤول البرنامج إلى فكرة جهنمية: نذهب إلى صيد البستروه!

هل تحبون الصيد؟ سألهم مضيفهم في حفلة العشاء.. تفتحت عيونهم وشعت بالإضاءة. صيد السمك؟ هل يمكن أن نصيد السمك؟

غدا سوف نذهب لصيد السمك. قرر المضيف.

انتهت الرحلة بشكل درامي، وشعر الضيف أنهم يصيدون السمك كقتلةٍ، وليس كصيادين، وقرر العودة من بداية الرحلة، لقد شعر بالإهانة لأنه كان بالأصل صياد سمك هاوياً.

كان رد فعل صديقه على تصرف السويدي الأشقر وزوجته حاداً وغاضباً، نعتهم بالخونة في الحرب.

لقد كانوا يعطون هتلر الحديد، ونحن نموت هنا.

أغلق فرانك الألبوم، وأغلق بذلك حياة صديقه.

ـ 17 ـ

لم يستطع فرانك أن ينام في تلك الليلة، وليس من عادته الأرق. كانت تنام زوجته بجانبه، تتنفس بهدوء، كان مستلقياً على ظهره، وعيناه مفتوحتان، ينظر في الفراغ المعتم، وبدأت تتشكل في مخيلته صور

الماضي، وحاول جاهداً إبعاد صورة ذلك الميت من ذهنه، إلا أن شبحه كان يلاحقه، وماضي فرانك كان لا شيء بدون ذلك الميت، لقد قطعا شوطاً كبيراً في علاقتهما، ولا يمكن نسيان ما كان بينهما أو التغاضي عنه، ودفنه، ربما يستطيع الإنسان لمدة ما أن ينسى ماضيه أو يتناساه، لكنه في لحظة معينة يشعر أن الماضي يسقط على رأسه دفعة واحدة، ولا يستطيع الهرب أو حتى المراوغة، عليه أن يجد حلاً، إن ذكريات الحب الماضية تعود واضحة، وتستطيع الذكريات المؤلمة القديمة أن تعذبك، وبخاصة تلك التي تخجل منها، والتي لا ترغب بتذكرها، وكل هذه الأحاسيس يمكنها أن تهجم عليك في اللحظة التي لا تحتاج فيها إلى التذكير، إن باستطاعتك أن تتصنع أمام العالم، وتضع الأقنعة التي تخفي عيوبك، لكنك لا تستطيع مهما حاولت أن تخفيها أمام نفسك، مهما بلغت من الذكاء والمقدرة. كل إنسان يتعرض في حياته لأوقات صعبة، ومرة على الأقل، وكلما كان العدد قليلاً، كان الوقع أصعب، إن الساعات الصعبة تكون مكشوفة، ولا يمكن إخفاؤها. وأصعب ما فيها هو أن يعترف بها الإنسان لنفسه.

هل عشت أنت أيها الميت هذه الساعات الصّعبة؟ كيف كانت؟، ومتى، وأين هاجمتك؟، متى عرفت أنك خنت نفسك؟ هل يمكنك الاعتراف، ولمرة واحدة؟ أنت الرجل الذي كنت في أوقات الماضي بمنتهى الصدق والصراحة.. هل تعرف كم أحبوك؟ هل تعرف هذا النوع من السعادة والثروة؟ كيف تصرفت معهم؟ وكم سببت إزعاجاً لهؤلاء البشر، أولئك الوحيدين الذين يتذكرونك في هذه الليلة؟ كيف رددت لهم محبتهم، وتعلقهم بك؟

الكسب.. أنت أمضيت حياتك تكسب، وتأخذ، ومنذ نعومة أظفارك كنت تأخذ.

كان الجميع يتدرك، وبخاصة من كانوا حولك، وكان هناك أيضاً من يغار منك، ويحسدك. كان هناك دوماً من ينفذ أوامرك، ويستمع إليك. كانت البداية على مقعد الدراسة، كنتُ معك كخيالك لمدة طويلة، كنتُ متمسكاً بك وبصداقتك، وكنت تشعر بالسعادة من تصرفاتي، وأنا أيضاً لم أكن أي شخص، كنت أمتلك قوتي وشخصيتي وعنفواني، ولكني ضعفت تحت سيطرتك، وشخصيتك القوية، لم يكن بيننا اختلاف كبير، ولكنك كنت أنت دائماً الأول، وفي المقدمة، وكان شيئاً بديهياً أنك ستبقى الأول.. شخصية قيادية، ولم لا؟ إن بعضهم خلق ليكون قائداً، كما خلق بعضهم ليكون عبداً، فقيراً.. أنت من النوع الذي خلق للقيادة، ولم يكن يمانعك أحد في ذلك، كان الجميع يحترمك، وكان أعداؤك يخافونك، عرفوا في الوقت المناسب خطورة خصائصك وخصالك، أرادوا تحطيمك، لكنهم لم يستطيعوا، إن أعداءك لم يحطموك، هل حطموك؟ لا.. لقد حطمت نفسك بنفسك.

متى؟ وأين؟ ولماذا اغتربت عن نفسك؟ لماذا، ولأي شيء؟ ومتى وصلت إلى المعرفة الخاطئة والكاذبة، بأنك أفضل من الجميع، وأنك كل شيء، وأنه بإمكانك أن تتصرف على هواك؟

لقد سبحنا عراة يوماً مع ماركيتا، وماركيتا كانت في حينها حبيبتي، كنا عراة تماماً، كانت بيننا ثقة لا يمكن الشك بها، ربما كانت ثقة زائفة، وغبية، ورومانسّية، ولكنها كانت موجودة بيننا، إلا أنك لم تتفاهم هناك بالقرب من النهر مع ماركيتا، حصل ذلك في مكان آخر، ومن وراء ظهري، في الخفاء، وبسرية تامّة، وكنت تعرف بأن ماركيتا في ذلك الوقت فتاة بريئة ويافعة، ونظيفة، كنت تعرف ذلك، ولا يمكن أن تكون هي بالذات البادئة. لا بأس، لقد تزوجتها، وكانت راغبة في ذلك، ربما أعجبت بك أكثر مني، لقد أثرت فيها أكثر. لقد أخذت منك حقي بطريقتي الخاصّة، وكما يحدث بين الرجال.

ولكن ماذا فعلت مع فوندا الذي حاول معها أيضاً، عندما كانت من ممتلكاتك الخاصة؟

لماذا لم تعترض طريقه في المساء، وتدفعه بقوة إلى الجدار، وتخبره أن يتكنس من طريقك وإلا سوف تصنع من لحمه طعاماً للحيوانات؟ كما تصرفت معك بالذات لنفس الموضوع. لقد تصافحنا بعدها، وتفاهمنا، لقد قمت لسنوات طويلة بإزعاج فوندا، والتحريض عليه، وملاحقته، وإرهابه، وكل ذلك لأنه تجرأ ومد يده إلى ماركيتا، التي كانت بالنسبة لك شيئاً تملكته ولا يمكن المساس به..

لقد قمت بملاحقته وتعذيبه، حتى بعد أن تركتها وحيدة، وهي التي كانت السبب فيما حصل بينكما، تركتها لأنها كانت ثقلاً عليك، كانت عقبة في طريقك، هكذا، وبعد سنوات من العِشرة بدأت تخجل من حضورها، لم تعد تليق بمركزك.. لقد تخلفتْ.. أليس كذلك؟ لم تكن تملك قواماً يليق بمركزك، ولا حتى تستطيع أن تشرفك في منصبك الجديد، لأنها إنسانة عادية، وبقيت كذلك حتى الآن. لقد أخذت منها ولدها، ولم يكن لك حق به من الناحية القانونية، لكنك أخذته منها، لأنك كنت تريده، كنت تريد أن تملكه، كما كنت تريد أن تملك الجميع، وتملك كل شيء. لقد كان ابنك، ومن دمك! حامل اسمك الخالد! رغبت أن تؤمن له كل شيء، ولكن كيف تصرفت معه؟ لقد طردته، ورفسته في اللحظات التي كان فيها بحاجة لرعايتك، وحسناً فعلت، وإلا لكنا فقدنا عاملاً جيداً في الإسفلت في بلادنا.

في أحد الأيام كنتَ ملاحقاً من الشرطة السرية، وقد وضعوا مكافأة لمن يساعد في القبض عليك، ووجدت أناساً قاموا بإخفائك من وجه الهتلريين، ومنحوك حبهم، وعطفهم، وعرضوا أرواحهم للخطر الأكيد من أجل أن تبقى، كيف تصرفت معهم؟ ماذا فعلت بيوديتا، وبالدكتور

بولونك وعائلته؟ ماذا فعلت بتلك الشقراء التي أحبتك حتى الموت، والتي جعلت منها إنسانة تشتري موتك؟

ماذا ارتكبت بحق نفسك، أنت أيها النسر الشامخ؟ ما الذي شدك، وأنزلك من القمم إلى مستوى العصافير الصغيرة المضحكة التي تتصارع على الفتات، هل أصابتك دوخة؟ ألم يكفكَ المكان الشامخ الذي كنت فيه؟ أردت أن ترى الأشياء من الأسفل؟ أم أصابك دوار الارتفاع وأشعرك بأن الأعلى أسفل والأسفل أعلى؟

أم أنك كنت خائفاً؟ مم كنت خائفاً؟

كنتَ خائفاً من جالوفيتش؟ ألم تفهم أن من يريد الوقوف في وجه جالوفيتش يجب ألا يخاف منه؟ وذاك الذي يبرهن أنه لا يخافه، هو الإنسان الذي يعترف بوجود القانون. جالوفيتش يخاف من الذي لا يهابه. لقد كنت خائفاً، وخفت أكثر، وأكثر، ومع مرور الوقت ازداد خوفك من أي شيء، ومن كل شيء. وخفت أيضاً حتى من الخيالات، من التفكير بالذين أبعدتهم، ورفستهم، وحطمتهم. لقد خفت في حينها عندما تحدثت مع فرانك، ونصحته قائلاً: ، لا يوجد في السياسة أصدقاء. وبمن كنت تفكر؟ ومن كنت تقصد؟ هل كنت تقصد أولئك الذين وقفوا في طريق صعودك؟ أم كنت تفكر بنفسك؟ وبأنك في يوم من الأيام ستصبح سيداً، تنظر إلى الشمال واليمين، تبحث عن مصدر السكين؟ هل كنت تظن أن سلطة أكبر في اليد تعطي طمأنينة أكبر؟ ألهذا جمعت في يديك السلطة أكثر فأكثر، ولجأت للوصول إلى السلطة إلى طرق غير طرق الرجال الشرفاء؟

ماذا جنيت من السُّلطة؟ هل طابت لك، وتلذّذت بها؟ ما طعمها بربك؟ وبمَ ساعدتك؟ هل استطاعت أن تحل مشاكلك؟ وإلى أين أوصلتك؟

قبل أن تصل إلى السلطة كنت بصحة عظيمة، وكنت سعيداً، هل زادت السلطة من سعادتك؟ هل حصلت منها على سعادة جديدة، أم عوضت السعادة القديمة بسعادة جديدة أكبر؟ وأي سعادة؟ سعادة من الحب؟ هل أحببت؟ هل كنت محبوبا؟ ولنفترض أنك أحببت زوجتك. تلك الشقراء.. كم دام حبكما؟ ماذا كانت النتيجة؟ لقد أسكرتك أمامي لتتخلص منك في تلك الليلة، ومن ثقلك وغلاظتك. كانت تقفل باب غرفة نومها في وجهك، جعلت منك أضحوكةً. أم كنت سعيداً بالعلاقات الجنسية التي كنت تمارسها تحت رقابة حارسك الشخصي؟. أم أنك كنت سعيداً بالإنجازات؟ الإنجازات الرائعة؟ لقد كانت كافية، وهي تعني الكثير. ولكن أين إنجازاتك؟ إنها ميتة؟ عندما كنت ما تزال في أعلى السلطة، أنجزت هذه البلاد الكثير، وقطعت أشواطاً بعيدة إلى الأمام في تطورها. لا يوجد من يناقش هذا الموضوع، لقد حصل تطور، ويمكننا رؤيته، وسماعه، ولمسه، ولكن في أي تطور أسهمت أنت بالذات،؟ أي مسؤول غيرك، وأكثر منك شجاعة كان بإمكانه تجميع الإمكانات وتحقيق مستقبل أفضل. كنت تخاف من اتخاذ القرار، لقد كنت تفكر فقط في مركزك، كنت تخاف من اتخاذ أي قرار، فلربما كان خاطئاً، وسيستغله أعداؤك، وسيكلفك منصبك، وهذا الموقف والخوف أوصلاك إلى التخلف الوظيفي، وانعدام النشاط، وفقدان المبادرة، وإلى المبالغة باستعمال الألفاظ الدّسمة التي لم يأخذها أحد مأخذ الجد، ولا حتى أولئك الذين كانوا يصفقون لكل كلمة تقولها، لقد كنت تخاف المخاطرة، ومن يخاف المخاطرة لا يصل لشيء، وهذا ما حصل معك، أنت لم تصل لشيء بالرغم من الهالة التي كانت حولك، بالرغم من مركزك، وسلطتك، وبالرغم من الصفوف الثلاثة من الأوسمة التي ملأت صدرك.

أي سعادة بقيت لك؟ السعادة من التعري الذي كنت تقوم به بمناسبة وغير مناسبة؟ السعادة من التصفيق الكاذب الذي يرافق خطبك؟ ألم يخطر ببالك أن تفكر في يوم من الأيام مدى صدق هذه المظاهر؟ ألم تحس بأنها ممالأةٌ، وكذب، وخداع، ومظاهر كاذبة؟ هل كنت تصدق أنهم يصفقون لأن كلامك يستدعي التصفيق؟ لقد صفقوا لمن كان يحكم قبلك، وسيصفقون لمن سيأتي من بعدك. إن المطرب، أو الممثل يعرف مسبقاً سبب تصفيق الناس عند خروجه إلى المسرح؛ هل حصل لك شيء من هذا؟ ماذا كنت تفعل بين تصفيقين، ماذا كان شعورك بين تصفيقين؟

أي سعادة نلت من أفعالك؟ من الحب؟ لا.. من الإنجازات؟ لا.

ربما توجد سعادة أخرى، سعاده شاذّة، ولكنها موجودة. السعادة من السلطة، الشعور بالعظمة، وبأنك شيء أكبر، و يمكنك أن تقرر مصير الآخرين بدون محاسبة من أحد، وربما السعادة من إعلاء إنسان، وبعدها تحطيمه وسحقه بسهولة، أو ربما العكس، تحطيم ثم إعلاء، هل كنت تشعر بلذة السلطة؟ هل كنت تشعر بالسعادة في مثل تلك الأعمال؟ كنت تستمتع في الانتقام من الآخرين ولكونهم تجرؤوا على انتقادك، وكنت تستبيح كل شيء من أجل أن تشعر بالسلطة، وأنك قادر على إخفاء عجزك، وشعورك بالإحباط، وبالنقص الداخلي.

لم تحصل على السعادة، ربما حصلت على الشعور بالعظمة، وهذا الشعور يسكر الإنسان ويخدره، ومن أجل العظمة والمجد زج الحكام بشعوبهم في الحروب والقتال إلى النصر أو الهزيمة، لقد كانوا يحولون الهزيمة إلى نصر، والناس من أجل الوصول إلى إشباع رغبتهم بالسلطة والعظمة والجماهيرية والشهرة، يفعلون المستحيل، ولا يهمهم ما يحدث ذلك من ضرر بالآخرين، الشهرة هي ضمانة البقاء الأبدي، والبقاء الأبدي هو خرافة لبست عقول الناس القدامى، وهو شيء غير

طبيعي، طارئ ونادر، ما هي شهرتك وجماهيريتك أيها الميت؟ كان عليك أن تسير في هذه الأيام في الشوارع لتعرف حقيقة عظمتك، وجماهيريتك، كنت ستعرف أشياء كثيرة عن حب الناس وعن جماهيريتك. وبقائك الأبدي الذي سوف يبقى مختبئاً في ألبوم قرانك، وربما سيذكرونك بعد عشر سنوات في الدائرة التاريخية، ولكن بعد أحد عشر عاماً لن يحصل ذلك، سوف ينسونك تماماً، لقد كانت أوقات سار فيها الناس من خلفك إلى الموت، وقبل البارحة لم يكن هناك من يغلق جفونك.

إن السُلطة.. أيها الميت يمكن أن تكون شعوراً عظيماً، ويمكن أن تكون شعوراً سيئاً، وكل ذلك عائد لذلك الإنسان الذي يمثلها، ويستعملها، ويعرف التعامل معها، هل كانت السلطة بين يديك شيئاً عظيماً؟ أم أنها كانت هدفاً؟ أو دمية كنت تلعب معها؟ لو كنت قد استخدمت السُلطة في أمور جيّدة لكان الناس حزنوا عليك، وشعروا بالفراغ من غيابك، لكن أحداً لم يحزن على موتك.. سوى بعض المقربين منك، وحتى هؤلاء يملكون الكثير من الذكريات السيئة. لقد قمت بتعذيب وإهانة أحد الناس الشرفاء، وعلى مدى عشرين سنة، ومع ذلك فقد حضر لوداعك، وشرب لذكراك، وكان صادقاً في أفعاله، لم يحزنوا، لا ضغينة. كان هناك جو من عدم الاكتراث بك. هل تسمع أنت الميت؟ إن عدم المبالاة سوف يرافقك في رحلتك الأخيرة للنسيان.

لقد وقعت أحزان وأقيمت مآتم حكومية. وفي المدة الأخيرة، لم تبق عين واحدة لم تدمع، هنالك أموات، وبفضلك أصبحوا أمواتاً، لكن أسماءهم ترددها الملايين، ويقومون ببناء النُصُب التذكارية، ويطلقون أسماءهم على الشوارع، فماذا عنك أنت أيها الميت!

هنا يرقد على هذا السرير شخص يعرفك جيداً، ولا يستطيع النوم، يتحمل، يعيش ساعات صعبة معك، كان يعرفك، ويعرف ما كنت

عليه، باحثاً عن جواب لسؤال: ماذا حدث لك؟ إنه يولع سيكارته الرابعة، وربما سيولع الكثير من السكائر، وهو يبحث عن جواب، يسأل نفسه إن كان غيابك خسارة، ويجيب نفسه بأنها ليست خسارة، لاخسارة من غياب رجل ساهم بتحطيم مستقبله، وكان بإمكانه رسم مستقبله بشكل آخر، لكنك فضلت المتابعة بهذا الطريق، الطريق القاسي، وربما أقسى طريق.

ما طعم السلطة التي كانت بين يديك؟

قطعت أفكار فرانك بعض كلمات بافلينا وهي نائمة بجانبه. إنها تحلم، وربما كان حلماً مزعجاً، وقد وضع، بلطف، وبدون أن يوقظها، يده على صدرها، ولامس نهدها، إن تصرفاته معها ليست كما يجب أن تكون، ولكنها له، وهي زوجته، والشيء الوحيد الذي يملكه في هذه الدنيا. الحب؟ وهل هو الحب؟ لقد اعتادا على بعضهما، وأحياناً عندما يكونان معاً يضرب أحدهما على أعصاب الآخر، ولكن حين يبتعدان يشعران بعاطفة شديدة تشدّهما. لقد اعتاد أحدهما على الآخر. إنهما يعرفان بعضهما جيداً، ولا يخفي أحدهما شيئاً عن الآخر، وليسا بحاجة ليمثل أحدهما على الآخر. وهل هو حب؟ ليس شيئاً أكبر ولا أقل. وما هو الحب؟

استيقظت، لم تتفوه بكلمة، وعرف فرانك ذلك، لكنه لم يستطع من العتمة رؤية عينيها، وأحس بأنهما مفتوحتان، خف صوت تنفسها، تحرك صدرها بشكل مختلف، كانت تنتظر.

لا زال صدرك جميلاً...

آه يا فرانك... تنفست بعمق، وبدا أنها دعوة إلى المعجزة.

لا يوجد أحدٌ غيرك في حياتي.. بافلينو.

مررت يدها على شعره، وعرفت قصده، ولماذا يقول هذا الكلام؟ إنه شيء أكبر من الحب، وهو صمت مليء بالتفاهم.

ـ 18 ـ

في العاشرة تماماً بدأت مراسم الوداع. تجمع في الصالة ما يقارب الخمسين مدعواً، وامتلأت الشوارع التي سيمر بها الموكب. وعندما كان فرانك يتجول بين الناس لمح ماركيتا، لم يقترب منها، خوفاً من أن يسبب لها بعض الإحراج، كانت تريد على الأغلب أن تكون وحيدةً لا تراها العيون. لقد حضرت، حدث نفسه، وشعر بالسعادة من حضورها، ليس من أجل الميت، ولكن من أجلها هي بالذات، لم تتغير كثيراً، وربما لو لم يكن ذلك الميت قد التقى في الماضي بتلك الشقراء لكان كل شيء بقي على حاله بينهما، لكنه التقاها. وقف الناس وانتظروا، إن تلك المآتم تشبه الحفلات المسرحيّة التي لا يمكن الاستغناء عن رؤيتها.

في الساحة الكبيرة وقف جمع يقارب المائة من الشباب يرتدون القمصان الزرقاء فوق ثياب صوفية سميكة، ويحملون مئات الأكاليل، وفي الشارع الجانبي وقفت عشرون سيارة ليموزين سوداء، وبعد خطوات من السيارات وقف ما يقارب العشرين عنصراً من الميليشيا وعشرين ضابطاً آخر من حرس الشرف، ومهمتهم حمل النعش إلى مركبة عسكرية مكشوفة تجرها سيارة عسكرية تحمل الجنود، وسوف تقوم الفرقة العسكرية الموسيقية بعزف لحن الوداع.

كان فرانك على علم كامل بالبرنامج، في العاشرة تماماً سوف تعزف مقطوعة حزينة لدفورجاك، وسوف يكون هناك خطيب واحد. وهو حتماً سيكون جالوفيتش، وبعدها سيقوم ستة جنرالات بحمل النعش إلى المركبة العسكرية المكشوفة، وسوف يغطونه بالعلم الوطني. سيتقدم

الجنازة فريق من الجيش، ومن خلفهم قوات الميليشيا، ثم أحد الجنرالات الذي يملأ صدره بالأوسمة، وخلفه سوف تسير المركبة العسكرية التي تحمل النعش. خلف النعش سوف تسير الأرملة متابطة ذراع والد الفقيد، ومن خلفهما المسؤولون السياسيون، والحكوميون، ثم ستة صفوف من الضباط، وفي النهاية حشود الضيوف المدعوين. لقد أخذ بالحسبان انضمام المواطنين الموجودين بالساحة، وهكذا سوف يسير الموكب ما يقارب الكيلومترين ليصل إلى منزل الفقيد، وهنالك سوف يلقي أحد أعضاء مكتبه كلمة مختصرة. لم يستطع فرانك معرفة الشخص الذي سوف يلقي هذه الكلمة، بعدها ينقل الميت إلى عربة الدفن، وسوف ترافقه سيارات الليموزين إلى حدود المدينة، وينتهي كل شيء في المحرقة البعيدة، هناك سوف يكون مع الأرملة والده فقط. لقد تم ذلك بناء على رغبتها بعد نقاش طويل معها.

في المحرقة لا يوجد أي برنامج، سيكون هناك الموظفون فقط.

إن عمل فرانك سوف ينتهي في الصالة، ولمتابعة المأتم قام مدير قسم التصوير بتسمية مصور آخر لهذه المهّمة.

بعد أن انتهت الفرقة الموسيقية من العزف تقدم جالوفيتش من النعش المغطى بالعلم الوطني يحمل بيده خطبة الوداع، نظر حوله، بدأ بتسمية الأرملة، والأقرباء، ثم بدأ يتكلم.

ظهرت حول أذنيه بعض الشعرات البيضاء، وبدت جمجمته صلعاء مدببّة. إن جسمه مدبب. وتفكيره أيضاً مدبب، وقد كانت خطبته مدببة أيضاً، فهو لا يعرف القراءة جيداً، لفظه سيء للكلمات، بالرغم من أنها مكتوبة باللغة الفصحى، ولكنها بدت بلكنته السّيئة مختلفة، يرفع صوته ويخفضه في الأماكن غير المناسبة، كان يلفظ بعض الكلمات، وبخاصة المأخوذة من اللغة الأجنبية، بشكل خاطئ، لقد كان فرانك يسميه فيتمان، إذ كان يلفظ كلمة الفيتنام بفيتمان، لقد كانت

خطابات جالوفيتش باردة دائماً، وبدون روح، وعلى الأغلب كان يكتبها له دائماً شخص واحد منذ مدة طويلة.

كان صوت آلة التصوير قوياً، وأضواء الكاميرات تملأ الصالة، وعمل فرانك قصارى جهده ليصور أكبر عدد ممكن من الصور، كانت كاميرات التلفزيون موجهة إلى جالوفيتش. جالوفيتش يتحدث، والأرملة تجلس على الكرسي، ورأسها محنيّ إلى الأرض، ولم يستطع فرانك معرفة شكل وجهها من الغطاء الأسود، وعندما ذكر جالوفيتش اسمها في الخطبة رفعته بهدوء. شعر فرانك، وكأنها تريد أن تقول، لا داعي لذكر اسمي.

لقد فوّت هذا الميت على نفسه في يوم من الأيام فرصة كبيرة، حين كان مركز جالوفيتش مهزوزاً، وإن كان على الصعيد العام لم يحدث أن هوجم بشكل مباشر، لكن أولئك الذين كانوا يخافونه، رفعوا رؤوسهم، وتناولوه فيما بينهم بالنكات القبيحة، كانت تروى عنه أشياء كثيرة، من بينها قلقه الشديد إن لم يستطع اعتقال أحد الناس، لقد كان ذلك طبعاً مغالاة واضحة، والناس دائماً يزيدون من الشائعات، لكن هذه الشائعات كانت تعبيراً عن رأي الناس به.

كان الجميع في ذلك الوقت ينتظرون الرجل الشجاع الذي سيطرد جالوفيتش من مركزه، ويفضح تصرفاته أمام الناس، وكان لدى الجميع تصور وحيد: من سيكون ذلك الشجاع؟ هذا الميت هو الوحيد الذي كان بإمكانه أن يطرده، ويعريه ويفضح ممارساته. وكان الجميع كذلك على علم بالكره المتبادل بينهما، وكانوا يعتبرونهما ديكين في قن واحد، كانوا ينتظرون اليوم الذي يبدأ بينهما الصدام. كان ذلك ممكناً في وقت ما، عندما كان جالوفيتش يجلس في الحفلات وحيداً، وكان الجميع يعتقدون أن نهايته أصبحت مسألة وقت لاغير.

انتظر الجميع خطبة ذلك الميت في أحد الاجتماعات، وظنوا بأنها ستكون الضربة القاضية في الصراع بينهما. لكن الرجل الكبير خذل الجميع وفضل الصمت ولم يتعرض له، عندئذٍ خسر اللعبة نهائياً، ومنذ تلك الساعة لم يعد أحد ينتظر منه شيئاً، لقد كانوا على استعداد ليغفروا له كل شيء، وكان بينهم فرانك أيضاً، وكذلك الأصدقاء القدامى الذين كانوا يتطلعون إليه بكثير من الأمل.. إنه شجاع، عرفوه وخبروه قوياً في أقسى الظروف، وشجاعاً لا يهاب أحداً، وقد يكون أخطأ في بعض الأحيان، من منا لا يخطئ، لكنه بإبعاد جالوفيتش كان يستطيع تأكيد الخط الجديد الذي كان الجميع بانتظاره، وترقبه، والذي سوف يحصل مهما طال الزمن.

صمت، ولم يقل شيئاً، ولم يفعل شيئاً أيضاً. وبذلك فقد احترام ومؤازرة الجميع. هل خاف من جالوفيتش؟ لا أظن، في ذلك الوقت لم يكن بحاجة للخوف من جالوفيتش، هل كان خائفاً من شيء آخر؟ هل خاف من عواقب كشف جالوفيتش، وشعر بأن كشفه سيفتح الباب لكشف أمور وسلسلة أخرى لا تنتهي من التحقيقات؟ هل كان يظن أنه بكشف جالوفيتش سوف يحدث خللاً في التوازنات الموجودة في القيادة السياسية؟ عندما تبدأ الفضائح لا أحد يدري كيف تنتهي ومن يكون الأخير، وأين تتوقف..

لم يفعل شيئاً، لم يطرد الرجل المكروه من الجميع، ممثل الخط القاسي في الحكم، وبهذا الصمت هيأ نفسه للسقوط، ضاعت اللحظة المناسبة، بقي جالوفيتش الذي قام بتقوية نفوذه، وتثبيت مواقعه. لقد تعلم، وعرف أن مفتاح بقائه ومركزه هو تجميع السلطات في يده، إن هذا الميت كان شخصية بارزة، علنية، لكن جالوفيتش كان دائماً يعمل خلف الكواليس وفي السر، ولكنه حكم، وحكم عن حق وجدارة.

جالوفيتش يتحدث:

ببالغ الأسى والحزن نقف أمام جثمان الرفيق، الصديق الوفي، الابن البار للشعب، الزوج، والأب، رجل الدولة، الرجل الكبير....

فكر فرانك بما يقوله جالوفيتش، باسم من يقول هذا الكلام والد الفقيد كان مسروراً من هذا الكلام، الزوجة لا.. الابن؟ لم يكن موجوداً، إن كاتب الخطاب لم يكن يتوقع عدم حضوره. والأصدقاء؟ أين أصدقاؤه؟ من يستطيع أن يكون صديقاً للسياسي، الذي يصرح دائماً أن لا صداقة في السياسة؟

لو كانت هذه الكلمات صدرت من شخص آخر غير جالوفيتش لكانت مملّة، لكن جالوفيتش هو بنفسه من قرأها، والجميع كانوا على علم بالعلاقة السيئة التي كانت بينهما، لقد كان جالوفيتش حقاً الشخص الملائم للحديث عن الميت، والعارفون بالأمور وخفاياها يستطيعون معرفة السبب، إن جالوفيتش يحديثه هذا أمام جثمان الميت يريد أن يقول للجميع إنه موجود، وعليهم أخذه بالحسبان، وهو سوف يقرر مصير الكثيرين، هو بالذات ولا أحد غيره.

رجل الدولة الكبير؟ لقد كان جالوفيتش بالذات مَنْ منع نشر وبيع مؤلفاته، منع نشر صوره في الجرائد والتلفزيون، ولكن أي كلام آخر كان بإمكان جالوفيتش أن يقوله في مثل هذه المناسبة؟

هل كان عليه أن يقول حقيقة هذا الميت؟ لم يعد أمر هذا المتوفى يهم أحداً، القيمة الآن للكرسي الذي أصبح فارغاً من بعده، الكرسي ميت، عاش الكرسي، عن الكرسي يكون الحديث ألذ، أدسم!

جالوفيتش يتحدث:

لقد غاب ابن الطبقة الثورية العالمية. التي خرج من صفوفها، وقاتل من أجلها، وكان ممثلها الحقيقي...

كان عليك أن تكون في تلك الحانة، فكر فرانك، كان عليك أن تكون في ذلك اليوم، عندما أذلوني من أجله، ونعتوني بالغراب ذي الأرجل

الذهبية، حتى لو كنت موجوداً هناك في ذلك اليوم، لن تتغير لهجة خطابك.

ـ القدمان الذهبيتان والمنظم البارع... بطل التحرير الوطني، بطل النضال ضد الفاشية... منظم، وملهم لنجاحاتنا الوطنية، لقد خدم بصدق، وحتى النفس الأخير قضا يا الشعب...

حتى النفس الأخير... إن جالوفيتش يعرف أكثر من غيره، كيف كان وضعه في النفس الأخير.

لقد وقع في السنوات الأخيرة في حمى الموضة، والتي أصابت الكثير من المسؤولين، وهذه الهواية لم تكن سيئة. اختار هذا الميت الصيد من بين الهوايات. إنه الطريقة الوحيدة للاسترخاء والاستجمام والهروب من المسؤوليات والعمل اليومي الممل... هرب إلى الطبيعة، إلى الغابات الكثيفة العميقة، إلى الأمكنة التي لا يمكن لأي مسؤول الوصول إليها إن لم يكن يملك هذه الهواية، ولكن الصيد لا يمكن أن يكون النشاط الوحيد لرجل الدولة، بل هناك واجبات أخرى عليه القيام بها، غير أنه بالفعل لم يكن يقوم بأي عمل آخر، لقد وجد في الصيد هروباً من حياته الفاشلة، وتعويضاً عن الإخفاقات التي كانت تلازمه، ولتذكير نفسه بأنه مايزال شاباً، وصياداً بارعاً، كما كان في أيام النضال، لقد كان الصيد المتعة الوحيدة، والأخيرة بالنسبة إليه، وعندما يحن للصيد يترك كل شيء، وينسى التنظيم، والبرامج، كانت طاولته مليئة بالأوراق والملفات التي كانت تحتاج للتوقيع، ولكنها كانت تنتظر، ولَمَ العجلة.

في أحد الاجتماعات الهامة التي ترأسها جالوفيتش، كان الكرسي الذي يجلس عليه الميت فارغاً، لم تكن المرة الأولى التي يتخلف فيها عن الاجتماعات، ولقد تعودوا على غيابه، قرأ جالوفيتش في بداية الاجتماع رسالة من المتوفى يعتذر فيها عن حضور الاجتماع، ولم يكن

ذلك شيئاً جديداً، والجديد بأن جالوفيتش صرح في هذا الاجتماع بعد تلاوته الرسالة بأن هذه الجلسة ذات أهمية كبيرة.

استعد الجميع. لابد أن شيئاً هاماً قد حدث.

ـ أيها الرفاق، إنني أقف أمام مهمة، وواجب صعب، وأرى من واجبي أن أخبركم ببعض الحقائق التي تغاير ما جاء في تلك الرسالة، إن الطاعة الحزبية تحكم تصرفات الجميع، وكلما كان مركز الرفيق عالياً، زادت مسؤوليته، وإنني آسف لإبلاغكم بسبب غياب الرفيق المسؤول عن الاجتماع، هل كانت المهمّة التي أجبرته على التغيب أكبر من هذا الاجتماع؟ إنه في الصيد، ولقد صاد غزالة قبل ساعة.

جلس جالوفيتش وحدق بوجوه الحاضرين، وراقب ردود فعلهم، لم يكن ذلك الغياب أمراً جديداً على الحضور، لكن جالوفيتش أراد بهذا الكلام معرفة ما إذا كان الوضع قد استوى وحان للقيام بالخطوة المصيرية، لقد كان تقديره في محله. كان الغضب والشّجب لهذا العمل سريعا من الجميع.

ـ يصيد غزالة... ليس غزالاً ولكن غزالة، إنها محمية بالقانون، إن صيدها وتقليص عددها أمر ممنوع في القانون، وخصوصاً في وقت الحمل! عمل شنيع، وجريمة!.

لقد ثار جالوفيتش غاضباً، وشاجباً. وتابع حديثه:

ـ إنني أملك الدليل أيها الرفاق، بأنه قد قام بهذا الفعل الشنيع مرات، ومرات، إنه يخالف القانون، وواجب المواطن، وهذا شيء لا يمكن غفرانه، والتغاضي عنه، خاصة وأنه قد حصل من قبل رفيق!

بعد سماعهم الخبر أفاقوا من ثورتهم، لم يكن حديثه مجرد إعلام بالخبر؟ كان في حديثه شيءٌ آخر؟ ربما قد حانت اللحظة التي كانوا بانتظارها بكثير من القلق؟ هل أعلن جالوفيتش عن الضربة القاضية، أم سيكتفي بإعلان الحقائق؟

لابد أن جالوفيتش كان يبغي تمرير قرار ما، وقد شعر بأنه كشف الأمور بشكل صحيح، وناجح، في الوقت المناسب، ومرر قراراً جماعياً بتأنيب الرفيق، والتأنيب يمكن تمريره بسهولة، ويمكن تبريره ببراءة، وإن كان قد اقترح شيئاً أقسى فلربما وجد من يقف ضده، ومن يعلم، الوقت مازال غير مناسب. لم يكن جالوفيتش في هذا الوقت يحظى بالأغلبية اللازمة.

لقد صوتوا للتنبيه، شعروا بالراحة لأن جالوفيتش لم يذهب أبعد من ذلك، لكنه لعب بشكل جيد وذهب بعيداً، أبعد مما تصوروا، لقد كانت خطوة تكتيكية ناجحة، ولم يشعروا بأنهم صوتوا بالضبط لما كان يريد، وللشيء الذي كان يعتبره ضربة قاضية.

في اليوم التالي تلقت وكالة الأنباء الرسمية أمراً سرياً يمنع ذكر اسمه، ونشر صوره في الجرائد، والمجلات حتى إشعار آخر.. حتى إشعار آخر.. ذلك يعني حتى انتهاء التحقيق في هذا الموضوع، وإغلاق الملف. إن المحقق سوف يكون على الأغلب جالوفيتش، وهو الذي سوف يغلق الملف. ما سيقترحه سوف يوافقون عليه، سيصوتون له، لقد صوت الجميع للتنبيه، وليس بإمكانهم تغيير قرارهم أو إلغاؤه.

هنا كانت نهاية رجل الدولة، في هذه اللحظة مات. وبأسوأ الحالات أنقذه مرضه الخبيث، حتى جالوفيتش لم يكن بإمكانه الذهاب في هذا الموضوع أبعد من ذلك. لماذا عليه أن يفعل؟ إن جالوفيتش حارس الأخلاق، لم يكن يريد أن يظهر إلى العلن في مثل هذه القضية. إن الإعلان عن تركه للمهمات الموكلة إليه بسبب المرض سوف يلقي وقعاً ألطف على الناس، لقد أغلق الملف بمفرده بسبب موته الفيزيولوجي.

ضحك فرانك عندما علم سبب منع نشر اسمه، وصوره في الصحافة، والتبرير الذي قيل في حينها. كان على ذلك الميت أن يترك مركزه منذ

مدة طويلة، لم يعد بإمكانه الاستمرار، وبسببه ازدادت وتراكمت الأخطاء والأضرار، ولم يكن في مقدوره منع شيء، أو تلافي تلك الأخطاء، لم يعد يملك العزيمة، والشجاعة، كان دائم التهرب من المسؤولية، ولا يريد أن يقرر بنفسه حتى الأمور الصغيرة، وهنالك الكثير من الأسباب التي تستدعي خروجه من المنصب الذي شغله.

خرج، لأنه قام بصيد غزالة!

لم يندهش فرانك من الخبر الذي كان يتناسب مع مركز وأهمية ذلك المتوفى.

وجالوفيتش يتكلم، وينهي خطابه بهذه العبارة:

إنك حي، وستبقى حياً بيننا.

عندما أنهى جالوفيتش خطابه شعر فرانك بالأسف على ذلك الميت، لقد ارتكب الكثير من الأخطاء، واستغل في الكثير من الأمور السُلطة التي لم تكن في الحقيقة ملكه وحده، وتسبب في الكثير من المآسي، لم تكن أفعاله دائماً صحيحة، ولكنه يبقى إنساناً، ومعرضاً للخطأ، ومن منا لا يخطئ؟ لم يكن فرانك يبحث له عن أعذار، لكنه كان يحاول فهمه، لقد كان يعرفه في صور مختلفة، صور عظيمة.

جالوفيتش لم يكن ليخطئ، إنه معصوم عن الخطأ، وصاحب أخلاقيات، لا يضعف ولا يملك أية هواية، ويقال عنه إنه لا يستطيع النوم، ولكن الحقيقة أنه كان ينام بمجرد وضع رأسه على الوسادة، كان ينام كالميت، لقد كان مرتاح الضمير، ومهما روي عنه من كلام، إلا أنه لم يقم بأي عمل له خلفية تتعلق بمصلحته الشّخصية، لم يكن يملك مصالح أو رغبات شخصية، لقد كانت هوايته ـ يمكن أن يقال، أو كان قانونه الوحيد هو الواجب، لم يكن يعرف شيئاً عن الفرح أو الحزن. لقد دأب ذلك المتوفى طوال حكمه على تجميع السلطات في يده، ولكن كان هناك دائماً من يعترض طريقه، وجالوفيتش لم يكن من

هذا النوع، لم يكن يملك مثل تلك الرغبات، وعندما تجمعت السلطات في يده، حصل ذلك بدون إرادته، وبدون رغبة خاصة منه، لم تكن السلطة هدف جالوفيتش، بل كانت وسيلة، لم يستغلها لمصلحته الشخصية. جاءت إليه وحدها بدون دعوة أو رغبة، وبدون تعب، لقد كان متمسكاً بالقانون، وكان يتصرف بقسوة، وبدون أن تكون هناك مصلحة شخصية، لقد كان دائما يقوم بواجبه، ولم يكن يعنيه شيءٌ من الآخرين.

كان ذلك الميت يكرهه، ولقد كان فرانك شاهداً على حنقه وغضبه في إحدى المناسبات من جالوفيتش، كان يخافه، وعندما سمي ذلك المتوفى رئيساً للمكتب كان يشعر أن ذلك اليوم كان يوم انتصاره، وفوزه على جالوفيتش، وكان يشعر بأن جالوفيتش لن يستطيع النيل منه في مركزه الجديد، وبخاصة وأن الكثير من السلطات أصبحت بيده، ولكن بعد مدة بسيطة استلم جالوفيتش منصبه الحالي، وبدأ ذلك الميت بالخوف من جديد.

جالوفيتش لم يكن يخاف، لم يكن يخاف أحداً، ولا يخاف شيئاً، وقليلاً ما كان يشعر بالحقد حتى بالنسبة لذلك المتوفى، لقد كان يحقد بالدرجة الأولى على الأعداء الطبقيين، وهو الحقد الوحيد الذي كان يعترف به، ولكنه كان مكلفاً بالسهر على الأخلاق العامة في البلاد، وقد كان يسهر دائماً، وفي كل زمان، ومكان. لقد جمع المعلومات عن أفعال المتوفى، فقد تلزمه في يوم من الأيام، ولقد جمع معلومات عن أناس آخرين كان لا يملك سبباً في تجميع أخبارهم أو ملاحقتهم. كان على جالوفيتش أن يعرف كل شيء، وكان يعرف.

لقد كان صديقه رجل الدّولة يحتاج إلى بيت كبير، إلى الكثير من البريق، والكثير من المدح، كان يهوى الفخفخة، كان يحب الظهور أمام الناس، وكان يصطحب معه زوجته التي بدأ يكرهها، لكنها كانت

تؤدي الخدمة اللازمة لمركزه، كانت جميلة، بإمكانها أن تظهر على العلن مقدار نجاحه.

جالوفيتش كان يسكن في منزل متواضع من ثلاث غرف في مجمع سكني كبير، لم يكن يملك فيلا، لم يكن يحب الظهور العلني، كان يشعر في مثل هذه المناسبات أنه خارج جلده، لم يكن يحسن التصرف، ولا يعرف الأكل حسب البروتوكول، كما أنه لم يكن يجيد ضبط ربطة عنقه، لم يكن يظهر مع زوجته، وغالباً عندما كان مضطراً للظهور، كان يحضر وحيداً، لقد قام بإقرار مشروع يمنع فيه المسؤولين من اصطحاب زوجاتهم إلى الحفلات الرسمية، لقد كانت الحفلات تبدو في ذلك الوقت كمؤتمرات اللوطيين.

كانت زوجة جالوفيتش بدينةً، وبدانتها غير متناسقة، ولم تكن ذكية، والقليلون يعرفونها شخصياً، فرانك رآها خلال مدة نشاطه المهني خمس مرات، لم يكن أحد يهتم بوجودها، إن رجلاً كجالوفيتش لم يكن من النوع الذي يهتم بهذا الموضوع أو يعتبره ضرورياً، كانت حياته الخاصّة غير معروفة لأحد، وهي غير هامة أيضاً. علماً بأنه كان رجلاً ضخماً، ويتمتع بصحة جيدة، ولا شك بأنه قوي من الناحية الجنسية. لم يسمع أحد أنه كان يعاشر امرأة غير زوجته، ولم يكن أحد يتصور ذلك، ملاحقة النساء تتعارض مع أخلاقياته التي كان حريصاً عليها، ومتمسكاً بها. وإن كان في يوم من الأيام قد أعجب بامرأة، فإنه لم يكن ليظهر ذلك، يترك هذه الرغبة حبيسة في نفسه، كان بإمكانه كبت الرغبات التي تسوّد صفحة الإنسان الثوري. إن الضعف عند الإنسان الثوري من أولى علامات سقوطه، وبدء خيانته.

هل كان شيئاً ممكناً أن تهتم به امرأة ما؟ ربما كان ذلك ممكناً، فالنساء مختلفات، ورغباتهنّ غير معروفة، ولماذا لا توجد المرأة التي

تريد إغواءه، وإضعاف هذا الرجل القوي؟ كانت النساء الجميلات يذهبن إليه، ويطلبن منه مساعدة أزواجهن المعتقلين، وبعض أولاء النساء ما كنّ ليحتجن لأكثر من إشارة واحدة منه للذهاب إلى السرير، وربما قد حدث شيء من ذلك، ولكن جالوفيتش مثل الصخر، الصخر القاسي، يناضل من أجل سعادة البشرية، من أجل عالم جديد، عالم تسوده الأخلاق. غبيٌّ؟ لم يكن غبياً أبداً، لقد عرف نقاط الضعف عند البشر، وعرف استغلالها، إن رفضه للشراب كان شيئاً من أخلاقياته الثّوريّة، وحين كان من الصعب عليه أن يرفض في المناسبات الرسمية، كانوا يجهزون له كأسا من الماء الملون حسب لون الشراب.

كان يذهب إلى العمل، ويعود منه مترجلاً، وإذا ذهب في إجازة، وكان نادراً ما يأخذ إجازة، يستعمل القطار، ويركب في الدرجة الثانية من ماله الخاص، لقد كان يراقب بشكل دقيق استعمال السيارات '' بسمية من قبل المسؤولين في حياتهم الخاصة.

ربما سيستفيد من تلك المعلومات في يوم من الأيام.

كان دائم التواجد في العمل، لم يكن يتكلم كثيراً مع الموظفين، وكان يجلس وحيداً في المناسبات الرسمية، يراقب، لم يكن لديه صديق، كان يعتبر الصداقة شيئاً متعباً، ورباطاً غير نافع. وفي هذه الوحدة كانت تكمن قوته المرعبة، كان معروفاً بأنه لا يرتشي، وصلب ويقظ. لم يكن أحدٌ يعرف عنه أكثر من ذلك.

كان مقتنعاً بصواب سلوكه، لم يفكر في يوم من الأيام بأنه ربما كان مخطئاً، وبالنسبة إليه إن أي تفكير بهذا الشكل هو بداية الخيانة. لم يتوقف، ولم يفكر بالليل في الأمور التي تهم المجتمع، كان قاسياً، صلباً. هل كان فاناتيك؟ لا.. لم يكن منهم، هؤلاء عادة يكونون سريعي الغضب ولا يمكن توقع ردود فعلهم. لقد كان جالوفيتش آلة لطحن

الناس، رجلاً بأخلاق كالصخر، لا يخطئ، لم يتعالَ في يوم من الأيام على الناس، كان إنساناً غير عادي.

إنساناً؟ رجلاً؟

ألم تجعل كل هذه الصفات الخارقة منه رجلاً يحسب حسابه؟ يخافه الجميع، لقد كان جالوفيتش يرى تشابهاً كبيراً بين أخلاقياته الخاصة وبين الأخلاق التي عليها أن تسود المجتمع، اليوم يسكر وغداً يخون.

لا يمكن لها أن تتحمل الخيانة، والعواطف. العواطف والتراخي في معالجة الخيانة أسقطت أنظمة، ودولاً، لقد كان جالوفيتش مستعداً لاحترام أي إنسان أفضل منه، إن وجد ذلك الإنسان، ويا ويل من يكون سيئاً حينها لا يعرف الرحمة. الجيد جيد، والسيء سيء، المثقفون فقط يحاولون شرح وتغطية الأخطاء الإنسانية، ويعزون ذلك إلى تعقيد الحياة الإنسانية.

جالوفيتش ليس من أولئك الذين سوف يقعون في ذلك المطب الذي ابتدعه المثقفون، الشيء الإنساني هو الشيء التقدمي، والتقدمي هو الشيء الثوري، لم يكن أحد ليتجرأ على أن يسأل جالوفيتش عما يقصد أويتخيل تحت كلمة الثوري لأنه سوف يتعذب في الجواب، سيشعر بالارتباك.. لا.. لا.

لن يستطيعوا إرباكه، ان رده عليهم واضح.

إن جالوفيتش، وتحت ستار حماية الثورة من الأعداء، والمخربين، حطم، ونشر، قهر الناس، أي شبهة بأحد كانت كافية لجالوفيتش أن تكون برهاناً، وما تبقى من هذه المهمّة من اختصاص أقسام التحقيق التي يبقى عليها الحصول على الاعتراف اللازم بوسائل معروفة.

كيف أمكن أن يبقى طوال هذا الوقت في قمة السلطة؟ ألم يكونوا يعرفونه، ويعرفون تصرفاته؟ لقد كانوا يعرفونه، ويعرفون تصرفاته، ولذلك تركوه في منصبه، وسلطته، لقد كان ذلك الميت يوصف بالرجل الشجاع الذي لا يخاف، لكنه أصبح في ذلك الوقت يخاف من جالوفيتش، لقد كان ظاهراً للعلن بأن هناك رَجُلَيْن قويَّين في الحكم، وهما يتصارعان كالديوك، لكن الحقيقة أن هناك ديكاً واحداً قوياً. وربما كان هذا الديك القوي يحتاج لذلك الديك الآخر.؟، هل كان ذلك رغبة في توازن القوى؟ ربما كانا يكمل بعضهما بعضاً. وربما كانت حياة أحد منهم ضرورة وضمانة لبقاء الآخر. إن جالوفيتش لم يتورع في تمزيق عدوه حالما يحصل على مستند في يده، ولم يكن ليفعل ذلك من الخوف أو من الحسد، ولكن من التفكير المبدئي والقانوني. لقد حطمه، وبذلك وصل إلى قمة سلطته الخاصَّة، ولكن ألم يقم بذلك بتحطيم نفسه؟ هنالك الكثير من المراكز التي بدأ باستلامها الشباب عديمو الخبرة، وهذه المراكز سوف تهرب من مراقبته، وهؤلاء الشباب لن يلعبوا لعبته ويسيروا على سكته، كان الكبار مؤدبين وملتزمين، يسمعون الكلمة، وأغلبهم ذووا ماض مشكوك بنقائه، و كانوا يخافون، ويعرفون أن جالوفيتش يعرف عنهم الكثير، أما عن هؤلاء حديثي العهد فإنه لا يعرف شيئاً، إن جالوفيتش عاش حياته بدون صداقات، ولم يكن بحاجة لها، وهو الآن وحيد، وحيدٌ من المجموعة القوية القديمة، لقد ارتكب خطأ بإزاحته ذلك الميت، لن يعزف الشباب على أوتاره، ولن يرقصوا على أنغامه، لن يتقيدوا بقوانينه، وأخلاقياته، وهم لا يتميزون بيقظته الثوريّة، وسوف يعملون حسب قناعاتهم، قناعاتهم الخاصَّة؟ إن هذا يعني حسب جالوفيتش الخيانة، ويوجد بينهم من يسخر منه، و يغرق ضاحكاً من أفعاله، إن شيئاً من هذا لم يكن موجوداً من قبل،

إنه شيء جديد وغير مطمئن! عندما يفكر جالوفيتش بهذه الأمور يخاف على الثورة ومستقبلها.

ما يزال رجلاً ذا سلطة، ولم يكن في يوم من الأيام يتمتع بذلك القدر من السُّلطة، إنه يملك بين يديه السلطة الحقيقيّة بكاملها مع الجهاز اللازم للمراقبة والمتابعة، ولكنه يشعر بأن كل شيء قد اقترب من النهاية، وبموت ذلك الرجل انتهت حقبة من الحكم، وجالوفيتش هو ركامها. سوف يكون معرقلاً، وعقبة، لقد كان معرقلاً وعقبة منذ زمن طويل، ولكن لم يكن معروفاً أنه هو المسبب في العرقلة، كان كل شيء ينسب لغيره، كان متخفياً عن العيون وكان ذلك الميت في الواجهة، ولكن منذ هذه الساعة اختلف الأمر، وسيكون هو في الواجهة، سيكون، وسيكون في الواجهة.. وحيداً، لقد كان مثل دوار الماء، يصيد في الظلام، والآن، وإن كان لا يريد فسوف يعمل في الضوء، لقد كان رجل العتمة.

قام فرانك بالتقاط صور عديدة لجالوفيتش، صوّره وهو يخطب فوق جسد الميت الذي كان سبباً في تحطيمه، له رأس غريب، رأس مبوز وعيون رمادية، لقد فرح فرانك بتلك الصور، سوف تكون الصفحة الأخيرة في ألبومه عن حياة إنسان وموته.

أنهى جالوفيتش كلمته، استدار وسار باتجاه الأرملة، مد يده إليها مصافحا. مر الجميع من أمامها، وقاموا بمصافحتها، حتى فرانك قام بمصافحتها، وإن كان من غير اللائق أن يقوم مصور بمثل هذه الحركات، المصور ليس إنساناً، إنه شيء، إنه عبارة عن عدسة، عندما شد فرانك على يدها، وشوشته بصوت منخفض قائلة: آن الأوان لينتهي كل شيء.

انتهى كل شيء، الفرقة الموسيقية المختفية في الطابق العلوي بدأت بعزف موسيقى الشهيد، وقام ستة من الجنرالات بحمل التابوت، وخرجوا من القاعة.

لم يخرج فرانك خلفهم، لقد انتهت مهمته هنا، وما سيجري في الخارج أصبح من مهمة زميل آخر، كان ينتظر في الخارج. قام اثنان من الرجال الأقوياء بإغلاق الباب البرونزي، اثنان آخران خرجا بالتوقيت اللازم من الباب الخلفي وقاما بإطفاء الضوء اليوناني، الثريا الكريستالية الكبيرة، صرخ بهم رئيسهم عندما كانوا يُنزلون عن الجدار المخمل الأحمر:

ـ انتبهوا على المخمل.

لم ينتبه أحد لوجود فرانك، وعندما كانوا يرفعون بقايا الزينة التي كانت على الجثمان، نظر فرانك إلى ساعته، لم يستغرق عملهم نصف ساعة، كان عمال التلفزيون يلفون أشرطة التوصيل، وعادت الصالة إلى وضعها العادي، عاديّة لا، سوف يقومون بتنظيفها، ووضع زينة جديدة فيها. بعد ظهر ذلك اليوم سوف يقومون في هذه الصالة بتنصيب رئيس المكتب الجديد، كل شيء يجب أن يلمع.

صادف فرانك في الشارع ماركيتا، كانت تحمل حقيبة مليئة بحاجيات البيت، كانت قد اشترتها. لم يخبرها بأنه رآها، ولكنها اعترفت له بذلك.

ذلك الوقح! لم يخجل.

لقد كانت تعني جالوفيتش بكلامها.. وخطبته...

في الحقيقة لم يتغير الكثير. فكر فرانك، أحدهم قد مات، ولكن ماركيتا بقيت على حالها، وكما كانت من قبل، دائماً كما عرفها بدون تغيير.

من الطبيعي أن التقصير في كل شيء كان يقع فوق رؤوس الآخرين، وبذلك بدأت تنمو في مخيلته فكرة مرعبة. إن الناس هنا بدون عقول، ويحتاجون دائما لمن يشدهم بيده إلى العمل، ومن يراقبهم، ويعاقبهم، هذا الشعب لا يمكن الوثوق به، إنه يخرب عمدا كل شيء، إن الجميع يحسدونه، ويقفون عقبة في طريقه. وفي الأيام الأخيرة فقد ثقته بالجميع. إنهم يخونونه ويتركونه ويغشونه، لم يعد يستطيع الاعتماد على أحد.

اليوم تراه مسجى في هذه القاعة، واثنان من مندوبي المدينة الذين أدار لهم ظهره في ذلك الوقت يقفون بين مجموعة حرس الشرف. لابد أنه في وقت ما، عرف أنه بجرّة قلم بسيطة، قد سبب للمدينة مأساة بدلا من السعادة، لكنه كان دائما يجد سبب الفشل في الآخرين، هؤلاء الذين يضعون العراقيل في طريقه، ويسببون الإخفاقات التي تحدث! لقد أرادوا سقوطه من خلال توريطه بمشاريع فاشلة، وكانوا يقدمون له معلومات خاطئة، ويجعلونه يوقع عليها. في النهاية أصبح يخاف من اتخاذ أي قرار، وبالمقابل نشط في حشد وتركيز سلطته، ووضع في يده كل السلطات الممكنة، ولم يكن هدفه من ذلك أن يحكم، فقد تخلى عن هذا الموضوع منذ مدة، ولكن لرغبته في البقاء، وليضاعف من إحساسه في أعماقه بالثبات والجدوى. ولكنه مع ذلك كان خائفا، لقد كان خائفا من شخص، وهذا الشخص لم يكن ممكنا الوصول إليه بسهولة.

دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا - اللاذقية - ص.ب 1018 هاتف 422339
9789933432669